محبة الرسول ﷺ

بين الاتباع والابتداع

تأليف

عبد الرؤوف محمد عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.

أحمده حمد الشاكرين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. كلمة حق قامت عليها السماوات والأرضين وبا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين. ولأجلها انقسم الناس إلى مؤمنين وكافرين. فمن سبقت له السعادة بالإيمان كان من الناجين. ومن تنكب عنها واتبع هواه كان من الهالكين. وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، المبعوث بالدين القويم، والصراط المستقيم. أرسله الله رحمة للعالمين، وإماما للمتقين، وحجة على الخلائق أجمعين. فلم يزل ﷺ يجتهد في تبليغ الدين، وهدى العالمين، وجهاد الكفار والمنافقين. حتى طلعت شمس الإيمان، وأدبر ليل الكفر والبهتان، وعز جند الرحمن، وذل حزب الشيطان، وظهر نور الفرقان، فبلغت دعوته القاصي والداني، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليما مقرونا بالرضوان.

أما بعد، فإن الله افترض على العباد طاعة نبيه ﷺ ومحبته وتوقيره والقيام بحقوقه. وسد الطريق إلى جنته فلن تفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح الله له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره.

فقام المسلمون بأداء ما افترضه الله عليهم من محبة نبيه وتوقيره وإكرامه وبره واتباعه وطاعته حق قيام، وظهر من حبهم لرسول الله ﷺ ما جعلهم يفدونه بكل عزيز وغال، ويؤثرونه على الأهل والأوطان والأموال، حتى باعوا أنفسهم وأموالهم لرب العالمين. نصرة لدينه، ودفاعا عن نبيه ﷺ ونشرا لهذا الدين في العالمين، فرضي الله عنهم أجمعين.

حتى إذا دب الضعف في هذه الأمة، أدركتها سنة الله في الأمم، فظهر فيها التفرق والاختلاف، والعداوة والبغضاء، وتفرق أهل القبلة على فرق شتى وطرائق قددا، واتخذ النفاق فرصته السانحة في توسيع شقة الخلاف، ورفعت الزندقة رأسها، ودخلت معترك

الفرق بقديم حقدها، وكوامن غيظها. كيدا لهذا الدين الذي قوض أركانا، وأذهب من الأرض سلطانا. استمال هؤلاء الزنادقة الأغرار بالعقائد الباطلة، واستغلوا الفتن التي وقعت بتدبيرهم في تزيين الكفر وإلباسه ثوب الغلو في علي ﷺ وآل البيت من ذريته. حتى خرجوا بأكثر الناس من الإسلام إلى مذاهبهم الباطلة.

وتوارث أخلافهم سنتهم في الغلو. فغلوا في رسول الله ﷺ حتى أخرجوه من نطاق البشرية إلى مرتبة الألوهية، ونسبوا إلى الله ورسوله ما لا يليق من صنوف الكفر والبهتان، الهادمة لما جاء به الرسول ﷺ من أصول الإسلام والإيمان. وزعموا أنم بذلك يريدون إظهار حبه وتعظيمه، وأوهموا المخدوعين بم أنم أولى الناس بالنبي ﷺ وأكثرهم حبا له. وحاولوا إخفاء زندقتهم بدعاوي الزهد والتنسك والتصوف. فمال إليهم الأغرار، وظنوا أنم من الأبرار الأخيار، وأنم أحباب النبي المصطفى المختار.

ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. فقيض سبحانه من عباده المخلصين، وحزبه المفلحين من أزاح الغشاوة عن الأبصار، وبين للناس زيف الزنادقة الأشرار، وأنم لا يريدون إلا هدم الدين وتغيير سنة خاتم المرسلين. فتتبعوا أقوالهم وأحوالهم، وكشفوا عن وجوه زندقتهم. حتى غدا أمرهم لأولي الأبصار مكشوفا واضحا، وتبين لأولي النهى من كان لله ورسوله محبا صادقا، ومن كان في دعوى المحبة دجالا كاذبا، ولإفساد دين المسلمين ساعيا.

ولما كانت محبة رسول الله ﷺ هي دعوى الفريقين ومتنازع الحزبين. أردت أن أجلي في هذا البحث عن وجه الحقيقة كاشفا عن الصواب، مستعينا بالعزيز الوهاب، ورغبت في تحرير محل الا اع، فأسميته (محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع).

ووقع الاختيار على هذا الموضوع لأسباب منها:

- كون محبة الرسول ﷺ ركنا أصيلا من أركان الإيمان، أصابه ما أصاب الإيمان من ضعف لدى بعض المسلمين، فأردت أن أبين مكانة المحبة من الإيمان.

- أن المحبة أمر قد يستتر وراء الدعاوي والمزاعم فأردت أن أبين الشواهد الصادقة لهذه

المحبة والأمور الفارقة بين الصادق فيها والكاذب. والتي من أهمها الاتباع.

ظن كثير من المسلمين- تأثرا بغلاة الصوفية- أن من لوازم محبة الرسول ﷺ الغلو فيه فأردت أن أبين أن المحبة شيء مختلف تماما عن الغلو. فالأول فرض عين، والثاني ضلال ومين.

- اتام كثير من الغلاة عامة المسلمين بالجفاء للرسول ﷺ ما لم يوافقوهم في غلوهم الذي يسمونه محبة. فأردت أن أبين وجه الصواب في المسألة.

- أن حال كثير من الغلاة مخالف لأصول الشرع، مع ادعائهم أنم أحب الأمة للرسول ﷺ فأردت أن أبين حقيقة أمرهم على ضوء الكتاب والسنة.

- ما حدث في الأمة بسبب الغلو في الرسول ﷺ من صنوف البدع التي شوهت معالم الدين عند أكثر المسلمين، فأردت أن أبين آثار الغلو على الدين اعتقادا، وتعبدا وسلوكا.

وقد رسمت خطة بحثي هذا على النحو التالي:

التمهيد:

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: وسأتحدث فيه عن معنى النبوة والرسالة بإيجاز.

المبحث الثاني: عن بشرية الرسول ﷺ وسأبين أن كمال الرسول أن يكون بشرا رسولا.

المبحث الثالث: النبوة اصطفاء إلهي، وسأتحدث فيه عن بعض مظاهر اصطفاء الله لنبيه ﷺ بإيجاز.

الباب الأول (المحبة والاتباع)

الفصل الأول: محبة الرسول ﷺ.

يحتوي هذا الفصل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم المحبة، وسأتحدث فيه عن معنى المحبة في اللغة عموما ومعناها في الشرع على وجه الخصوص.

المبحث الثاني: وجوب محبة الرسول ﷺ وسأتحدث فيه عن حكم محبة الرسول ﷺ في الشرع، ومكانتها من الإيمان.

المبحث الثالـث: دواعي محبة الرسول ﷺ وأسباب زيادتها، وسأتكلم فيه عن الدواعي والدوافع التي تدفع المسلم إلى محبة الرسول ﷺ وأسباب زيادة هذه المحبة.

المبحث الرابع: مظاهر محبة الرسول ﷺ وسأبين فيه العلامات الواضحة والشواهد الصادقة التي من اتصف بها كان صادقا في حبه لرسول الله ﷺ وسأتبعه ببيان آثار هذه المحبة على سلوك المسلم وأفعاله.

الفصل الثاني: الاتبـاع:

يتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الاتباع وسأبين فيه معنى الاتباع لرسول الله ﷺ في اللغة والشرع.

المبحث الثاني: وجوب طاعة الرسول ﷺ واتباعه، وسيكون الكلام فيه أدلة هذا الوجوب من القرآن والسنة.

المبحث الثالث: مظاهر الاتباع، وسأبين فيه العلامات الواضحة التي من اتصف بها كان متبعا لرسول الله ﷺ.

الباب الثاني (الغلو والابتداع)

يشتمل هذا الباب على فصلين

الفصل الأول: الغلو في الرسول ﷺ ويحتوي هذا الفصل على ستة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الغلو، وسيكون الحديث فيه عن معنى الغلو في اللغة والشرع، وأنواع الغلو والأسباب التي أدت إلى ظهوره عند المسلمين.

المبحث الثاني: الغلو عند اليهود والنصارى.

على أساس أنهم ابتلوا بداء الغلو في أنبيائهم، وأن من غلا من المسلمين فهو متشبه بهم، آخذ بسننهم التي حذرنا الله ورسوله من اتباعها.

المبحث الثالث: الغلو في الرسول ﷺ عند الشيعة باعتبار أنم أول من فتح باب الغلو في الأشخاص في هذه الأمة بغلوهم في علي رضي الله عنه وآل البيت من ذريته.

المبحث الرابع: الغلو في الرسول ﷺ عند الصوفية وسيكون الكلام فيه عن مطلبين:

المطلب الأول: الغلو عند الحلاج وذلك باعتباره أول صوفي اشتهر عنه الغلو في الرسول ﷺ كغلو النصارى في عيسى عليه السلام منطلقا من مذهبه في الحلول.

المطلب الثاني: الغلو عند ابن عربي باعتباره ممثلا لمذهب وحدة الوجود وسأتحدث في هذا المطلب عن مذهب ابن عربي في الحقيقة المحمدية التي كان لها أكبر الأثر في انحراف الصوفية من بعده في اعتقادهم في الرسول ﷺ إذ جعلوه مساويا لله عز وجل في ذاته وصفاته تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

البحث الخامس: آثار الغلو في الرسول ﷺ على الاعتقاد والأعمال، وسأبين فيه كيف أن الغلو في الرسول ﷺ كان سببا في إفساد العقيدة وتشويه معالم الدين.

المبحث السادس: حكم الإسلام في الغلو. وسأبين فيه حكم الشرع في الغلو في الرسول ﷺ وحكم من اعتقد مقالة الغلاة في الرسول ﷺ.

الفصل الثاني: الابتـداع:

يتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف البدعة وبيان حكمها وسأتعرض فيه بشيء من التفصيل إلى أقوال العلماء في تعريف البدعة، وهل تنقسم إلى حسنة وسيئة أم لا؟ ثم أتبعه بتحرير محل ال اع بين الفريقين في هذا الموضوع.

المبحث الثاني: البدع التي ظهرت بدعوى محبة الرسول ﷺ وسأتحدث فيه عن نماذج من هذه البدع على سبيل المثال لا على سبيل الحصر والإحصاء، فمن هذه البدع اعتقاد الصوفية بحياة النبي ﷺ حياة تامة لها كل خصائص الأحياء وبنوا على ذلك زعمهم بأنم يرونه يقظة لا مناما، ويجتمعون به، وسأبين ما انبنى على هذه البدعة من بدع أخرى ومن هذه البدع التوسل غير المشروع بالنبي ﷺ ثم البدع المتعلقة بزيارة قبره ﷺ ثم بدعة المولد

ثم أعرض نماذج من الصيغ المبتدعة في الصلاة على النبي ﷺ.

المبحث الثالث: آثار الابتداع.

وسأتحدث فيه عن آثار البدعة الوخيمة على المبتدع في نفسه، وعلى الدين، وعلى المجتمع المسلم وأتبعه ببيان موجز عن كيفية مقاومة البدع.

الخاتمــة

وسأتحدث فيها عن أهم النتائج التي أتوصل إليها من خلال بحثي في هذا الموضوع.

وقد رسمت لنفسي منهجا في معالجة هذا الموضوع على النحو التالي:

١- أن أقوم بجمع مادة هذا البحث من مظانه المعتبرة حسبما يتيسر لي من مراجع ومصادر.

٢- سأقوم بعزو الآيات القرآنية التي ترد في أثناء البحث إلى مواضعها من سور القرآن.

٣- تخريج ما يرد من أحاديث في أثناء البحث.

٤- الرجوع إلى معاجم اللغة في التعريفات اللغوية.

٥- سأترجم لمن يرد ذكره في أثناء البحث من الأعلام غير المشهورين ترجمة موجزة.

٦- سأقوم بعزو الأقوال إلى أصحابها، أو إلى المصدر الذي اقتبسته منه.

تمهيد

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول:

تعريف النبوة والرسالة.

المبحث الثاني:

بشرية الرسول ﷺ.

المبحث الثالث:

النبوة اصطفاء إلهي.

المبحث الأول

تعريف النبوة والرسالة لغة وشرعا

النبــوة:

النبوة في اللغة: مشتقة من النبأ بمعنى الخبر.

قال الله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [2].

جاء في لسان العرب:

(النبأ: الخبر... والنبيء المخبر عن الله عز وجل.. لأنه أنبأ عنه، وهو فعيل بمعنى فاعل.

قال ابن بري [3]

صوابه أن يقول: فعيل بمعنى مفعل. مثل نذير بمعنى منذر وأليم بمعنى مؤلم.

... وقال الفراء [4] النبي: هو من أنبأ عن الله فترك همزه.

قال: وأن أخذ من النبوة والنباوة وهي الارتفاع عن الأرض- أي أنه شرف على سائر الخلق- فأصله غير الهمز) [5]. وعلى ذلك فالنبوة في الأصل مشتقة من النبأ وأصلها الهمز لكن لما كثر استعمالها خفف بإسقاط الهمز، أما اشتقاقه من النبوة والنباوة فهو ضعيف من

---

(١) سورة الحجر آية : ٤٩ .

(٢) سورة التحريم آية : ٣ .

(٣) هو عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي المصري (٤٩٩- ٥٨٢ هـ) . نحوي لغوي ، من مصنفاته : اللباب في الرد على ابن الخشاب ، وحواش على الصحاح لم يكملها . انظر : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، مطبعة عيسى الحلبي . مصر ، ١٣٨٤ هـ - ٣٤/٢ .

(٤) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي المعروف بالفراء (١٤٠- ٢٠٧ هـ) . كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي . له مصنفات عدة منها : معاني القرآن ، اللغات والمصادر في القرآن ، النوادر . انظر : بغية الرعاة ، ٣٣٣/٢ .

(٥) لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ، ط دار صادر بيروت ، مادة نبأ ، ١٦٢/١- ١٦٣ .

ناحية اللغة.

قال ابن تيميـــة:

(وهو " أي لفظ النبي " من النبأ، وأصله الهمزة وقد قريء به، وهي قراءة نافع يقرأ النبيء، لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل مثل ذلك في الذرية، وفي البرية، وقد قيل هو من النبوة، وهي العلو فمعنى النبي المعلى الرفيع الم له، والتحقيق أن هذا المعنى داخل في الأول فمن أنبأه الله وجعله منبئا عنه، فلا يكون إلا رفيع القدر عليا، وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة إذ كان هذا يوصف به من ليس بنبي، بل يوصف بأنه الأعلى كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ (1) .

وقراءة الهمزة قاطعة بأنه مهموز.... وأيضا فإن تصريفه أنبأ ونبأ ينبئ وينبئ بالهمزة، ولم يستعمل فيه نبا ينبو، وإنما يقال هذا ينبو عنه، والماء ينبو عن القدم إذا كان يجفو عنها، ويقال النبوة، وفي فلان نبوة عنا أي مجانبة. فيجـــب القطع بأن النبي مأخوذ من الإنباء لا من النبوة) (2).

الرسالة:

الرسول في اللغة مأخوذ من الإرسال بمعنى التوجيه، أو من الرسل بمعنى التتابع أخذا من قولهم: رسل اللبن إذا تتابع دره.

جاء في لسان العرب:

(... والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليه، والاسم الرسالة والرسالة والرسول... والرسول بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر، والرسول المرسل... والرسول: معناه في اللغة: هو الذي يتابع أخبار من بعثه، أخذا من قولهم: جاءت الإبل رسلا أي متتابعة.... وسمى الرسول رسولا لأنه ذو رسول أي ذو رسالة والرسول اسم من أرسلت وكذلك

---

(1) سورة آل عمران آية : ١٣٩ .

(2) النبوات ، لابن تيمية ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٣٣٦ - ٣٣٧ .

الرسالة) [١]. وعلى ذلك فالرسول في اللغة إما أن يكون مأخوذا من الإرسال بمعنى التوجيه وهو ظاهر من حيث المعنى وإما أن يكون مأخوذا من التتابع فيكون الرسول هو من تتابع عليه الوحي [٢].

هذا بالنسبة للمعنى اللغوي لمدلول النبي والرسول، أما في الاصطلاح فللعلماء في تحديد الفرق بين النبي والرسول، وتحديد مسمى كل منهما كلام كثير لا يسلم من نقد. لكن الأمر الراجح عند كثير من أهل العلم أن هناك فرقا بين مسمى النبي ومسمى الرسول وإن اختلفوا في تحديد المراد بكل منهما. وأيضا فإن النبوة أعم من الرسالة فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا [٣] والذي يظهر والله أعلم أن النبي: هو من نبأه الله بشرع سابق ينذر به أهل ذلك الشرع. وقد يؤمر بتبليغ بعض الأوامر في قضية معينة، أو الوصايا والمواعظ وذلك كأنبياء بني إسرائيل إذ كانوا على شريعة التوراة ولم يأت أحد منهم بشرع جديد ناسخ للتوراة، فتكون م لته حينئذ بم لة الدد لتعاليم الرسل السابقين [٤].

أما الرسول فهو من بعثه الله بشرع وأمره بتبليغه إلى من خالفوا أوامره. وسواء كان هذا الشرع جديدا في نفسه أو بالنسبة لمن بعث إليهم وربما أتى بنسخ بعض أحكام شريعة من قبله [٥].

---

(١) لسان العرب ، مادة رسل ٢٨٣/١١ - ٢٨٤ .

(٢) انظر أصول الدين لعبد القاهر بن طاهر البغدادي ، ط٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠١هـ ، ص ١٥٤ .

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، ط٦ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ، ص ١٦٧ .

(٤) انظر النبوات ، ص٢٢٥- ٢٥٧ .

(٥) انظر أصول الدين ، ص١٥٤ .

المبحث الثاني

بشرية الرسول ﷺ

لقد شاء الله العليم الحكيم أن يكون رسله إلى الناس بشرا من جنس المرسل إليهم وبلسانهم ليبينوا لهم شرع ربهم، ولتقوم بهم الحجة على الناس، وتنقطع عنهم المعاذير، ويسهل عليهم اتباع رسلهم، والفهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾ (٢) .

ويوضح الله بعض جوانب هذه البشرية فيقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ (٣) الآية. ولم يكن رسول الله ﷺ بدعا من الرسل بل كان بشرا كغيره من الأنبياء والرسل السابقين عليه.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٞ ۝٩ ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (٥) وهذا أبلغ تأكيد من الله على أن الرسول ﷺ بشر مثلنا له كل خصائص البشر وصفاتهم وهو مع ذلك مفضل بالوحي والرسالة.

والآيات القرآنية تثبت بشرية الرسول ﷺ في مواقف كثيرة. وتوضح أنه بشر لم يخرج عن نطاق البشرية، وأن ما أتى به من وحي أو جرى على يديه من آيات فإنما هو بقدرة

---

(١) سورة إبراهيم آية : ٤ .
(٢) سورة إبراهيم آية : ١١ .
(٣) سورة الفرقان آية : ٢٠ .
(٤) سورة الأحقاف آية : ٩ .
(٥) سورة الكهف آية : ١١٠ .

الله وحده، وأن الرسول لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا أن يشاء الله. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[2] .

وكما أن الرسول لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فهو من باب أولى لا يملك لغيره الضر والنفع أو الهداية والصلاح، بل كل ذلك بيد الله وحده.

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾[3] . وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[5] .

ولما طالب كفار قريش الرسول ﷺ بمطالب تعجيزية ذريعة لهم للتكذيب والكفر، كان رد الله تعالى عليهم هو التأكيد على بشرية الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا

(١) سورة العنكبوت ، آية(٥٠) .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٨٨ .
(٣) سورة آل عمران آية : ١٢٨ - ١٢٩ .
(٤) سورة الجن آية : ٢١ .
(٥) سورة القصص آية : ٥٦ .

﴿كِتَٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [(٢)] تأكيد على أن الرسول بشر يقف عند حدود بشريته، ولا يأتي بشيء من عنده.

وحياة رسول الله ﷺ وسيرته توضح هذا الأمر أتم توضيح فقد عاش ﷺ بشرا تجري عليه أعراض البشرية طيلة حياته منذ أن ولد إلى أن مات فأكل وشرب، ومشى في الأسواق، وباع واشترى، وتزوج وأنجب، وحارب، وسالم، وغضب، ورضي، وفرح وحزن، وأدركه المرض فمرض، ومات كما يموت سائر البشر. ﷺ.

وكل من عايش رسول الله ﷺ أو تتبع سيرته أدرك هذه الحقيقة تمام الإدراك.

والرسول ﷺ بأقواله وأفعاله يؤكد هذا الأمر فيقول فيما رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود وفيه ﴿إنما أنا بشر مثلكم أذكر كما تذكرون وأنسى كما تنسون﴾ [(٣)] [(٤)].

وقال فيما رواه البخاري عن أم سلمة رضي الله عنها: ﴿إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار﴾ [(٥)] [(٦)] ففي الحديث الأول يبين رسول الله ﷺ أنه يتذكر وينسى أحيانا؟ هو شأن البشر جميعا، وفي

---

(١) سورة الإسراء ، آية(٩٠-٩٣) .

(٢) سورة الإسراء آية : ٩٣ .

(٣) البخاري الصلاة (٣٩٢) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٢) ، النسائي السهو (١٢٤٤) ، أبو داود الصلاة (١٠٢٠) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢١١) ، أحمد (٤٢٠/١) .

(٤) صحيح مسلم ، تحقيق وتصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م . كتاب المساجد . باب السهو في الصلاة والسجود له ، ٤٠٢/١ .

(٥) البخاري الأحكام (٦٧٤٨) ، مسلم الأقضية (١٧١٣) ، النسائي آداب القضاة (٥٤٠١) ، أبو داود الأقضية (٣٥٨٣) ، ابن ماجه الأحكام (٢٣١٧) ، أحمد (٣٢٠/٦) ، مالك الأقضية (١٤٢٤) .

(٦) صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي . كتاب الحيل ، باب إذا غصب جارية فزعم أنا ماتت ، ٣٢/٩ . ومسلم كتاب الأقضية ، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ، ١٣٣٧/٣ .

الثاني يؤكد على عدم علمه للغيب بمقتضى طبيعته البشرية إلا أن يطلعه الله على ما شاء من الغيب كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧ ﴾ [(١)].

ومع كون الرسول ﷺ بشرا، إلا أن الله ﷻ هيأه تيئة خاصة تتناسب مع هذا الأمر العظيم الذي اصطفى له. فكمله في الخلق والخلق، فكان رسول الله ﷺ أكمل البشر في كافة الجوانب البشرية، كما كان أكملهم عبودية لربه وقياما بحقه. فكمال الرسول ﷺ في عبوديته التامة لربه سبحانه وتعالى.

لأجل هذا وصفه الله بالعبودية في أكمل مقاماته وأرفع درجاته ﷺ فقال تعالـى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١ ﴾ [(٢)] وقال تعالى: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ ﴾ [(٣)] وقال تعالـى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ ﴾ [(٤)] وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩ ﴾ [(٥)].

فم لة العبودية لله هي أرقى درجات الكمال البشري، لأن الله إنما خلق الخلق لعبادته، وأكمل الخلق قياما بذا الأمر أتمهم عبودية له، ولا يصدق هذا في المقام الأول إلا على الأنبياء والرسل، وأكملهم محمد ﷺ الذي أكمل الله له مقام العبودية. فلم يختر عليه ما سواه لعلمه بعظم هذه الم لة عند ربه. فقام رسول الله ﷺ بحق هذه العبودية أتم قيام، فدعا

---

(١) سورة الجن ، آية(٢٦-٢٧) .
(٢) سورة الإسراء آية : ١ .
(٣) سورة النجم آية : ١٠ .
(٤) سورة الكهف آية : ١ .
(٥) سورة الجن آية : ١٩ .

الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وأخرجهم من العبودية لأهوائهم وشهواتم إلى العبودية لله رب العالمين، كما صان مقام عبوديته لربه من كل ما يفسده أو يضعفه.

وأعلم أمته أن م لته الحقيقية هي العبودية والرسالة فقال فيما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس وفيه ... ﴿ أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق م لتي التي أنزلني الله ﷻ ﴾ (١) (٢).

وأخرج البخاري بسنده عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿ لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله ﴾ (٣) (٤).

فاستحق رسول الله ﷺ أن يكون العبد الأول لربه، ولذلك خصه الله من عباده المرسلين بما لم يعطه أحدا غيره، فهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشفع، وأول من تفتح له أبواب الجنة.

ومع وضوح بشريته ﷺ في كافة أحواله، إلا أن طوائف من المنتسبين إلى الإسلام خالفوا إجماع الأمة فخرجوا بالرسول ﷺ عن نطاق البشرية وغلوا فيه فوصفوه بصفات الله سبحانه وتعالى.

وسيتضح لنا ذلك في مباحث الغلو في الرسول ﷺ.

---

(١) أحمد (١٥٣/٣) .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل . المكتب الإسلامي ودار صادر ، بيروت ١٥٣/١ ، ٢٤١ ، والحديث صحح إسناده ابن عبد الهادي . انظر الصارم المنكي في الرد على السبكي . محمد بن أحمد عبد الهادي ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص٢٨٨ .

(٣) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦١) .

(٤) صحيح البخاري . كتاب الأنبياء . باب قول الله تعالى : " واذكر في الكتاب مريم " ٢٠٤/٤ .

المبحث الثالث

النبوة اصطفاء إلهي

لقد جرت سنة الله في خلقه أن يصطفى بعض عباده لمهمة النبوة والرسالة كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [(١)] وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ [(٢)] وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [(٣)] .

وهذا الاصطفاء والاختيار منة إلهية امتن الله با على الأنبياء والمرسلين فلم يصلوا إليها بكسب ولا جهد، ولا كانت ثمرة لعمل أو رياضة للنفس قاموا با كما يزعم الضلال من الفلاسفة. حيث ذهبوا إلى أن النبوة مكتسبة وأن من هذب نفسه بالخلوة والعبادة وأخلى نفسه عن الشواغل العائقة عن المشاهدة، وراض نفسه، وهذبا، تيأ للنبوة.

وبناء على ذلك قالوا إن النبي هو من اجتمعت فيه ثلاث خصال:

- أن يكون له اطلاع على المغيبات لصفاء جوهره وشدة اتصاله بالروحانيات العالية من غير سابقة تعلم ولا تعليم.

أن تظهر على يديه خوارق العادات بحيث يؤثر بنفسه في قوى العالم المادي.

مشاهدة الملائكة لا أرواحها لما عنده من قوة التخيل، ويسمع كلامهم ووحيهم إليه.

وبالتالي فإن مرجع الوحي عندهم إلى قوة الخيال لدى النبي لا أن الوحى ي ل عليه حقيقة، فالقرآن إذا من عند النبي [(٤)].

وقد كذبم الله بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن

---

(١) سورة الحج آية : ٧٥ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣٣ .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٤ .

(٤) انظر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية ، للشيخ محمد بن أحمد السفاريني ، مطابع الأصفهاني ، جدة ، ١٣٨٢هـ ، ٢٦٨/٢ .

تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١).

فالنبوة والرسالة محض فضل من الله يختص به من شاء من عباده، وهو سبحانه أعلم بمواقع فضله، ومحال رضاه، وأعلم بمن يصلح لهذا الشأن، فهو سبحانه صاحب الخلق والتدبير، والاختيار والاصطفاء،؟ قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ (٣) .

ومع كون النبوة منحة إلهية. إلا أن الله لا يختار لها إلا أناسا خصهم وميزهم بخصائص ومميزات ليست موجودة في سائر البشر. فالرسل أكمل البشر خلقا وخلقا، وأرجحهم عقلا، وأوفرهم ذكاء، والله رهم قلبا. وهذا هو شأن الرسل أجمعين. والرسول ﷺ حينما اصطفاه الله لمهمة الرسالة الخاتمة، خصه بخصائص ليست موجودة في غيره، وهيأه تيأة خاصة تتناسب مع هذه المهمة الجليلة.

وظهرت آثار اصطفاء الله له في جوانب كثيرة منها:

١ - طهارة نسبه:

فلم ينل نسبه الطاهر شيء من سفاح الجاهلية. فكان من سلالة آباء كرام ليس فيهم ما يشينهم أو يعيبهم. بل كانوا سادات قومهم في النسب والشرف والمكانة.

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم بسنده عن واثلة بن الأسقع ما يؤكد ذلك قال: قال

---

(١) سورة يونس ، آية(٣٧-٣٩) .
(٢) سورة القصص آية : ٦٨ .
(٣) سورة الأنعام آية : ١٢٤ .

رسول الله ﷺ ﴿ إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بنى هاشم ﴾ [(١)] [(٢)].

٢ - تعهد الله برعايته وحفظه:

وذلك أنه نشأ على الفطرة الزكية فلم يتدنس بشيء من أدران الجاهلية لأن الله حفظه منذ صغره، فحفظ قلبه من تغيير الفطرة ووصول الشيطان إليه أخرج الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك ﴿ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة. فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده مكانه ﴾ [(٣)] [(٤)].

فهذا الحديث يبين أن الله طهر قلبه ﷺ منذ صغره وحفظه من وصول الشيطان إليه وذلك ليعده فيما بعد لمهمة النبوة والرسالة. فنشأ رسول الله ﷺ على الأخلاق الزاكية والخصال الحميدة، والفطرة النقية السليمة، فبغضت إليه الأوثان فلم يسجد لصنم قط، وحبب إليه الخير ومكارم الأخلاق، فكان في ذلك مضرب الأمثال، وكيف لا؟ وهو الملقب من قبل قومه بالصادق الأمين ﷺ.

٣ - عصمتـه:

وكما حفظ الله قلب نبيه ﷺ وفطرته. فكذلك عصمه من وجوه كثيرة منها:

- عصمته من تسلط أعدائه عليه بالقتل أو منعه من تبليغ رسالة ربه، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ

(١) مسلم الفضائل (٢٢٧٦) ، الترمذي المناقب (٣٦٠٦) ، أحمد (١٠٧/٤) .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ١٧٨٢/٤ .
(٣) البخاري التوحيد (٧٠٧٩) ، مسلم الإيمان (١٦٢) ، أحمد (٢٨٨/٣) .
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات ، ١٤٧/١ .

ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [2] وأخرج البخاري بسنده ﴿ عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فـ ل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فـ ل رسول الله ﷺ تحت سمرة وعلق با سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: " إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال من يمنعك مني فقلت الله (ثلاثا) ولم يعاقبه وجلس ﴾ [3] [4].

عصمته ﷺ من كل ما يقدح في نبوته، أو ينفر الناس عن دعوته فكان رسول الله ﷺ أبعد الناس عن الآثم، متـ ها من كل ما يعيب أو يشين البشر في سلوكهم، بعيدا عن سفاسف الجاهلية. كما عصمه الله عن وقوع الخطأ والنسيان أو الكذب والكتمان فيما يبلغه عن ربه فقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [5]. وقال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ [6].

٤ - تكميل الله له المحاسن خلقا وخلقا:

فكان رسول الله ﷺ أكمل الناس خلقا من حيث جمال صورته، وتناسب أعضائه، وطيب ريحه وعرقه، ونظافة جسمه، واكتمال قواه البدنية والعقلية، كما كان أكمل الناس خلقا إذ جمع محاسن الأخلاق وكريم الشمائل، وجميل السجايا والطباع. قال تعالى:

(١) سورة الأنفال آية : ٣٠ .
(٢) سورة المائدة آية : ٦٧ .
(٣) البخاري الجهاد والسير (٢٧٥٣) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٨٤٣) ، أحمد (٣/٣٩٠) .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من علق سيفه بالشجر في السفر ٤/٤٧ - ٤٨ .
(٥) سورة النجم ، آية(١-٤) .
(٦) سورة المائدة آية : ٦٧ .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [(١)] وقد وعت كتب الشمائل والسير شمائله وأخلاقه، وصفاته ﷺ.

٥ - تشريفه بـ ول الوحي عليه:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [(٢)]

وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [(٣)] .

٦ - كونه خاتم النبيين:

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [(٤)] .

وأخرج البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » [(٥)] [(٦)].

ومظاهر اصطفاء الله لنبيه ﷺ كثيرة لا تعد ولا تحصى لكثرة فضائله وما خصه الله به

---

(١) سورة القلم آية : ٤ .
(٢) سورة الشورى آية : ٥٢ .
(٣) سورة يوسف آية : ٣ .
(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٠ .
(٥) البخاري المناقب (٣٣٤٢) ، مسلم الفضائل (٢٢٨٦) ، أحمد (٣١٢/٢) .
(٦) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين ٢٢٦/٤ ، ومسلم ، كتاب الفضائل باب ذكر كونه خاتم النبيين ، ١٧٩١/٤ .

من صنوف الخير والفضل ويكفيه شرفا أنه سيد ولد آدم، وأنه صاحب المقام المحمود والحوض المورود ولواء المعقود فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. واصطفاء الله للنبي ﷺ دليل على حب الله كما أنه يوجب محبة العباد لهذا النبي العظيم.

الباب الأول

المحبة والاتباع

(وفيه فصلان)

الفصل الأول:

محبة الرسول ﷺ.

الفصل الثاني:

الاتباع.

الفصل الأول

وفيه أربعة مباحث

المبحث الأول - مفهوم المحبة.

المبحث الثاني - وجوب محبة الرسول ﷺ.

المبحث الثالث - دواعي محبة الرسول ﷺ وأسباب زيادتها.

المبحث الرابع - مظاهر محبة الرسول ﷺ.

المبحث الأول
مفهوم المحبة وأنواعها

(أ) الحب في اللغة:

الحب كلمة دائرة على ألسنة الناس، رمزا لتعلق القلوب وميلها إلى ما ترضاه وتستحسنه. ويطلق في اللغة على صفاء المودة.

جاء في لسان العرب:

(الحب: نقيض البغض. والحب: الوداد والمحبة... وأحب فهو محب... والمحبة أيضا: اسم للحب.:. وتحبب إليه تودد. وامرأة محبة لزوجها، ومحب أيضا... والحب: الحبيب، مثل خدن وخدين... والحب: المحبوب، وكان زيد بن حارثة ﵁ يدعى حب رسول الله ﷺ.

.... وحببت إليه: صرت حبيبا... وهم يتحابون: أي يحب بعضهم بعضا... والتحبب: إظهار الحب) (١).

وهذا النص كغيره من النصوص في المعاجم قد اقتصر على تعريف الحب بنقيضه أو بمرادفه لكن نرى الراغب الأصفهاني (٢) يفصل أكثر فيقول:

(.... حببت فلانا يقال في الأصل بمعنى: أصبت حبة قلبه، نحو: شغفته وكبدته وفأدته (٣).

وأحببت فلانا: جعلت قلبي معرضا لحبه، لكن في التعارف وضع محبوب موضع محب، واستعمل حببت أيضا في موضع أحببت).

---

(١) لسان العرب . مادة " حب " ٢٨٩/١ .

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (. . - ٥٠٢ هـ) من تصانيفه : تحقيق البيان في تأويل القرآن ، الذريعة إلى مكارم الشريعة ، المفردات في غريب القرآن . انظر : الأعلام للزركلي . ط٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠م ، ٣٥٥/٢ ومعجم المؤلفين عمر رضا كحالة . نشر دار إحياء التراث العربي . بيروت ٥٩/٤ .

(٣) بمعنى أصبت شغاف قلبه ، وكبده ، وفؤاده .

(ب) تعريف المحبة عند العلماء:

ثم يستطرد الراغب فيقول:

(والمحبة إرادة ما تراه خيرا أو تظنه خيرا. وهي على ثلاثة أوجه:

- محبة للذة، كمحبة الرجل المرأة، ومنه: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [(١)] .

- محبة للنفع، كمحبة شيء ينتفع به، ومنه: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ ﴾ [(٢)] .

- ومحبة للفضل، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض من أجل العلم) [(٣)].

وإذا كان الراغب هنا قد فسر المحبة بإرادة ما يظنه الإنسان خيرا، فقد كان " القاضي عياض [(٤)] أكثر وضوحا حين عرف المحبة: بأنا ميل الإنسان إلى ما يوافقه.

يقول القاضي عياض:

(وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له:

١ - إما لاستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له.

٢ - أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة كحب الصالحين والعلماء، وأهل المعروف المأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء.

---

(١) سورة الإنسان آية : ٨ .

(٢) سورة الصف آية : ١٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن . لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني . تحقيق . محمد سيد كيلاني . طبع مطبعة مصطفى الحلبي . مصر ١٩٦٢م ، مادة " حب " ص١٠٥ .

(٤) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦هـ - ٥٤٤) عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته . ولد سبته وولي قضاءها . من تصانيفه : الشفا بتعريف حقوق المصطفى . ومشارق الأنوار . وشرح صحيح مسلم ، وغيرها . توفى بمراكش . انظر . وفيات الأعيان ٤٨٣/٣ وما بعدها والبداية والنهاية ٢٥٥/١٢ .

٣ - أو يكون حبه إياه لمرافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها) [١].

وعلى ذلك فهذا الميل إما أن يكون حسيا أو عقليا أو قلبيا. وعلى هذه الجوانب الثلاثة- منفردة أو مجتمعة- يقوم الحب في القلب، فما وافقها مال إليه القلب وأحبه، وما خالفها نفر عنه وكرهه.

وأصل الحب قوة في القلب تحرك إرادة الإنسان لتحصيل المحبوبات أصلا، ودفع المكروهات تبعا، فتميل النفس إلى الشيء إن كان محبوبا وتنفر عنه إن كان مكروها [٢].

ويتوقف تعلق النفس بالشيء حبا، أو النفور عنه كرها على الإدراك الفطري أو الكسبي.

فالحب إذن ثمرة الإدراك والمعرفة، فكلما كانت المعرفة أتم كان الحب أقوى والعكس صحيح.

لأجل هذا كان الناس متفاوتين في حبهم للأشياء والأشخاص تفاوتا بينا تبعا لتفاوت إدراكهم ومعرفتهم.

وإذا كانت وسائل المعرفة والإدراك لدى المرء سليمة وصحيحة أحـب الإنسان ما ينفعه ويصلحه، وإلا أحب الضار يحسبه نافعا والفاسد يحسبه صالحا.

وبناء على هذا يمكن أن نعرف الحب بأنه: ميل القلب فطرة أو إدراكا ومعرفة الى ما يوافقه ويستحسنه.

(ج) المحبة في النصوص الشريعة:

أما في الشرع فقد ورد لفظ الحب في القرآن والسنة بكل جوانبه الطبعية والشرعية.

فالجوانب الفطرية أو الطبعية مثل حب الآباء والأبناء والأزواج وحب المال وسائر

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى . للقاضي عياض اليحصبي طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٩ ، هـ - ٢٩/٢ - ٣٠ .

(٢) انظر . رسالة العبودية ، ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية ، ١٩٢/١٠ .

الشهوات.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [1] .

وقال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [2] .

وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [3] .

وقـال: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [4] .

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل ﴾ [5] [6]

وأخرج عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان حب المال وطول العمر ﴾ [7] [8].

هذه هي المحبة الفطرية الجبلية كما وردت في النصوص الشرعية، وأما المحبة الشرعية- أعني حب الله ورسوله- فالنصوص الواردة فيها كثيرة وإليك بيانا:

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٤ .
(٢) سورة الفجر آية : ٢٠ .
(٣) سورة العاديات آية : ٨ .
(٤) سورة القيامة آية : ٢٠ .
(٥) البخاري الرقاق (٦٠٥٧) ، مسلم الزكاة (١٠٤٦) ، الترمذي الزهد (٢٣٣٨) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٣٣) ، أحمد (٣٣٩/٢) .
(٦) صحيح البخاري . كتاب الرقاق . باب من بلغ ستين سنة ١١١/٨ .
(٧) البخاري الرقاق (٦٠٥٨) ، مسلم الزكاة (١٠٤٧) ، الترمذي الزهد (٢٣٣٩) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٣٤) ، أحمد (١٩٢/٣) .
(٨) صحيح البخاري . كتاب الرقاق . باب من بلغ ستين سنة ١١١/٨ .

(د) حب الله ﷻ

ولنبدأ بحب الله تعالى، أما النصوص الواردة في حب الرسول ﷺ فسوف تأتي في المبحث القادم.

فقد جاء لفظ الحب في القرآن والسنة لبيان حب الله لعباده المؤمنين وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [1] . وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [3].

وفيما أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله قال: ﴿ من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ﴾ [4]......) الحديث [5].

وأخرج البخاري ومسلم بسنديهما عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ " قل هو الله أحد " فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: " سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ " فسألوه فقال: لأنا صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ با. فقال النبي ﷺ " أخبروه أن الله يحبه ﴾ [6] [7].

كما ورد ما يثبت حب المؤمنين لربهم ﷻ وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

---

(١) سورة المائدة آية : ٥٤ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٢ .
(٣) سورة الصف ، آية(٤) .
(٤) البخاري الرقاق (٦١٣٧) .
(٥) صحيح البخاري . كتاب الرقاق . باب التواضع ، ١٣١/٨ .
(٦) البخاري التوحيد (٦٩٤٠) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٨١٣) ، النسائي الافتتاح (٩٩٣) .
(٧) صحيح البخاري . كتاب التوحيد . باب دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، ١٤٠/٩-١٤١ . ومسلم . كتاب صلاة المسافرين . باب فضل قراءة " قل هو الله أحد ، ٥٥٧/١ .

﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [1] .

وقوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية [3].

وأخرج البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس بن مالك أن رجلا سأل النبي ﷺ ﴿ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت ﴾ [4] [5].

ومن ثم يتبين لنا أن الحب علاقة متبادلة بين الله تعالى وبين عباده المؤمنين. لكن حب الله لعباده صفة من صفاته م هة عن مشابهة صفات المخلوقين ونصوص الكتاب والسنة تؤكد ذلك أتم تأكيد.

وجمهور السلف على إثبات حب الله لعباده كصفة من صفاته كما يليق بذاته سبحانه، بلا كيف ولا تأويل ولا مشاركة للمخلوق في شيء من خصائصها كما أنم يثبتون محبة العباد لربم محبة حقيقية قلبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

وهذه المحبة حق كما نطق با الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين المتبعون وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبوب لذاته

---

(١) سورة البقرة آية : ١٦٥ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥٤ .

(٣) سورة آل عمران ، آية(٣١) .

(٤) البخاري الأدب (٥٨١٩) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٣٩) ، الترمذي الزهد (٢٣٨٥) ، أبو داود الأدب (٥١٢٧) ، أحمد (٢٥٥/٣) .

(٥) صحيح البخاري . كتاب الأدب . باب علامة الحب في الله ، ٤٩/٨ ، وصحيح مسلم كتاب البر والصلة . باب المرء مع من أحب ، ٢٠٣٣/٤ .

محبة حقيقية بل هي أكمل محبة، فإنا كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (١) وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية) (٢).

ومع وضوح هذا الأمر إلا أن أهل الأهواء والبدع من الجهمية ومن تابعهم من المتكلمين حادوا عن إثبات حب الله لعباده كصفة من صفاته سبحان وتعالى. متأولين محبته سبحانه بإرادة الإحسان، أو بإحسانه وإنعامه على عباده. كما أنم أولوا محبة العباد لربم بأنا محبة طاعته، أو محبة إحسانه وثوابه (٣).

وهذا التأويل -مع بطلانه- يؤدي إلى إنكار المحبة، ومتى بطلت المحبة بطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، وخلت الأعمال من روحها، إذ هي أصل كما عمل ديني. فإنكارهم للمحبة إنكار لحقيقة الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة في قلبه لله ورسوله فلا إيمان له ألبتة (٤).

(هـ) محبة الرسول ﷺ

وبعد أن تكلمنا عن ورود لفظ الحب في اللغة والشرع نريد أن نخلص إلى تحديد مفهوم محبة الرسول ﷺ.

فأقول إنه لما كان الحب لغة: ميل القلب فطرة أو إدراكا ومعرفة إلى ما يوافقه

---

(١) سورة البقرة آية : ١٦٥ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . جمع وترتيب . عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد . طبع مكتبة المعارف . الرباط . المغرب ٦٦/١٠ . وانظر تفسير القاسمي . المسمى محاسن التأويل . محمد جمال الدين القاسمي . تحقيق . محمد فؤاد عبد الباقي . ط ٢ ، طبع دار الفكر . بيروت ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ٦/ ٢٥٣- ٢٥٥ .

(٣) انظر في بيان ذلك : الكشاف عن حقائق التنزيل في وجوه التأويل . أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري . ط١ . طبع دار الفكر . بيروت ، ١٩٧٧ ، ٦٢١/١- ٦٢٢ . والتفسير الكبير للفخر الرازي . ط٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٥/٤ - ٢٠٨ .

(٤) انظر في الرد على هذا التأويل . مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ٤٧٧/٦ وما بعدها ، ٦٦/١٠ وما بعدها والنبوات لابن تيمية ، ص ٦٦ وما بعدها . ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . لابن القيم الجوزي تحقيق . محمد حامد الفقي . طبع دار الكتاب العربي . بيروت ، ١٣٩٢هـ ١٨/٣ وما بعدها .

ويستحسنه.

فكذلك محبة الرسول ﷺ معناها:

أن يميل قلب المسلم إلى رسول الله ﷺ ميلا يتجلى فيه إيثاره ﷺ على كل محبوب من نفس ووالد وولد والناس أجمعين وذلك لما- خصه الله من كريم الخصال وعظيم الشمائل، وما أجراه على يديه من صنوف الخير والبركات لأمته، وما امتن الله على العباد ببعثته ورسالته إلى غير ذلك من الأسباب الموجبة لمحبته عقلا وشرعا.

يقول النووي ملخصا كلام القاضي عياض:

(وبالجملة فأصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المحب، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه، كحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذه بعقله للمعاني الباطنة كحب الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقا، وقد يكون لإحسانه إليه ودفع المضار والمكاره عنه.

وهذه المعاني كلها موجودة في النبي ﷺ لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال خلال الجلال وأنواع الفضائل، وإحسانه إلى جميع المسلمين بدايته إياهم إلى الصراط المستقيم ودوام النعم والأبعاد من الجحيم) (١).

وحب المسلم لرسول الله ﷺ عمل قلبي من أجل أعمال القلوب، وأمر وجداني يجده المسلم في قلبه، وعاطفة طيبة تجيش بها نفسه، وإن تفاوتت درجة الشعور بهذا الحب تبعا لقوة الإيمان أو ضعفه.

وليس هذا الحب أمرا عقليا مجردا عن الميل القلبى كما ذهب إليه البيضاوي (٢) فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر: عند شرح قوله ﷺ " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي . طبع دار الفكر ، بيروت ١٤٠١هـ ، ١٤/٢ .

(٢) هو أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (. . . ـ ٦٨٥) قاض . أصولي . متكلم . مفسر . من تصانيفه : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، طواع الأنوار ، منهاج الوصول إلى علم الأصول . انظر طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو . ومحمود الطناحي . ط١ ، مطبعة عيسى الحلبي ، مصر ١٥٧/٨ ، ١٥٨ . وبغية الوعاة ٥٠/٢ ، ٥١ .

سواهما قال:

(المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النفس، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه، ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله.

فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهي إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل- والعقل يقتضي رجحان ذلك- تمرن على الائتمار بأمره حيث يصير هواه تبعا له، ويلتذ به التذاذا عقليا، إذ الالتذاذ العقلي: إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك) [1].

وقد تعقبه صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد بقوله:

(.... كلامه على قواعد الجهمية ونحوهم من نفي محبة المؤمنين لربهم ومحبته لهم والحق بخلاف ذلك، بل المراد في الحديث أن يكون الله ورسوله عند العبد أحب إليه مما سواهما حبا قلبيا.

.... وأما مجرد إيثار ما يقتضي العقل رجحانه وإن كان على خلاف هوى النذر كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه.

.... فهذا قد يكون في بعض الأمور علامة على الحب ولازما له. لا أنه الحب) [2]. ثم إن إدراك العقل للكمال أو الخير أو أي معنى من المعاني الفاضلة لا يكفي حتى نسميه حبا، بل لا بد مع ذلك من الميل القلبي والتعلق النفسي.

وتمثيله حال من آثر محبة الله ورسوله- وإن كان على خلاف هوى النفس- بحال المريض مع الدواء المر- الذي تعافه نفسه ويميل عقله إلى تناوله- تمثيل غير مناسب وغير لائق أيضا.

لأن من كانت محبته لله ورسوله كمحبة المريض للدواء المر جدير بأن يقال أنه وجد

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، ط دار المعرفة بيروت ٦٠/١- ٦١ .

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد . للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب . ط٣ ، طبع المكتب الإسلامي . بيروت ، ١٣٩٧هـ ، ص٤٧٦ ، ٤٧٧ .

مرارة الإيمان لا حلاوته.

وإنما يجد حلاوة الإيمان من كان هواه وقلبه في تلك المحبة مناصرا لعقله ومسايرا له جنبا إلى جنب [1].

وإذا كان هناك من فسر حب الله ورسوله بأنه حب عقلي، فهناك من يظن أن محبة الرسول ﷺ تعني طاعته، وهذا فهم خاطئ إذ أن محبته هي أساس طاعته، والطاعة شرط للمحبة وثمرتها.

فالطاعة أمر زائد على المحبة ومترتب عليها.

كما أن هذا الحب أمر زائد على الإعجاب بشخصية الرسول ﷺ وسمو أخلاقه وعظمة تعاليمه.

إذ نرى كثيرا ممن لا ينتسبون إلى الإسلام ولا يؤمنون برسول الله ﷺ يبدون إعجابهم وتقديرهم لرسول الله ﷺ ويفيضون في بيان جوانب عظمته، ومع ذلك لا يمكن أن نسمي هذا الإعجاب حبا شرعيا حتى يكون هناك إيمان بدين الإسلام.

ولقد كان أبو طالب عم الرسول ﷺ يحبه ويحوطه ويصد عنه أذى قريش بما استطاع. ومع هذا فلم يثمر ذلك حبا وإيمانا منه بدين الإسلام لأن حبه لرسول الله ﷺ كان حب قرابة وحمية جاهلية.

نخلص من هذا إلى أن المحبة الحقيقية لرسول الله ﷺ هي المحبة الشرعية الإرادية الاختيارية، وهي عمل قلبي من أجل أعمال القلوب، ورابطة من أوثق روابط النفوس تربط المسلم برسول الله ﷺ وتجعل قلبه وهمه وفكره وإرادته متوجهة لتحصيل ما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

(و) الصلة بين محبة الله ومحبة رسوله ﷺ :

الصلة بين المحبتين هي صلة الفرع بالأصل والتابع بالمتبوع.

---

(١) انظر . المختار من كنوز السنة . محمد عبد الله دراز . راجعه وأشرف على طبعه الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، ط٤ ، قطر ص٤٤٠ .

فمحبتنا لرسول الله ﷺ تابعة لمحبتنا لله ﷻ إذ هي أساس المحبة الدينية الشرعية ومصدرها، وكل ما سواها من المحاب الشرعية تبع لها. وذلك كمحبة الأنبياء والصالحين، ومحبة كل ما يحبه الله ورسوله.

قال ابن تيمية:

(وليس للخلق محبة أعظم ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله.

كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [(١)] .

وعلى ذلك فلا تنفك إحدى المحبتين عن الأخرى فمن أحب الله أحب رسوله ﷺ وكذلك سائر رسله ومحبة الرسول تبع لمحبة من أرسله. ولأجل هذا جاء حب الرسول ﷺ مقترنا بحب الله ﷻ في أكثر النصوص الشرعية.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ ﴾ [(٢)] .

وفي الحديث « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » [(٣)] [(٤)].

---

(١) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٢) سورة التوبة آية : ٢٤ .

(٣) البخاري الإيمان (١٦) مسلم الإيمان (٤٣) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٨٨) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٣٣) ، أحمد (١١٤/٣) .

(٤) صحيح البخاري . كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان ١٠/١ .

وهذا الارتباط بين المحبتين ارتباط شرعي لا ينفك. فمن زعم أنه يحب الله ولم يحب رسوله ﷺ أو العكس فكلامه باطل واعتقاده فاسد.

المبحث الثاني

وجوب محبة الرسول ﷺ

انتهينا مما سبق إلى أن محبة الرسول ﷺ هي ميل قلب المؤمن إلى رسول الله ﷺ ميلا يتجلى فيه إيثار حبه على كل من سواه من البشر وتتشوق النفس إلى معرفة حكم هذه المحبة في الشرع مع بيان أدلتها من الكتاب والسنة.

فأقول إن محبة الرسول ﷺ أصل عظيم من أصول الإيمان يتوقف على وجوده وجود الإيمان، فلا يدخل المسلم في عداد المؤمنين الناجين حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه بل ومن الناس أجمعين.

وأدلة هذا كثيرة القرآن والسنة.

فمن القرآن:

(أ) قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1] .

ففي هذه الآية توعد الله من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ ﴾ [2]. ومعلوم أن الله لا يتوعد أحدا بمثل هذا الوعيد الشديد إلا على ترك واجب، أو فعل محرم.

فعلم بذلك أنه يجب على كل مؤمن أن يكون الله ورسوله، والجهاد في سبيله أحب إليه من الأهل والإخوان والأموال والأوطان.

يقول القاضي عياض مستدلا بذه الآية:

---

(١) سورة التوبة آية : ٢٤ .

(٢) سورة التوبة آية : ٢٤ .

(فكفى بذا حضا وتنبها ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها ﷺ إذ قرع الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وتوعدهم بقوله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (1) ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنم ممن ضل ولم يهده الله) (2).

وقد ذكر الله في هذه الآية ثمانية أصناف وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال المكتسبة والتجارات والمساكن والديار. وهذه الأصناف تمثل بمجموعها كافة الروابط الاجتماعية والاقتصادية وعليها مدار مصالح الحلق ومعايشهم. وهي التي تجذب الإنسان إلى الأرض وتثقله عن الجهاد في، سبيل الله ما لم يكن حب الله ورسوله مستعليا في قلب المسلم على كل هذه الروابط والمصالح.

وفي ذكر الله للجهاد مقرونا بحبه سبحانه وتعالى وحب رسوله ﷺ دليل على أنه من أظهر العلامات على ذلك الحب لأنه هو المحك الذي يتجلى فيه صدق هذا الحب وإيثاره على غيره من الكتاب التي ذكرها الله في هذه الآية.

ومن رحمة الله عز رجل أنه لم يذم حب الأهل والأقارب والأزواج ولا حب المال المتكسب والمساكن ولم ينه عن ذلك. وإنما جعل من مقتضى الإيمان إيثار محبة الله ورسوله على حب هذه الأنواع، وكذلك تقديم الجهاد إذا وجب عليها.

وهذا هو حال المؤمنين الصادقين في حبهم لله ورسوله (3).

(ب) قوله تعالى:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (4).

فهذه الآية إخبار عن مكانة الرسول ﷺ بين المؤمنين، كما أنا أيضا إخبار عن الحال

---

(1) سورة التوبة آية : ٢٤ .

(2) الشفا ، ١٨/٢ .

(3) انظر تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٢٥/١٠ - ٢٤٢ .

(4) سورة الأحزاب آية : ٦ .

التي ينبغي أن يكون فيها المؤمنون مع الرسول ﷺ فهو أولى بم من أنفسهم ولا يكون كذلك حتى يكون أحب إليهم من أنفسهم.

ويبين ابن القيم أن هذه الآية دليل على أن من لم يكن الرسول ﷺ أولى به من نفسه فليس من المؤمنين ثم يوضح أن هذه الأولوية تتضمن أمرين:

١ - (... أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحـب إليه من غيره ومع هذا يجب ان يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

٢ - ومنهـا: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلا، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها) [1].

فتبين من هذا أنه يجـب على كل مؤمن أن يكون الرسول أولى به من نفسه في كل شيء، وأن يكون حكمه ﷺ في أي شيء مقدما على رغبات النفس وتطلعاتا، بل إن الحياة لتعد هينة ورخيصة بجانب تحقيق ما فرضه الله ورسوله وإن كان على خلاف هوى النفس. لأن نفوسنا تدعونا إلى الهلاك، والرسول ﷺ يدعونا إلى النجاة فكان أولى بنا من أنفسنا ﷺ.

وحينما أيقن المسلمون الأولون بذلك أعزهم الله ومكن لهم في الأرض. فلما غلبت الأهواء واتبعت الشهوات صار الحال مبدلا معكوسا. ذلة وهوان بعد عزة وضياع وتفرق بعد القوة والتمكين. والسبب هو تقديم الأهواء وشهوات الأنفس عل ما يحبه الله ورسوله.

الأدلة من السنة:

(١) الرسالة التبوكية . لابن القيم . مراجعة الشيخ عبد الطاهر أبي السمح ، ط١ ، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها مكة المكرمة ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٢١- ٢٢ .

وقد جاءت الأحاديث لتؤكد مدلول هاتين الآيتين- أبلغ تأكيد وأوضحه ألا وهو وجوب محبة الرسول ﷺ.

فمنها ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده ﴾ [(١)] [(٢)]

وأخرج البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس قال: قال النبي ﷺ ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ﴾ [(٣)] [(٤)].

فهذان الحديثان من أوضح الأدلة على وجوب محبة الرسول ﷺ لأن المؤمن لايستحق اسم الإيمان الكامل ولا يدخل في عداد الناجين حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين. والتعبير " بأحب " دليل صريح كل أن المحبة المطلوبة شرعا هي المحبة الراجحة، وأن الإيمان الكامل متوقف على رجحان هذه المحبة في القلب على ما سواها من محبة سائر المخلوقين.

وخص الوالد والولد بالذكر لكونهما أعز خلق الله على الإنسان، بل ربما كانا أحب إليه من نفسه، وفي هذا تأكيد على أنه يجب أن يكون الرسول ﷺ أحب إلى نفس المؤمن من كل حبيب وعزيز عليه من سائر البشر جميعا [(٥)].

ونفى الإيمان في هذا الحديث هو نفى لكمال الإيمان الواجب الذي ينجو به صاحبه من الوعيد ويستحق دخول الجنة بفضل الله. وذلك لأن محبة الرسول ﷺ من واجبات الإيمان فمن أخل بها فقد أخل بواجب من واجبات الإيمان التي لا يتم الإيمان بدونها.

---

(١) البخاري الإيمان (١٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠١٥) .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الإيمان . باب حب الرسول من الإيمان ١٠/١ .

(٣) البخاري الإيمان (١٥) ، مسلم الإيمان (٤٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠١٣) ، ابن ماجه المقدمة (٦٧) ، أحمد (٢٧٨/٣) ، الدارمي الرقاق (٢٧٤١) .

(٤) صحيح البخاري كتاب الإيمان . باب حب الرسول من الإيمان ١٠/١ . ومسلم . كتاب الإيمان . باب وجوب محبة الرسول ١٠/١ .

(٥) انظر فتح الباري ، ٥٩/١ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أحماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان، والإسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج، وغير ذلك فإنما يكون لترك واجب من ذلك المسمى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [(١)] .

فلما نفى- الإيمان - حتى توجد هذه الغاية، دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذكي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب، فإن الله إنما وعد بذلك من فعل ما أمر به وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها فهو معرض للوعيد) [(٢)].

فنفي الإيمان عند عدم وجود المحبة الراجحة يدل على أنا واجبة وإن من لم يأت با فقد تعرض للوعيد، فإن الله ورسوله لا ينفيان اسم مسمى أمر- أمر به الله ورسوله - إلا إذا ترك بعض واجباته، فأما إذا كان الفعل مستحب في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب، ولو صح هذا لنفي عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج وحب الله ورسوله لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي ﷺ بل ولا أبو بكر ولا عمر، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفا عنه لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين وهذا لا يقوله عاقل. فإن قال إن المنفي هو الكمال، فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة، فقد صدق.

وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ [(٣)].

ومعنى هذا أن محبة الرسول ﷺ من لوازم الإيمان وواجباته فلا يتحقق الإيمان بدونا،

---

(١) سورة النساء آية : ٦٥ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ١٥/٧ وما بعدها .

(٣) انظر المصدر نفسه ٣٧/٧ .

ولا يستحق المؤمن اسم الإيمان بدونها، وأن نفي الإيمان في الحديث إنما هو نفي لكمال الإيمان الواجب إذا لم توجد المحبة الراجحة على ما سواها من سائر المحاب فإذا وجدت هذه المحبة على هذه الصفة فهي دليل على كمال الإيمان بالنسبة لمن اتصف بها في هذا الجانب. وأما إذا لم توجد هذه المحبة على الصفة الراجحة كان من اتصف بها معرضا للوعيد لأنه أخل بواجب من واجبات الإيمان التي لا يتم الإيمان بدونها.

ومن الأحاديث الدالة على وجوب المحبة ما أخرجه البخاري بسنده عن عبد الله بن هشام قال: ﴿ كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك، قال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ الآن يا عمر ﴾ (١) (٢).

فهذا الحديث يبين أنه لا يبلغ المسلم حقيقة الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه.

وتلك هي قمة السمو في الحب حين يستعلى المسلم على رغبات النفس وشهواتها، مؤثرا حب رسول الله ﷺ على كل ذلك، ويتبين هذا إذا تعارض أي أمر أمر به الرسول ﷺ مع رغبة من رغبات النفس فأيهما تقدم كان الحكم له.

ونقل ابن حجر في شرح هذا الحديث عن بعض الزهاد أن:

(تقدير الكلام لا تصدق في حبي حتى تؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه الهلاك.

... وقال الخطابي (٣) حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب

---

(١) البخاري الأيمان والنذور (٦٢٥٧) ، أحمد (٣٣٦/٤) .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الإيمان والنذور . باب كيف كانت يمين النبي ١٦١/٨ .

(٣) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي . نسبة إلى زيد بن الخطاب (٣١٩- ٣٨٨) إمام . محدث . له في الحديث اليد الطولي . فهو أول من شرح البخاري . فقيه . من تصانيفه : أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ، ومعالم السنن في شرح سنن أبي داود ، وغريب الحديث ، ورسالة في العزلة ، وشأن الدعاء ، والغنية عن الكلام وأهله ، وغيرها . انظر البداية والنهاية ٢٣٦/١١ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، ٢٠٩/٣ .

وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه).

ثم يستطرد ابن حجر معلقا على كلام الخطابي فيقول:

(فعلى هذا فجواب عمر أولا كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتنا من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار ولذلك حصل الجواب بقوله: « الآن يا عمر »[1] أي الآن عرفت فنطقت بما يجب)[2].

إذا فلم يكن حصول المحبة عند عمر رضي الله عنه أمرا جديدا على نفسه وإنما كان الجديد لديه هو إدراكه لتلك المحبة والتفاته إليها.

وفي هذا الحديث إشارة إلى فضيلة التفكر.

فإن عمر رضي الله عنه لما أجاب أول الأمر لم يكن قد تفكر في كون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه، فلما استوقفه الرسول ﷺ وراجعه تفكر وامتحن نفسه فإذا به يصل إلى النتيجة المطلوبة. وهي كون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه. لأجل هذا كان التفكر سبيلا من سبل الوصول إلى هذه المحبة. فإذا تفكر المسلم في النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ وأنه سبب نجاته في الدنيا والآخرة، وأدرك ذلك بقلبه يقينا عظمت عند ذاك محبة النبي ﷺ في قلبه.

وبعد أن تبين لنا وجوب محبة الرسول ﷺ بأدلته من القرآن والسنة. أود أن أشير إلى أن هذه المحبة- كما قال ابن رجب[3] - على درجتين:

١- إحداهما- فرض: وهي المحبة التي تقتضى قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله،

---

(١) البخاري الأيمان والنذور (٦٢٥٧) ، أحمد (٣٣٦/٤) .

(٢) فتح الباري ، ٥٢٨/١١ .

(٣) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٢٦ هـ - ٧٩٥ هـ) محدث . فقيه . من تصانيفه : شرح سنن الترمذي ، فتح الباري شرح صحيح البخاري لم يكمله ، جامع العلوم والحكم . ذيل طبقات الحنابلة وغيرها . انظر . الأعلام ٢٩٥/٣ .

وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه، من تصديقه في كل ما أخبر به وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهي عنه من المحرمات، ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بد منه، ولا يتم الإيمان بدونه.

٢ - والدرجة الثانية: فضل، وهي المحبة التي تقتضى حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته، في أخلاقه، وآدابه، ونوافله، وتطوعاته، وأكله، وشربه، ولباسه، وحسن محاضرته لأزواجه، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الطاهرة. والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب من محبته، وتعظيمه، وتوقره ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين. ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا والاجتزاء باليسير منها، ورغبته في الآخرة [(١)].

ومما سبق يتبين لنا أن المحبة والإيمان أمران متلازمان في قلب المؤمن تلازما مطردا يزيد أحدهما بزيادة الآخر وينقص بنقصانه.

كما جاء ذلك مبينا في قوله ﷺ ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده والناس أجمعين ﴾ [(٢)] [(٣)].

فقد وضح هذا الحديث العلاقة بين الإيمان والمحبة، إذ علق كمال الإيمان الواجب على وجود المحبة الراجحة لرسول الله ﷺ وجعلها شرطا يتوقف عليه الإيمان الذي ينجو به صاحبه من العقاب ويستحق دخول الجنة بفضل الله ورحمته.

ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان حب الرسول ﷺ في قلب المسلم راجحا على حب ما

---

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس . لأبي الفرج عبد الر حمن بن رجب الحنبلي . طبع مطبعة الإمام . مصر ص٣٤ ، ٣٥ .

(٢) البخاري الإيمان (١٥) ، مسلم الإيمان (٤٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠١٣) ، ابن ماجه المقدمة (٦٧) ، أحمد (٢٧٨/٣) ، الدارمي الرقاق (٢٧٤١) .

(٣) سبق تخريجه ص٤٩ .

سواه من النفس والمال والولد وسائر البشر أجمعين.

فمن كان حبه لنفسه أو لشيء من الأشياء كحبه لله ورسوله أو أشد فهو من أصحاب الوعيد لأن الله تعالى جعل المحبة الراجحة لله ورسوله من لوازم الإيمان وجعل ما دونا من أوصاف المشركين.

فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [(١)] .

فإذا قويت المحبة في قلب المؤمن وزادت أثر ذلك زيادة في الإيمان، وذاق العبد حينئذ حلاوة الإيمان.

كما في صحيح البخاري ومسلم عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: ﴿ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ﴾ [(٢)] الحديث [(٣)].

ولا يصل العبد إلى هذه المـ لة إلا إذا سعى في تحصيل ما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأفعال.

وكلما كان سعي العبد حثيثا لتحصيل هذه المحبوبات كلما ازداد إيمانه وذاق حلاوته، وإذا قصر العبد في أداء ما كلف به والالتزام بآداب الشرع فإنما يرجع ذلك إلى نقصان في الإيمان الدال على نقصان المحبة. فزيادة المحبة دليل على زيادة الإيمان ونقصانا دليل على نقصان الإيمان.

أما أصل الإيمان فلا يوجد بدون وجود المحبة، ولا يوجد مسلم ليس في قلبه محبة ولو كانت ضعيفة - لرسول الله ﷺ.

---

(١) سورة البقرة آية : ١٦٥ .

(٢) البخاري الإيمان (١٦) مسلم الإيمان (٤٣) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٨٨) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٣٣) ، أحمد (١١٤/٣) .

(٣) صحيح البخاري . كتاب الإيمان . باب حلاوة الإيمان ١٠/١ . وصحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب بيان خصال من اتصف بن وجد حلاوة الإيمان ٦٦/١ .

فتبين لنا من هذا أن العلاقة بين المحبة والإيمان علاقة وثيقة فوجود أحدهما متوقف على وجود الآخر وزيادة أحدهما تعني زيادة الآخر.

المبحث الثالث

دواعي محبة الرسول ﷺ وأسباب زيادتها

يرتبط الحب في قلب الإنسان بدوافع وبواعث تبعث عليه مهمتها أن تحرك القلب وتدفعه نحو محبوباته.

وتتعدد هذه الدوافع وتتنوع بحسب تنوع المحبوبات واختلافها. فمن الحـب ما تدفع إليه البواعث الحسية، أو العقلية، أو القلبية. وذلك لوجود صفات قامت بالمحبوب واتصف بها من كمال، أو جمال، أو إحسان، أو غير ذلك من الدواعي والأسباب الباعثة على الحب. وإذا نظرنا إلى محبة الرسول ﷺ فسنجد أن البواعث عليها متنوعة ومتعددة، وذلك لكثرة ما خصه الله به من أنواع الفضائل، وما أجراه على يديه من الخيرات لأمته. إلى غير ذلك من الدواعي التي ترجع إلى مجموع خصائص النبي ﷺ وصفاته ومنها:

أولا: أن حب المسلم للرسول ﷺ تابع لحبه لله ﷻ

وذلك لأن محبة الله تعالى هي أساس المحبة الشرعية، لأن الله هو المحبوب لذاته، وكل ما سواه مما يحب شرعا فمحبته تابعة لمحبة الله عز وجل. وذلك كمحبة أنبيائه ورسله وملائكته وعباده الصالحين، وكذلك محبة الأعمال والأخلاق التي يحبها الله ويرضاها. فمحبة ذلك كله تبع لمحبة الله ﷻ وهي من لوازم محبته فإن محبة الله توجـب محبة ما يحبه الله.

وعلى ذلك فمن أحـب الله أحب رسوله ﷺ لأجل حب الله ﷻ فإن الرسول إنما يحب لأجل الله، ويطاع لأجل الله (١) كما قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٢).

ثانيا: أن الله تعالى أحبه واختاره من خلقه فحب ما يحبه الله من لوازم محبته:

ذلك أن الله اصطفاه على الناس برسالته، وجعله خاتم النبيين، وأفضل الخلق أجمعين

---

(١) انظر . مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ٦٤٩/١٠ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣١ .

وحبيب رب العالمين، كما روى مسلم بسنده عن واثلة بن الأسقع قال سمعت النبي ﷺ يقول: ﴿ إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل. واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم ﴾ [1] [2].

وأخرج البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله. إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا " وضعت هذه اللبنة ! قال: فأنا اللبنة. وأنا خاتم النبيين ﴾ [3] [4] وأخرج مسلم بسنده عن إبي هريرة أيضا قال- قال رسول الله ﷺ ﴿ أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع ﴾ [5] [6].

وقد ثبت في الحديث أن الله إذا أحـب عبدا وضع له المحبة والقبول عند أهل الأرض والسماء. أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ إذا أحـب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في أهل الأرض ﴾ [7] [1].

---

(١) مسلم الفضائل (٢٢٧٦) ، الترمذي المناقب (٣٦٠٥) ، أحمد (١٠٧/٤) .

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ١٧٨٢/٤ .

(٣) البخاري المناقب (٣٣٤٢) ، مسلم الفضائل (٢٢٨٦) ، أحمد (٣١٢/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب . باب خاتم النبيين ٢٢٦/٤ ، ومسلم - كتاب الفضائل ، باب كونه خاتم النبيين ، ١٧٩١/٤ .

(٥) مسلم الفضائل (٢٢٧٨) ، أحمد (٥٤٠/٢) .

(٦) كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق ١٧٨٢/٤ .

(٧) البخاري الأدب (٥٦٩٣) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٣٧) ، الترمذي تفسير القرآن (٣١٦١) ، أحمد (٤١٣/٢) ، مالك الجامع (١٧٧٨) .

قال ابن حجر:

(المراد بالقبول في حديث الباب: قبول القلوب له بالمحبة والميل إليه والرضا عنه ويؤخذ منه أن محبة قلوب الناس علامة محبة الله) (٢) وإذا كان هذا الشأن في عامة عباد الله فأولى بذه المحبة وذلك القبول أفضل الخلق أجمعين رسول الله ﷺ.

وقد تحقق هذا وأضعاف أضعافه، إذ لم تعرف الدنيا رجلا فاضت القلوب بحبه وفدته النفوس بكل عزيز وغال مثلما عرف ذلك عن رسول الله ﷺ حتى أولئك الذين ناصبوه العداء لم يملكوا أنفسهم من سيطرة الإعجاب برسول الله ﷺ وإجلاله.

فرسول الله أهل لأن يحب، لحب الله له واختياره لهذا الخير العميم. ومظاهر حب الله لرسوله كثيرة جدا منها:

(أ) اختياره واصطفاؤه لمقام النبوة والرسالة، إذ لا يختار الله لهذا الأمر إلا من أحبهم وارتضاهم.

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ (٣) .

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ ﴾ (٥)

(ب) تشريفه ﷺ بإنزال القرآن عليه. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب المقة من الله ١٧/٨ .

(٢) فتح الباري ، ٤٦٢/١٠ .

(٣) سورة الحج آية : ٧٥ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١٢٤ .

(٥) سورة الأحزاب ، آية(٤٥ -٤٦) .

وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾[2].

(ج) إكرامه ﷺ بشرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره وإعلاء قدره قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[3]

(د) تكريمه بصلاة الله وملائكته عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[4]. والصلاة من الله تتضمن الثناء عليه ومن الملائكة الدعاء له ﷺ.

(هـ) تشريفه بمقام الخلة، وهي أرفع درجة من المحبة، ولم ينلها من الأنبياء سوى إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام أن رسول الله ﷺ خليل الرحمن كما كان إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن.

أخرج مسلم بسنده عن جندب قال سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا. الا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أناكم عن ذلك »[5] [1].

(١) سورة الشورى آية : ٥٢ .
(٢) سورة الحجر آية : ٨٧ .
(٣) سورةالشرح ، آية(١ - ٤) .
(٤) سورة الأحزاب ، آية(٥٦) .
(٥) مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٢) .

(و) إن الله جعله رحمة للعالمين، الإنس والجن، رحمة للمؤمنين منهم، بالعز في الدنيا والنجاة في الآخرة، وللكافرين بإمهالهم وتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[٢].

قال ابن القيم:

(وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[٣] إنه باق على عمومه وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عجّل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها)[٤].

وأخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: ﷺ قيل لرسول الله: ادع على المشركين،

---

(١) صحيح مسلم . كتاب المساجد . باب النهي عن بناء القبور مساجد ٣٧٥/١- ٣٧٦ .

(٢) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .

(٣) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .

(٤) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم . تحقيق طه يوسف شاهين ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص٩٨ - ٩٩ .

قال: (إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة) ﴾[1] [2].

(ز) ما خصه الله به وفضله على سائر الأنبياء، كإحلال الغنائم له، ونصرته بالرعب مسيرة شهر.

كما في الحديث الذي أخرجه البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ﴿ أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ﴾[3] [4].

(ح) تشريفه وتكريمه يوم القيامة بكونه صاحب المقام المحمود وهو الشفاعة العظمى في أن يقضي الله بين الخلائق.

وكونه أول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وأول من تفتح له أبواب الجنة. إلى غير ذلك من وجوه التكريم والتشريف لنبينا محمد ﷺ والتي تعد من أقوى الدوافع إلى محبته.

ثالثا: كمال رأفته ورحمته بأمته وحرصه على هدايتها وإنقاذها من الهلكة:

حتى كادت أن تذهب نفسه أسفا على قومه ألا يكونوا مؤمنين كما قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

(١) مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٩٩) .
(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والآداب والصلة . باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ٤/٢٠٠٦- ٢٠٠٧ .
(٣) البخاري التيمم (٣٢٨) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) ، النسائي الغسل والتيمم (٤٣٢) ، أحمد (٣/٣٠٤) ، الدارمي الصلاة (١٣٨٩) .
(٤) البخاري . كتاب التيمم ، باب . قول الله تعالى : " فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا " ، ١/٩١- ٩٢ .
(٥) سورة الشعراء آية : ٣ .

عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [4].

وقد جاءت أحاديث كثيرة تؤكد هذا المعنى. منها ما أخرجه البخاري ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن زيد قال: ﴿ لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم رسول الله (فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن. قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟ قال: كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن. قال: لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة، لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها. الأنصار شعار، والناس دثار. إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض ﴾ [5] [1].

(١) سورة التوبة آية : ١٢٨ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٠٣ .
(٣) سورة الأنفال آية : ٣٣ .
(٤) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .
(٥) البخاري المغازي (٤٠٧٥) ، مسلم الزكاة (١٠٦١) ، أحمد (٤٢/٤) .

ومنها ما أخرجه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ﴿ أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ ﴾[2].. الآية.

وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[3] فرفع يديه وقال (اللهم! أمتي أمتي) وبكى. فقال الله ﷻ يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم- فسله، فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال. وهو أعلم. فقال الله يا جبريل (اذهب إلى محمد فقل: أنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك ﴾[4].

ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم - واللفظ له عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته. وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا ﴾[5] [6].

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي تبين حدب النبي ﷺ وشفقته على أمته ورحمته بها.

وجدير بمن كان بمثل هذه الشفقة والرحمة أن تتوجه قلوب المسلمين بكليتها إلى محبته

---

(١) البخاري . كتاب المغازي . باب غزوة الطائف ٢٠٠/٥ . ومسلم . كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه ، ٧٣٨/٢ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٣٦ .

(٣) سورة المائدة آية : ١١٨ .

(٤) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب دعاء النبي لأمته وبكائه شفقة عليهم ، ١٩١/١ .

(٥) البخاري الدعوات (٥٩٤٥) ، مسلم الإيمان (١٩٩) ، الترمذي الدعوات (٣٦٠٢) ، ابن ماجه الزهد (٤٣٠٧) ، أحمد (٤٢٦/٢) ، مالك النداء للصلاة (٤٩٢) ، الدارمي الرقاق (٢٨٠٥) .

(٦) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته ١٨٩/١ ، والبخاري . كتاب الدعوات . باب لكل نبي دعوة مستجابة . ٨٢/٨ .

وأن تجعل من حبه وسيلة قربى وزلفى إلى الله عز وجل.

رابعا: كمال نصحه لأمته وهدايته لها وإحسانه إليها:

إذ دل الأمة على كل خير يقربا إلى ربا، وحذرها من كل شر يجلب لها الذل والخزي في الدنيا والعذاب والنكال في الآخرة. فأصبح العز والتمكين في الدنيا والسعادة والنعيم في الآخرة متوقفا على اتباع منهجه وسلوك سبيله. كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [1].

وإذا كان الإنسان بفطرته يحب من نصحه أو أحسن إليه مرة أو مرتين فما بالنا بالناصح الأمين البر الشفيق على أمته والذي كانت حياته كلها نصحا لأمته وتعليما لها وتزكية لأرواحها وأبدانا. وهو الذي هدى البشرية- بإذن ربا- إلى الصراط المستقيم بعدما كانت تعيش في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، ولولا رحمة الله للناس ببعثته ورسالته لعاش الناس في بحار الظلمات تتقاذفهم الأمواج فلا يجدون إلى ساحل الهداية سبيلا.

يقول الله ﷻ ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [3].

لأجل هذا كانت المنة ببعثة النبي ﷺ عظيمة، والنعمة بذلك جسيمة. ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا من أدرك الفرق بين الهدى والضلال وبين الجاهلية والإسلام وبين رضى الله

(١) سورة النحل آية : ٩٧ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية (١٥١- ١٥٢) .

وسخطه.

فمن عرف هذا الفرق وأدركه إدراكا يقينيا علم عظم هذه النعمة التي لا تعادلها نعمة على ظهر الأرض، وأحب الرسول ﷺ بكل قلبه وآثر حب الله ورسوله على ما سواهما.

ولأجل هذا كان الصحابة أشد الخلق حبا لرسول الله ﷺ لأنهم عاشوا الجاهلية وعاينوها عن قرب فلما جاء الإسلام وأدركوا الفرق بين الظلمات والنور ازداد تمسكهم بالإسلام واشتد حبهم على مر الأيام لهذا النبي العظيم ﷺ.

أما عظيم إحسانه إلى أمته، فلأنه كان سبب انتفاع هذه الأمة بحياتنا وأرواحها وأبداننا.

بل كان هو السبب -بإذن ربه- في حياة هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (1) الآية.

وإذا كان الإنسان يحب أبويه لكونهما وسيلة وجوده، ولأنهما منحاه الرعاية والعناية حتى استطاع شق طريقه في الحياة.

فرسول الله أولى بذلك الحب لأنه كان سبب انتفاع الإنسان بحياته وبدنه وروحه. فلولا الإيمان به واتباع دينه لكان الإنسان في درجة الحيوانات أو أحط كما كانت حال الجاهلية قبل أن تشرق عليهم شمس النبوة وهكذا الشأن في كل جاهلية قديما وحديثا.

خامسا: ما خصه الله به من كريم الخصال ورفيع الأخلاق مما ميزه على سائر الخلق أجمعين:

ولو لم تكن له معجزة إلا أخلاقه العظيمة لكفت دليلا على صدق نبوته وسمو تعاليم رسالته.

والمطالع في سيرته ﷺ ومواقفه المتعددة يجد أن رسول الله ﷺ قد حاز من كل خلق أرفعه، وتسنم ذرى الأخلاق حتى سما بها، فكان كما وصفه ربه بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ

(1) سورة الأنفال آية : ٢٤ .

﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [1] .

فكان رسول الله ﷺ أكرم الناس خلقا، وأوسعهم صدرا، وأصدقهم.

فكان رسول الله ﷺ أكرم الناس خلقا، وأوسعهم صدرا وأصدقهم لهجة، وأكرمهم عشيرة، وأوفاهم عهدا، وأوصلهم للرحم، قريبا من كل بر، بعيدا عن كل إثم، لا يقول إلا حقا، ولا يعد إلا صدقا، جوادا بماله، فما قال لأحد: لا، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، شجاعا يتقي به أصحابه عند شدة البأس، صابرا محتسبا في جنب الله كل مكروه وأذى، يسبق حلمه غضبه ويعفو عند المقدرة، رحيم القلب، طيب النفس، آتاه الله الكمال في الخلق والخلق، والقول والعمل، وجمله بالسكينة والوقار، وكساه حسن القبول، فاستمال القلوب وملك زمامها، فانقادت النفوس لموافقته، وثبتت القلوب على محبته، وفدته النفوس بكل عزيز وغال.

فجدير بمن كان بتلك الم لة أن تتوجه القلوب لمحبته، وكلما اطلع الإنسان على جوانب خلقه الكريم ازداد حبا له. ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أكمل الأمة حبا له لما شاهدوه وعاينوه من أحواله الشريفة وأخلاقه الكريمة ﷺ.

هذه هي أهم موجبات محبة الرسول ﷺ ودواعيها. وهذه المحبة قد تضعف في قلب المسلم بسبب المعاصي والذنوب، أو الإقبال على حطام الدنيا. لأجل هذا يجب على المسلم أن يأخذ بالأسباب التي تزيد من محبته لرسول الله ﷺ.

أسباب زيادة المحبة:

يرتبط الحب في القلب بما يحركه من تذكر وتفكر، ورؤية للآثار وسماع للأخبار.

ومع وجود هذه المحركات يزداد الحب في قلب الإنسان وتطلب النفس تحصيل المحبوبات. وحب المسلم للرسول ﷺ يحركه في قلبه أمور كثيرة منها:

١ - تذكر الرسول ﷺ وأحواله:

---

(١) سورة القلم آية : ٤ .

إن للمعرفة ارتباطا وثيقا بالحب، وإذا لم يعرف المسلم رسوله محمدا ﷺ ويتعرف عليه وعلى عظيم قدره ومكانته في نفسه وعند ربه، فسيكون حبه له ضعيفا م ويا في أعماق الشعور والوجدان.

فإذا أراد المسلم أن يزداد حبه لرسول الله ﷺ فلا بد له من معرفته ومعرفة جوانب شخصيته وأخلاقه وذلك بمطالعة سيرته وشمائله وأيامه والنظر فيها بتمعن لاستخلاص الدروس والعبر والعيش مع رسول الله ﷺ والأحداث التي واجهته والمواقف التي وقفها والأعمال التي قام با والنظر إلى حال الصحابة معه وكيف كان عيشهم وجهادهم لأعدائهم وحبهم لنبيهم ﷺ.

فكلما طالع الإنسان سيرة رسول الله ﷺ وتدبرها أدرك عظمة رسول الله فازداد حبا له وشوقا إليه. ومما يكمل هذا الجانب التفكر فيما لاقاه الرسول في سبيل تبليغ الدين وعظيم حرصه على هداية الناس جميعا وشفقته على أمته ورحمته با فإذا أدرك المسلم هذا الأمر ازداد حبا لرسول الله ﷺ.

٢ - الوقوف على هديه ﷺ والاشتغال بالسنة قولا وعملا:

الوقوف على هديه ﷺ وتدبر سننه والاقتداء به في كل أمر من أمور الدين حتى يكون المسلم على بصيرة ويقين من أنه على جادة الاتباع فيجعل الرسول ﷺ أمامه في كل أمر يقوم به من أمور الدين وكأنه واحد من أصحابه يأتمر بأمره وينتهي بنهيه وكلما استمسك المسلم بديه وسننه وعاش معها بقلبه ووجدانه كلما كان ذلك ادعى إلى تذكر رسول الله ﷺ وحبه.

وإذا كان الحب مرتبطا بالمعرفة والتذكر، فأكثر الناس حبا له أهل سننه المشتغلون با علما وعملا، رواية ودراية لأنم أعلم الأمة بأقواله ﷺ وأفعاله وأخلاقه وشمائله، ولو لم يكن لهم نصيب من حبه سوى الصلاة والسلام عليه لكفى بذا شرفا.

٣ - معرفة نعمة الله على عباده بذا النبي ﷺ

ومن أعظم أسباب هذه المعرفة التفكر في النفع الحاصل لهذه الأمة بسبب بعثة النبي ﷺ

فيها ونزول القرآن عليه.

وأنه سبب نجاة هذه الأمة في الدنيا والآخرة وأن كل خير وعز وسعادة حصلت لهذه الأمة أو يقدر لها أن تحصل فبسبب اتباعه.

وأن كل بلاء حصل لهذه الأمة أو سيحصل فسببه مخالفة ما جاء به من عند ربه.

وحتى تكتمل هذه المعرفة يتخيل الإنسان كيف سيكون حال هذه الأمة لو لم يبعث فيها رسول الله ﷺ وكيف كان حالها قبل مبعثه ﷺ ثم كيف أصبح حالها بعد بعثته ونزول القرآن عليه. وكيف أن الله جمع به بعد فرقة، ورفع به شأن هذه الأمة وأخرجها به من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦ ﴾[(1)].

٤ - كثرة الصلاة والسلام عليه:

إذ أنا من أعظم ما يربط قلب المسلم برسول الله ﷺ ويجعله متذكرا له دائما، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦ ﴾[(2)].

وقد ورد الحث عليها والأمر بالإكثار منها في أحاديث كثيرة منها ما أخرجه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ من صلى علي واحدة، صلى الله عليه عشرا ﴾[(3)] [(1)].

---

(١) سورة المائدة ، آية(١٥-١٦) .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٥٦ .

(٣) مسلم الصلاة (٤٠٨) ، الترمذي الصلاة (٤٨٥) ، النسائي السهو (١٢٩٦) ، أبو داود الصلاة (١٥٣٠) ، أحمد (٣٧٢/٢) .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في المبحث القادم إن شاء الله.

(١) صحيح مسلم . كتاب الصلاة . باب الصلاة على النبي بعد التشهد ، ٣٠٦/١ .

المبحث الرابع

مظاهر محبة الرسول ﷺ

الحب وإن كان من أعمال القلوب إلا أنه لا بد وأن تظهر آثاره على الجوارح قولا وفعلا. ولما كان الحب أمرا يمكن أن يستتر وراء الدعاوى والمزاعم ويقع في الاشتباه، كان لا بد من التمييز بين الصادق فيه وبين الدعي الكاذب وبين من سلك في حبه لرسول الله ﷺ مسلكا صحيحا وبين من انحرف بمسلك حبه عن الصواب.

وقد جرت العادة أن الدعاوي لا تقبل إلا ببينات، فالبينة على من ادعى، ولو يعطى الناس بدعواهم لاختل ميزان الحق والعدل. وطالما استغلت دعوى الحب لله ولرسوله ﷺ أو حب الصالحين لتسويغ ألوان من البدع وضروب من الغلو وجعلها مقبولة طالما كان دافعها هذا الحب المزعوم.

لذا أردت في هذا المبحث الكلام على الشواهد الصادقة والمظاهر الواضحة لمحبة رسول الله ﷺ واتباعها بآثارها على السلوك والأفعال.

وذلك لبيان أن حب الرسول ﷺ مقيد بضوابط تحكمه، ومحدد بعلامات تؤكد صدقه، وآثار تظهر على من اتصف به. وهذه العلامات والمظاهر كثيرة، لكني سأتكلم عن أظهرها وأبينها.

أولا: طاعة الرسول ﷺ واتباعه:

إن أقوى شاهد على صدق الحب- أيا كان نوعه- هو موافقة المحب لمحبوبه وبدون هذه الموافقة يصير الحب دعوى كاذبة وأكبر دليل على صدق الحب لرسول الله ﷺ هو طاعته واتباعه.

فالاتباع هو دليل المحبة الأول وشاهدها الأمثل، وهو شرط صحة هذه المحبة، وبدونه لا تتحقق المحبة الشرعية ولا تتصور بمعناها الصحيح.

وإذا كان الله سبحانه قد جعل اتباع نبيه ﷺ دليلا على حبه سبحانه، فهو من باب

أوفى دليل على حب النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾ [1].

قال ابن كثير رحمه الله:

(هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية بأنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله.

كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال:

﴿ من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ﴾ [2] [3] ولهذا قال: ﴿ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [4] أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: " ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب ".

وقال الحسن البصري وغيره من السلف:

زعم قوم أنم يحبون الله فابتلاهم الله بذه الآية فقال: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾ [5] فتبين من هذا أن الاتباع هو أعظم شاهد على صدق المحبة، بل هو من أجل ثمارها.

فالصادق في حب النبي ﷺ هو من أطاعه واقتدى به وآثر ما يحبه الله ورسوله على

---

(١) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٢) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (٢٥٦/٦) .

(٣) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب الاعتصام . باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ، ١٢٣/٩ .

(٤) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٥) سورة آل عمران آية : ٣١ .

هوى نفسه، وظهرت أثار ذلك عليه من موافقته في حب ما يحبه وبغض ما يبغضه.

ويؤكد القاضي عياض على ارتباط هذه المحبة بالموافقة والاتباع فيقول: (اعلم أن من أحب شيئا آثره وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقا في حبه وكان مدعيا، فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه، وأولها:

الاقتداء به واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (١) وإيثار ما شرعه على هوى نفسه وموافقة شهواته، قال الله تعالى ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٢) (٣)

وقد استفاضت نصوص الكتاب والسنة في تعظيم شأن الاتباع وبيان أهميته، وأن سعادة المسلم في الدارين موقوفة على متابعة النبي ﷺ وأن شقاء من شقي وهلاك من هلك إنما كان بسبب مخالفته لما جاء به الرسول ﷺ وسنعرض لهذه النصوص في مبحث وجوب الطاعة.

نخلص من هذا إلى أن أقوى مظهر وأوضح شاهد على صدق المحبة لرسول الله ﷺ هو الاتباع وبدونه تصبح المحبة دعوى مجردة عن الدليل وقولا لا يصدقه عمل.

وهذا الاتباع محدد أيضا بشواهد وعلامات تؤكده وسنعرض لها فيما بعد.

ثانيا: تعظيم النبي ﷺ وتوقيره والأدب معه:

تعظيم النبي ﷺ هو ما يقتضيه مقام النبوة والرسالة من كمال الأدب وتمام التوقير، وهو من أعظم مظاهر حبه، ومن آكد حقوقه ﷺ على أمته، كما أنه من أهم واجبات

(١) سورة آل عمران آية : ٣١ .
(٢) سورة الحشر آية : ٩ .
(٣) الشفا ، ٢٤/٢ .

الدين.

وهذا التعظيم مثل المحبة من حيث كونه تابعا للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون التعظيم وتكون المحبة.

لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أكثر الناس حبا وتعظيم لرسول الله ﷺ لمعايشتهم له وقربهم منه. وتعظيم النبي ﷺ يكون بالقلب، واللسان والجوارح، فالتعظيم بالقلب هو ما يستلزم اعتقاد كونه رسولا اصطفاه الله برسالته، وخصه بنبوته، وأعلى قدره، ورفع ذكره، وفضله على سائر الخلق أجمعين، كما يستلزم تقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين.

أما التعظيم باللسان فيكون بالثناء عليه بما هو أهله، مما أثنى به على نفسه، أو أثنى به عليه ربه من غير غلو ولا تقصير، ويدخل في ذلك الصلاة والسلام عليه، كما يشمل الأدب في الخطاب معه والحديث عنه ﷺ.

وأما التعظيم بالجوارح فيشمل العمل بطاعته، وتجديد متابعته، وموافقته في حب ما يحبه، وبغض ما يبغضه والسعي في إظهار دينه، ونصرة شريعته، والذب عنه وصون حرمته [(1)].

وعلى ذلك فاساس التعظيم للنبي ﷺ وقاعدته التي ينبني عليها هو تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهي وزجر، وعبادة الله بما شرع. فمن فقد هذا الأساس أو أخل به فقد أخل بتعظيمه وتوقيره ﷺ. وهذا الإخلال يأتي من أمرين كليهما على طرفي نقيض:

أولهما: الجفاء والتفريط في حقوقه ﷺ. وذلك كنسبته إلى ما لا يليق بمقام النبوة كالطعن في صدقه أو أمانته وعدالته وذلك كصنيع ذي الخويصرة التميمي الذي طعن في قسمة رسول الله ﷺ للغنائم كما روي ذلك البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

(١) انظر . الصارم المنكي في الرد على السبكي ، لابن عبد الهادي ، ص٣٤١ - ٣٤٢ .

﴿ بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماه أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: ويلك ومن يعدل إذ لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ﴾[1] (....)[2] الحديث.

ويشبه هذا الصنيع صنيع المنافقين ومن انطمست بصائرهم فلم يعرفوا للنبي ﷺ قدره ولم يحفظوا حرمته. ومما يلحق بالجفاء عدم التأدب في الحديث والكلام عن النبي ﷺ كصنيع بعض الشعراء والكتاب في تشبيه بعض الولاة والحكام أو وصفهم بصفات الرسول ﷺ الخاصة به. كقول المعري مثلا [3]

لـولا انقطـاع الوحـي بعـد محمد　　قلـنا محمـد عـن أبـيه بديـل
هـو مـثله في الفضـل إلا أنـه　　لم يأتـه برسـالة جـبريل [4]

وقد نقل القاضي عياض أمثلة من هذا القبيل من أقوال بعض الجفاة والمنافقين [5].

ومما يلحق بالجفاء ترك الصلاة والسلام عليه لفظا وخطا، أو الاستهانة بديه وسنته وقلة المبالاة با أو التعظيم لشأن المفكرين والكتاب والقادة بما يغض من شأنه ﷺ مع أن هؤلاء مهما بلغوا لن يصلوا إلى مرتبة واحد من عامة الصحابة.

(١) البخاري المناقب (٣٤١٤) ، مسلم الزكاة (١٠٦٤) ، النسائي الزكاة (٢٥٧٨) ، أبو داود السنة (٤٧٦٤) ، أحمد (٥/٣) .

(٢) صحيح البخاري . كتاب المناقب . باب علامات النبوة في الإسلام (٢٤٣/٤ - ٢٤٤) .

(٣) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المقلب بالمعري . نسبة لمعرة النعمان بلدته (٣٦٣- ٤٤٩ هـ) كان من أعلام الشعراء غير أنه كان زائغ الاعتقاد متشككا يميل إلى الزهد الفلسفي ولذلك كان متقلبا فتارة يكون موحدا وأخرى يكون ملحدا . وله عدة دواوين من أشهرها سقط الزند ، واللزوميات وغيرها . انظر . البداية والنهاية ، ٧٢/١٢ -٧٦ . ولسان الميزان لابن حجر ، ٢٠٣/١ - ٢٠٨ .

(٤) هذان البيتان من قصيدة للمعري يمدح با رجلا من العلويين . انظر : سقط الزند - لأبي العلاء المعري . طبع دار صادر ، ص١٤٢ ، ١٣٨٣ ، ١٩٦٣م .

(٥) انظر الشفا ، ٢٣٨/٢ - ٢٤٧ .

وقد كثر الجفاء في زماننا هذا بكثرة المارقين والمنهزمين من الكتاب والأدباء الذين سودوا الصحائف بالاستهزاء بتعاليم الإسلام وقيمه وربما بالتطاول على مقام النبوة. كما عزف كثير من المسلمين عن مطالعة سيرة النبي ﷺ ومذاكرة سنته وكثرة الصلاة والسلام عليه. مما أدى إلى الجفاء للنبي ﷺ وعدم توقيره.

ولقد كان سلفنا الصالح إذا ذكر عندهم النبي ﷺ أو حديثا من أحاديثه ظهر عليهم من الهيبة والإجلال والتأدب كما لو كان النبي ﷺ أمامهم حتى إن بعضهم كان يبكي عند ذكره ﷺ فكان محمد بن المنكدر [١] إذا سئل عن حديث بكى حتى يرحمه الجالسون، وكان عبد الرحمن بن مهدي [٢] إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت وقال: ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [٣] ويتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب عند سماع قوله ﷺ [٤].

هكذا كان أدب سلفنا الصالح مع رسول الله ﷺ وسنته فأين منا هذا الأدب وذلك التوقير؟ كما نسأل الله العافية.

ثانيهما: الغلو في النبي ﷺ ورفعه فوق مرتبته التي وضعه الله عليها. وذلك كاعتقاد أنه يعلم الغيب مطلقا أو أن وجوده سابق لهذا العالم وأن من نوره خلق الكون كله إلى غير ذلك من الاعتقادات الباطلة التي لم ترد في سنة. وسيأتي لهذا مزيد بيان في فصل الغلو في الرسول ﷺ.

وقد أوجب الله على الأمة كلها تعظيم النبـي ﷺ وتوقيره فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ

(١) هو أبو عبد الله محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير القرشي من أعلام التابعين روى عن جماعة من الصحابة وعمه جمع من الأئمة ، كان سيد القراء قال ابن عيينة : كان من معادن الصدق ، يجتمع إليه الصالحون . انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ، ١/١٢٧- ١٢٨ .

(٢) هو أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان البصري- من أعلام المحدثين حدث عن شعبة وسفيان وأمما ، وعنه ابن المبارك وأحمد وابن المديني . انظر : تذكرة الحفاظ ، ١/٣٢٩- ٣٣٢ .

(٣) سورة الحجرات آية : ٢ .

(٤) انظر الشفا ، ٢/٤٠- ٤٧ .

أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [(١)].

فالتسبيح لله ﷻ والتعزير والتوقير للنبي ﷺ وقال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [(٢)] والتعزير بمعنى التعظيم.

قال ابن جرير في تفسير الآية الأولى:

(معنى التعزير في هذا الموضع: التقوية والنصرة والمعونة ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال) [(٣)].

ويعرف ابن تيمية التعزير بأنه:

(اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه، والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار) [(٤)].

وقد أبان الله في كتابه عن وجوه الأدب مع النبي ﷺ وتعظيمه. وما ينبغي على المسلم أن يتأدب به مع رسول الله ﷺ وذلك في آيات شتى وبأساليب متنوعة. وقد اشتملت سورة الحجرات في صدرها على مجموعة من التوجيهات التربوية للمسلمين في كيفية تعاملهم مع رسول الله ﷺ والتأدب معه.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) سورة الفتح ، آية ٨ - ٩ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .
(٣) تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . ط ٢ ، مصطفى الحلبي . القاهرة ، ١٣٧٣ هـ ، ٧٥/٢٦ .
(٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول . لابن تيمية . تحقيق . محمد محي الدين عبد الحميد ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ ، ص ٤٢٢ .

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ (١) فقد أشارت هذه الآيات إلى بعض وجوه الأدب مع النبي ﷺ منها:

- عدم التقدم بين يدي الله ورسوله بقول أو فعل أو إذن أو تصرف كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ (٢) . قال ابن جرير في تفسير هذه الآية:

" لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه، ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله (٣). وهذا الأمر فرض باق على الأمة إلى يوم القيامة- مثل طاعته ﷺ حيا وميتا- فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ﷺ كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذوي العقول السليمة، فالأدب كل الأدب معه ﷺ تقديم سنته وأقواله على كل قول أو رأي (٤).

- ومنها عدم رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وعدم الجهر له بالقول مخافة حبوط العمل. فالأدب معه في حياته غض الصوت عنده مع الهيبة والإجلال له، وأن يكون مجلس علم وحلم ووقار وسكينة، وأن يكون الحديث معه بتأدب وتلطف.

وإذا كان الله قد حرم رفع الأصوات فوق صوت نبيه، وحرم الجهر له بالقول لما في ذلك من الجفاء والإيذاء لنبيه ﷺ فكذلك رفع الأصوات عند قبره ﷺ في حكم رفع

(١) سورة الحجرات ، آية (١-٥) .
(٢) سورة الحجرات آية : ١ .
(٣) تفسير ابن جرير ، ١١٦/٢٦ .
(٤) انظر . مدارج السالكين لابن القيم ، ٣٨٩/٢ .

الصوت عنده في حياته من حيث التحريم لأن حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا.

وقد شدد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه النكير على رجلين رفعا أصواتهما في المسجد النبوي وذلك فيما رواه البخاري بسنده عن السائب بن يزيد قال:

(كنت قائما في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئته بهما. قال: من أنتما- أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما. ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم!) [١].

فإذا تقرر هذا علمنا أن ما يحدث من كثير من الناس عند قبره ﷺ من رفع الأصوات واختلاطها، وصنيع من يسمون " بالمزورين " من رفع الأصوات عند القبر والتشويش في المسجد النبوي، كل هذا من الأمور المحرمة لما فيها من إيذاء النبي ﷺ وانتهاك حرمة المسجد.

ومن مخالفة الأدب في هذا الباب رفع أراء بعض البشر وأقوالهم ومذاهبهم على سنة النبي ﷺ ومحاولة إسكات صوت السنة والداعين إليها وفي هذا من الإيذاء والجفاء ما هو أكبر بكثير من مجرد رفع الصوت عند النبي ﷺ [٢].

قال أبو بكر بن العربي [٣]

(حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر أن لا يرفع صوته عليه، ولا

(١) صحيح البخاري . كتاب الصلاة . باب رفع الصوت في المساجد ١٢٧/١ .

(٢) انظر . مدارج السالكين ، ٣٨٩/٢ .

(٣) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشبيلي المالكي المعروف بابن العربي ، (٤٦٨هـ ـ ٥٤٣ هـ) . محدث . فقيه - قاض ، بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين ، وله مصنفات كثيرة منها : عارضة الأحوذي في شرح الترمذي . وأحكام القرآن ، والعواصم من القواصم وغيرها انظر وفيات الأعيان (٢٩٦/٤ - ٢٩٧) ونفح الطيب من غض الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني . تحقيق د . إحسان عباس ، ٢٥/٢ وما بعدها .

يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ [١].. . وكلام النبي ﷺ من الوحي، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناه [٢] بيانا في كتب الفقه والله أعلم) [٣].

ومن الأدب مع الرسول ﷺ عدم جعل دعائه كدعاء الناس بعضهم بعضا، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [٤] وللمفسرين في معنى هذه الآية قولان:

- أحدهما: معناه أن لا تجعلوا دعاءكم ونداءكم للرسول ﷺ كما ينادي بعضكم بعضا باسمه الرد فنهاهم الله أن ينادوا رسوله ﷺ بيا محمد. بل الأدب معه ﷺ أن ينادوه: بيا رسول الله، ويا نبي الله، مع خفض الصوت احتراما وتوقيرا له [٥].

الثاني: أن لا تجعلوا دعاء الرسول لكم من جنس دعاء بعضكم بعضا إذا شاء أجاب وإن لم يشأ لم يجب. بل الأدب معه أنه إذا دعاكم لم يسعكم إلا إجابته والسمع والطاعة له [٦].

ومن الأدب معه ﷺ أن أصحابه إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه.

---

(١) سورة الأعراف آية : ٢٠٤ .

(٢) ذكر العلماء فروقا بين الحديث والقرآن منها : إن كلام الرسول ليس معجزا كالقرآن . إننا متعبدون بالقرآن وتلاوته في الصلاة وخارجها وليس الحديث كذلك . - إن القرآن لا يقرأه القارئ إلا وهو طاهر على خلاف في ذلك وليس الحديث كذلك .

(٣) أحكام القرآن ، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ، تحقيق على محمد البجاوي ، ١٧٠٢/٤ - ١٧٠٣ .

(٤) سورة النور آية : ٦٣ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ، ٣٠٦/٣ - ٣٠٧ ، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن . الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، طبع مطبعة المدني ، مصر ، ٢٥١/٦ - ٢٥٢ .

(٦) انظر مدارج السالكين ، ٣٨٩/٢ - ٣٩٠ .

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [(١)].

قال ابن القيم:

(ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع -من خطة أو جهاد أو رباط- لم يذهب أحدهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه... فإذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه، ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [(٢)] ومن الأدب معه. أن لا يستشكل قوله. بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول.

ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ وهو عين الجرأة) [(٣)].

ومن الأدب مع الرسول ﷺ وتعظيمه: التأدب في الحديث معه والحديث عنه. وذلك باختيار أحسن الألفاظ وأعذبا، وأرق المعالي وألطفها، وتجنب كل ما فيه جفاء أو إساءة أدب مع الرسول ﷺ وتـ يه مقام النبوة والرسالة من كل عيب أو نقص ينافي عصمته ﷺ.

لأجل هذا نى الله المؤمنين عن الجهر بالقول لرسول الله ﷺ كما ناهم عن مخاطبته كما يخاطب بعضهم بعضا كما سبق آنفا. لما فيه من الجفاء والإيذاء له. ومن هذا الباب

---

(١) سورة النور آية : ٦٢ .

(٢) سورة النحل ، آية(٤٣) ، وسورة الأنبياء ، آية(٧) .

(٣) مدارج السالكين ، ٣٩٠/٢ .

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (١) .

فنهى الله المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ (راعنا) لما فيها من احتمال معنى: ارعنا نرعاك على سبيل المقابلة كما يقال حادثنا وجالسنا، نحادثك ونجالسك. فكأنهم لا يرعونه إلا برعايته لهم. بل حقه ﷺ أن يرعى على كل حال، أو يكون معناها: ارعنا معك حتى نفهمك وتفهم عنا (٢) وكلا المعنيين فيه جفاء لا يليق بمقام النبوة.

وقيل نهوا عن ذلك لما فيه من التشبه باليهود لأنهم كانوا يورون بهذه الكلمة عن الرعونة فنهي المسلمون عن قولها قطعا للذريعة، ومنعا للتشبه بهم في قولهم (٣).

وعلى ذلك فكل كلام يشعر بالجفاء وإن لم يقصده المتكلم- لا يجوز أن يخاطب به الرسول ﷺ أو يتحدث به عنه لما في ذلك من إيذائه ﷺ وإذهاب هيبته من النفوس.

ومن تعظيمه ﷺ الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به على نفسه، أو أثنى به عليه ربه سبحانه وتعالى من غير غلو ولا تقصير، ومن أعظم الثناء عليه: الصلاة والسلام عليه في مواطنها، وعند ورود ذكره الشريف على المسامع واللسان وعند الخط بالبنان.

ويتضمن معنى الصلاة عليه: ثناء الله عليه والإشارة برفع ذكره، والطلب من الله أن يعلي ذكره ويزيده تعظيما وتشريفا، والمراد بالطلب هنا هو طلب الزكاة زيادة الثناء والتشريف لا طلب أصل الصلاة. أما السلام فيتضمن سلامته أي من كل آفة وعيب (٤).

أورد البخاري تعليقا عن أبي العالية قال: " صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء ".

---

(١) سورة البقرة آية : ١٠٤ .

(٢) انظر . تفسير الطبري ، تحقيق محمود وأحمد محمد شاكر ، طبع دار المعارف مصر ، ٤٦٣/٢ - ٤٦٦ .

(٣) انظر . الشفا للقاضي عياض ، ٣٧/٢ . وتفسير ابن كثير ، ١٤٨/١- ١٤٩ .

(٤) انظر . جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام . لابن القيم ص٨٤ ، وما بعدها ، وفتح الباري ١١/ ١٥٢ - ١٥٣ ، ١٦٩ .

قال ابن عباس:

يصلون: يبركون [1].

وقد أخبر الله أنه وملائكته يصلون على النبي وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [2].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والسلام عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا " [3].

كما رغب رسول الله ﷺ في الصلاة والسلام عليه في أحاديث عدة: منها ما أخرجه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من صلى علي واحدة، صلى الله عليه عشرا » [4] [5].

وأخرج أبو داود بسنده عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي قالوا يا رسول الله: وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يقولون: بليت. قال: إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير . باب " إن الله وملائكته يصلون على النبي " ١٥١/٦ .
(٢) سورة الأحزاب آية : ٥٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ٥٠٧/٣ .
(٤) مسلم الصلاة (٤٠٨) ، الترمذي الصلاة (٤٨٥) ، النسائي السهو (١٢٩٦) ، أبو داود الصلاة (١٥٣٠) ، أحمد (٣٧٢/٢) .
(٥) صحيح مسلم . كتاب الصلاة . باب الصلاة على النبي بعد التشهد ، ٣٠٦/١ .

الأنبياء ﴾ (١) (٢).

وأخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ﴾ (٣) الحديث (٤).

وأخرج الترمذي أيضا بسنده عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي ﴾ (٥) (٦).

وأخرج أبو داود بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبري عيدا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ﴾ (٧) (٨).

وقد علم الرسول ﷺ أصحابه وأمته كيف يصلون عليه في الصلاة وغيرها وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم بسنديهما عند عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: (لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية، إن النبي ﷺ خرج علينا، فقال يا رسول الله قد علمنا

---

(١) النسائي الجمعة (١٣٧٤) ، أبو داود الصلاة (١٠٤٧) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٨٥) ، أحمد (٨/٤) ، الدارمي الصلاة (١٥٧٢) .

(٢) سنن أبي داود . كتاب الصلاة . باب فضل الجمعة وليلة الجمعة ، ٦٣٥/١ ، ورواه أحمد في المسند ٤/٨ ، والنسائي في كتاب الصلاة . باب إكثار الصلاة على النبي يوم الجمعة ٩١/٣ - ٩٢ . وإسناده صحيح صححه الحاكم ٢٧٨/١ . ووافقه الذهبي . وصححه النووي في الأذكار ، ط٤ ، مصطفى الحلبي ، مصر ص١٠٦ .

(٣) الترمذي الدعوات (٣٥٤٥) ، أحمد (٢٥٤/٢) .

(٤) سنن الترمذي كتاب الدعوات . باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ٢١٠/٥ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، نشر محمد عبد المحسن الكتبي ، المدينة المنورة . وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ٥٤٩/١ .

(٥) الترمذي الدعوات (٣٥٤٦) ، أحمد (٢٠١/١) .

(٦) المصدر نفسه ، ٢١١/٥ ، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ٥٤٩/١ .

(٧) أبو داود المناسك (٢٠٤٢) ، أحمد (٣٦٧/٢) .

(٨) سنن أبي داود . كتاب المناسك . باب زيارة القبور ٥٣٤/٢ . ورواه أحمد في المسند ٣٦٧/٢ . والحديث سنده حسن على شرط مسلم ، وهو صحيح بما له من طرق وشواهد . انظر أحكام الجنائز وبدعها للشيخ الألباني ، ط٤ ، طبع المكتب الإسلامي ، ٢١٩ - ٢٢٠ .

كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك فقال: قولوا اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[1].

وأخرجا أيضا بسنديهما عن أبي حميد الساعدي أنم قالوا: ﴿ يا رسول الله ﷺ كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: (اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما، صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ﴾ [2] [3].

إلى غير ذلك من الصيغ التي علمهم النبي ﷺ إياها وأرشدهم إليها. وهذه الصيغ التي علمها النبي ﷺ لأصحابه وأمته من بعدهم هي أفضل كيفيات الصلاة والسلام عليه لأنا صادرة من مشكاة النبوة، ولأن النبي ﷺ لا يختار لهم ولنفسه إلا الأشرف والأفضل والأكمل من الأعمال والكيفيات.

فإذا تبين هذا علمنا أن ما ابتدعه كثير من مشايخ الصوفية من صيغ في الصلاة على النبي ﷺ زاعمين لها من الفضل والثواب الشيء الكثير، هذه الصلوات لا ترتقي إلى مرتبة الصيغ التي علمها النبي ﷺ لأصحابه وأمته في كيفية الصلاة والسلام عليه. هذا إن سلمت تلك الصلوات من الغلو وضروب البدع. كما يلاحظ أنه لم يرد في شيء من صيغ الصلاة على النبي ﷺ لفظ السيادة (سيدنا). فدل عدم ورودها على أنا ليست مشروعة أو خلاف الأولى.

وقد سئل الحافظ ابن حجر عن صفة الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة أو خارج

---

(١) البخاري . كتاب الدعوات . باب الصلاة على النبي ٨/٩٥ . ومسلم . كتاب الصلاة . باب الصلاة على النبي بعد التشهد ١/٣٠٥ .

(٢) البخاري أحاديث الأنبياء (٣١٨٩) مسلم الصلاة (٤٠٧) النسائي السهو (١٢٩٤) أبو داود الصلاة (٩٧٩) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٩٠٥) ، أحمد (٥/٤٢٤) ، مالك النداء للصلاة (٣٩٧) .

(٣) البخاري ، السابق نفسه ، ٨/٩٥-٩٦ . ومسلم ، السابق نفسه ، ١/٣٠٦ .

الصلاة سواء قيل بوجوبا أو ندبيتها، هل يشترط فيها أن يصفه ﷺ بالسيادة. كأن يقول مثلا. اللهم صل على سيدنا محمد أو على سيد الخلق، وعلى سيد ولد آدم؟ أو يقتصر على قوله: اللهم صل على محمد؟ وأيهما أفضل، الإتيان بلفظ السيادة لكونا صفة ثابتة له ﷺ أو عدم الإتيان با لعدم ورود ذلك في الآثار؟.

فأجاب رحمه الله:

(نعم، اتباع الألفاظ المأثورة أرجح، ولا يقال: لعله ترك ذلك تواضعا منه ﷺ لم يكن يقول عند ذكره ﷺ وأمته مندوبة إلى أن تقول ذلك كلما ذكر. لأنا نقول: لو كان ذلك راجحا لجاء عن الصحابة ثم عن التابعين. ولم نقف في شيء من الآثار عن أحد من الصحابة ولا التابعين لهم قال: ذلك مع كثرة ما ورد عنهم من ذلك) [(١)].

وللصلاة على النبي ﷺ مواطن يتأكد وجوبا أو استحبابا فيها: منها: التشهد الأخير في الصلاة، واختلف في وجوبه واستحبابه على قولين [(٢)]. ومنها عند دخول المساجد والخروج منها، وبين يدي الدعاء.

وعند ذكره ﷺ وروود اسمه الشريف وكتابته وفي الخطب وعند رواية الحديث وتعليم الناس العلم إلى غير ذلك من المواطن [(٣)].

ومن تعظيمه ﷺ نصرته والذب عنه، وقد أوجب الله على الأمة تعزير نبيه ﷺ وتوقيره، وسبق أن بينا أن تعزيره ﷺ يتضمن معنى النصرة والتعظيم. فواجب على الأمة أن تنصر الله ورسوله، وأن تنتصر لله ورسوله، وإذا كان نصر آحاد المسلمين واجبا، لقوله ﷺ ﴿ انصر أخاك ظالما أو مظلوما ﴾ [(٤)] [(١)].

---

(١) أوردها بتمامها : الألباني نقلا عن الحافظ محمد بن محمد الغرابيلي تلميذ الحافظ ابن حجر . انظر . صفة صلاة النبي تأليف محمد نصر الدين الألباني ، ط١١ ، المكتب الإسلامي ١٤٠٣ هـ ، ص ١٥٣- ١٥٥ .

(٢) انظر : جلاء الأفهام ، ص١٩٣- ٢١٦ . وصفة صلاة النبي ص ١٦٢ .

(٣) للوقوف على هذه المواطن وغيرها . انظر الشفا ، ٦٤/٢ - ٦٨ . وجلاء الأفهام ، ١٩٣ - ٢٦١ ، وفتح الباري ، ١٦٩/١١ .

(٤) البخاري المظالم والغصب (٢٣١١) ، الترمذي الفتن (٢٢٥٥) ، أحمد (٩٩/٣) .

وقوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ﴾ (٢) (٣).

فكيف لا يكون نصر الرسول ﷺ من أوجب الواجبات، بل حقه أن يفدى بالأنفس والأموال وأن يؤثر بكل عزيز وغال.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (٤)....الآية.

فحرم الله على المؤمنين التخلف عن نصرة نبيه والرغبة بالأنفس عنه، وأوجب على المؤمنين نصرته، وذلك في آيات عدة من القرآن منها:

قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ (٦)...الآية، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ (٧)... وامتدح الله المهاجرين بقوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم . باب : أعن أخاك ظالما أو مظلوما ١٦٨/٣ . والإمام أحمد في المسند ، ٣/ ٩٩ .

(٢) البخاري المظالم والغصب (٢٣١٠) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٨٠) ، الترمذي الحدود (١٤٢٦) ، أبو داود الأدب (٤٨٩٣) ، أحمد (٦٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المظالم . باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ١٨٦/٣ .

(٤) سورة التوبة آية : ١٢٠ .

(٥) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

(٦) سورة التوبة آية : ٤٠ .

(٧) سورة الصف آية : ١٤ .

وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1].

كما أثنى على الأنصار بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [2] ونصر الرسول ﷺ يشمل نصره باللسان والسنان والبنان، بالقول والفعل. نصرا له في ذات نفسه حماية لعرضه، وصونا لحرمته، وإرغاما لأعدائه ومبغضيه، وانتصارا له من كل من يؤذيه، وإجلالا لمقام النبوة من أي قدح أو عيب.

وقد أجمع أهل العلم على وجوب قتل من سب الرسول ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصا في نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له والإزراء عليه أو التحقير لشأنه.

فحكم من أتى بذلك أن يقتل بلا استتابة لأنه آذى رسول الله ﷺ بما يستوجب إهدار دمه إن كان مسلما، ونقض عهده وقتله إن كان ذميا [3] كل ذلك حماية لعرضه ﷺ وصونا لمكانته وم لته.

ومن نصر الرسول ﷺ نصر سنته والذب عن شريعته ودفع كيد الكائدين وطعن الطاعنين في سنته وسيرته، برد شبههم ودحض مفترياتم وإظهار ما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق.

ويدخل في نصر الله ورسوله نصر الشريعة وأهلها والداعين إليها وتكثير سوادهم وإعانتهم على أمورهم، وقمع أعدائهم. ولا يتأتى هذا النصر ولا يتحقق إلا برفع علم الجهاد في سبيل الله جهادا للكفار والمنافقين، وتتبع الزنادقة والملحدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله في أرضه. وتطبيق شرعه.

(١) سورة الحشر آية : ٨ .
(٢) سورة الأنفال آية : ٧٤ .
(٣) انظر في بيان ذلك . الشفا ٢/٢١٤ وما بعدها . والصارم المسلول ص ٣ وما بعدها ، ص ٤١٨ - ٤١٩ .

وترك النصرة لرسول الله ﷺ ودينه والتخاذل عنها تمكين لأعداء الإسلام من الطعن فيه وتشويهه وإضعاف شوكته وانتهاك حرماته وإذهاب هيبة النبي ﷺ من النفوس.

ولا يكون ذلك إلا إذا ترك الجهاد في سبيل الله، وذهبت الغيرة على محارم الله من القلوب، حينما يكون الرضى بالذل والهوان حبا للدنيا وكراهية للموت، وهذا هو حال المسلمين اليوم. فالانتصار لرسول الله ﷺ حق على كل من آمن بالله واتبعه وزعم أنه يحبه، فمن ادعى حبه ولم ينصره وينتصر له فهو كاذب في دعواه.

فمقتضى الحب الصحيح أن تنصره وتفديه بالنفس والمال وأن تغار على حرمات الله أن تنتهك، تلك هي أهم جوانب تعظيم الرسول ﷺ وتوقيره. لكن بقي أن أنبه إلى أمرين مهمين في هذا الباب:

الأمر الأول:

أنه يجب على المسلم المعظم لرسول الله ﷺ أن يفرق بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته وألوهيته، والتي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، وبين حقوق النبي ﷺ ليضع كل شيء في موضعه حتى يكون على الصراط المستقيم.

فالتجاء المضطر -مثلا- الذي أحاطت به الكروب، ونزلت به الشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله وحده، حق من حقوق الله تعالى لا يجوز صرفه لغير الله بحال من الأحوال، لأن كشف الضر، وإجابة المضطر بيد الله وحده. فصرف هذا الحق لله وإخلاصه له، هو عين طاعته سبحانه ومرضاته، وهو طاعة لرسول الله ﷺ واتباع له في تجريد التوحيد من كل شوائب الشرك.

أما صرف هذا الحق- أو غيره من الحقوق الخاصة بالله- لغير الله ولو لرسوله ﷺ بدعوى أنه تعظيم له - فهذا عين المحاده والمشاقة لله ورسوله " وهو من الشرك الذي نهى الله عنه فإذا تبين ذلك علمنا أن ما يفعله بعض المنتسبين إلى الإسلام من التجائهم وقت الشدائد إلى غير الله طالبين منه كشف الضر ورفع الشدة، وما يفعل من هذا القبيل عند قبر الرسول ﷺ بدعوى أنه تعظيم له كل هذا من قبيل الشرك الذي حرمه الله ورسوله.

الأمر الثاني:

الفرق بين التعظيم المشروع وغير المشروع، ينبغي على المسلم أن يعلم أن التعظيم الذي أوجبه الله لرسوله ﷺ هو التعظيم المشروع اللائق بمقام النبوة والرسالة.

ومدار هذا التعظيم وأساسه هو الاتباع والاقتداء به ﷺ فمن كان اتباعا واقتداء كان أكثر محبة وتعظيما، وأبعد عن الغلو والبدع. وليس كل ما يظن أنه من باب التعظيم لرسول الله ﷺ هو في الحقيقة تعظيما مشروعا في حقه.

قال ابن عبد الهادي [1] :

فالتعظيم نوعان: أحدهما: ما يحبه المعظم ويرضاه ويأمر به ويثنى على فاعله، فهذا هو التعظيم في الحقيقة.

والثانـي: ما يكرهه ويبغضه ويذم فاعله، فهذا ليس بتعظيم، بل هو غلو مناف للتعظيم، ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلي بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك، ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا، والنبي ﷺ قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه، فأنكر على معاذ سجوده له، وهو محض التعظيم.

وفي المسند بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك: ﴿ أن رجلا قال: (يا محمد، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا، وابن خيرنا)، فقال رسول الله ﷺ (عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق م لتي التي أنزلني الله ﷻ ﴾ [2] [1] وقال ﷺ ﴿ لا تطروني كما أطرت النصارى

---

(١) هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي (٧٠٥- ٧٤٤هـ) شارك في كثير من العلوم وحصل منها مالا يبلغه الشيوخ الكبار ، وترك تصانيف كثيرة منها : الأحكام في فقه الحنابلة . وتراجم الحفاظ وفضائل الشام . والمحرر في الحديث . والعقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية . والصارم المنكي في الرد المنكي في الرد على السبكي وغيرها . انظر البداية والنهاية (٢١٠/١٤) والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق ، محمد سيد جاد الحق ، نشر دار الكتب الحديثة . عابدين ، مصر (٤٢١/٣ ، ٤٢٢(.

(٢) أحمد (١٥٣/٣) .

عيسى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله ﴾ [٢] [٣].

وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه، وناهم أن يصلوا خلفه قياما. وقال: ﴿ إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم ﴾ [٤] [٥] وكل هذا من التعظيم الذي يبغضه ويكرهه[٦].

وقد أنكر النبي ﷺ على من قال له: ما شاء الله وشئت أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ أن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت، فقال أجعلتني والله عدلا. بل ما شاء الله وحده ﴾ [٧] [٨].

وأرشد النبي ﷺ أصحابه إلى أن يقولوا- إذا أرادوا- ما شاء الله ثم شاء محمد. كما في سنن الدارمي وابن ماجه بسنديهما عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة لأمها قال: ﴿ قال رجل من المشركين لرجل من المسلمين نعم القوم أنتم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد فسمع النبي ﷺ فقال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد ﴾ [٩] [١].

---

(١) المسند ، ١٥٣/٣ ، ٢٤١ .

(٢) أحمد (٢٤/١) .

(٣) سبق تخريجه ، ص٢٤ .

(٤) مسلم الصلاة (٤١٣) ، النسائي السهو (١٢٠٠) ، أبو داود الصلاة (٦٠٢) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٤٠) ، أحمد (٣٣٤/٣) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة . باب ائتمام المأموم بالإمام ، ٣٠٩/١ ، والنسائي في كتاب السهو . باب الرخصة في الالتفات في الصلاة يمينا وشمالا ٩/٣ .

(٦) الصارم المنكي في الرد على السبكي ، ٢٨٨ .

(٧) ابن ماجه الكفارات (٢١١٧) ، أحمد (٢١٤/١) .

(٨) المسند ، ٢١٤/١ ، والحديث إسناده حسن . انظر السلسلة الصحيحة ٥٦/١- ٥٧ .

(٩) ابن ماجه الكفارات (٢١١٨) ، أحمد (٧٢/٥) ، الدارمي الاستئذان (٢٦٩٩) .

فيجب على المسلم أن يفرق بين المشروع وبين غيره في هذا الجانب وعدم التفرقة بينهما هو الذي أوقع المبتدعة في الغلو الذي ذمه الله ورسوله وذلك كالاستغاثة به وطلب الحاجات منه ودعائه من دون الله واعتقاد أنه خلق من نور وأن الكون كله قد خلق من نوره، وأنه يتصرف في الأكون، ويعلم الغيب مطلقا إلى غير ذلك من العقائد الباطلة، وابتداع أنواع كثيرة من الصلوات عليه. فكل هذا من الغلو والشرك الذي نـــى الله عنه، وفاعل هذا مضاد لتعظيمه ﷺ.

ثالثا: ومن مظاهر محبته ﷺ :

كثرة تذكره وتمني رؤيته والشوق إلى لقائه، ذلك أن من أحب شيئا أكثر من ذكره، ولا يكون ذلك إلا إذا شغلت المحبة قلب المحب وفكره، وسبب ذلك استحضار الأسباب والدواعي الباعثة على حب رسول الله ﷺ ومعرفة قدر النعمة التي أنعم الله بـا على الناس إذ بعث فيهم رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٢).

ويتبع ذلك تمني رؤيته ﷺ والشوق إلى لقائه وسؤال الله اللحاق به على الإيمان وأن يجمع بينه وبين حبيبه ونبيه ﷺ في مستقر رحمته. وقد أخبر الرسول ﷺ بأنه سيوجد في هذه الأمة أناس يودون رؤيته بكل ما يملكون.

فأخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « من أشد

(١) سنن الدارمي . كتاب الاستئذان . باب في النهي عن أن يقول ما شاء الله وشاء فلان ٢٩٥/٢ . . وابن ماجه . كتاب الكفارات . باب النهي عن أن يقال ما شاء الله وشئت ٦٨٤/١ . والحديث صحيح بشواهده . انظر السلسلة الصحيحة ٥٤/١- ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، آية(١٥١-١٥٢) .

أمتي لي حبا، ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني، بأهله وماله » [١] [٢].

ويدخل في هذا الشوق إلى لقائه ﷺ إذ كل حبيب يحب لقاء حبيبه وحينما قدم الأشعريون المدينة كانوا يرتجزون (غدا نلقى الأحبة، محمدا وصحبه) [٣].

ولما احتضر بلال نادت امرأته: واويلاه. وهو يقول: (وافرحاه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه) [٤].

فمزج مرارة الموت بحلاوة الشوق إلى رسول الله ﷺ ومن تقدمه من الصحابة رضوان الله عليهم.

وكان خالد بن معدان الكلاعي [٥] وهو من أعلام التابعين - لا يأوى إلى فراشه مقيله إلا وهو يذكر فيه شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار ثم يسميهم ويقول: (هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم فعجل ربي قبضي إليك) حتى يغلبه النوم [٦].

وهكذا شأن المحب دائما أن يشتاق إلى لقاء حبيبه ويتمنى رؤيته بكل ما يستطيع ويملك.

فأين شوق المسلمين اليوم إلى نبيهم وحبيبهم ﷺ أين هو؟ لقد غاب عند أكثر العالمين

(١) مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٢) ، أحمد (٤١٧/٢) .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب فيمن يود رؤية النبي بأهله وماله ٢١٧٨/٤ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، ١٠٥/٤ ، ١٥٥ ، ١٨٣ . قال الشيخ الألباني (إسناده صحيح على شرط مسلم) . انظر . السلسلة الصحيحة ٥٠/٢- ٥١ .

(٤) أورد هذه الحكاية ابن عساكر في ترجمة بلال بن رباح رضي الله عنه- انظر . تذيب تاريخ دمشق . الشيخ عبد القادر بدران ، ط ٢ ، دار المسيرة بيروت ، ١٣٩٩ ، ٣١٧/٣ .

(٥) هو أبو عبد الله خالد بن معدان بن أبي كريب الكلاعي الشامي الحمصي ، تابعي ثقة من الطبقة الثالثة ، أدرك سبعين صحابيا ، وروي عن بعضهم وكان من خيار عباد الله ، توفى سنة ثلاثة أو أربع بعد المائة . انظر . تذيب تاريخ دمشق ، ٨٩/٥- ٩١ . وتذيب التهذيب لابن حجر " ١١٨- ١٢٥ .

(٦) روى ذلك الخبر القاضي عياض في الشفا ، ٢١/٢ . وابن عساكر ، تذب تاريخ دمشق ، ٩٠/٥ ، عن عبدة بنت خالد بن معدان .

إلا من رحم الله. نعم. لقد غاب. لأن الفكر والقلب قد شغل بالتنافس في حطام الدنيا حتى قل تذكر الرسول ﷺ فضلا عن الشوق إلى لقائه. فنسأل الله أن يوقظنا من رقدة الغافلين وأن يرزقنا الشوق إلى لقائه ولقاء حبيبه ﷺ في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

رابعا: ومن مظاهر محبته ﷺ محبة قرابته وآل بيته وأزواجه وصحابته:

ويتمثل هذا في توقيرهم ومعرفة فضلهم وحفظ حرمتهم ومكانتهم وبغض من أبغضهم أو آذاهم.

وقد أوصى النبي ﷺ الأمة بآل بيته خيرا فقال:

« أذكركم الله في أهل بيتي »[1].

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: « قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيبا. بماء يدعى " خما " بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعد. ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله. واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: (وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي) فقال له حصين[2] ومن أهل بيته؟ يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته. ولكن أهل بيته. من حرم الصدقه بعده. قال ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم »[3]. وأخرج البخاري عن ابن عمر أن أبا بكر الصديق قال: (ارقبوا محمدا ﷺ في أهل بيته)[4].

ومن مظاهر حبه ﷺ حب أصحابه ومعرفة فضلهم وقدرهم والثناء عليهم بما هم أهله،

---

(١) مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٨) ، أحمد (٣٦٧/٤) ، الدارمي فضائل القرآن (٣٣١٦) .

(٢) حصين هو ابن سبرة راوي الحديث عن زيد بن أرقم .

(٣) صحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب فضائل علي١٨٧٣/٤ .

(٤) صحيح البخاري . كتاب فضائل الصحابة ، ٢٦/٥ .

والانتصار لهم ممن يؤذيهم وبغير الخير يذكرهم، فهم خير هذه الأمة بعد نبيها، ويكفى أنهم فازوا بشرف صحبة النبي ﷺ وأن الله قد خصهم بهذا الشرف دون غيرهم من العالمين فكانت لهم منزلة الصحبة التي لا تعادلها أي منزلة سواها في هذه الأمة. وقد أثنى الله عليهم في كتابه في مواضع كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[2] الآية.

وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[3].

فهذه الآيات وغيرها تتضمن الثناء على الصحابة وتذكرهم بالخير وسابق الفضل وعلو المنزلة.

كما تبين حال من أتى بعدهم من المؤمنين بأنهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم، وهذا هو شأن المؤمنين مع صحابة رسول ﷺ ومن أتى بعدهم

(١) سورة التوبة آية : ١٠٠ .
(٢) سورة الفتح آية : ١٨ .
(٣) سورة الحشر ، آية(٨ - ١٠) .

من صالح المؤمنين.

وقد أثنى الرسول ﷺ على أصحابه خيرا فقال كما في الصحيحين عن عمران بن حصين وغيره: ﴿ خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ﴾ [(١)] قال عمران: (فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا) الحديث [(٢)].

وقال فيما أخرجه الشيخان بسنديهما عن أبي سعيد الخدري: ﴿ لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ﴾ [(٣)] [(٤)].

ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم حيث قال: (إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئا فهو عند الله سيئ) [(٥)].

فصار من لوازم محبة رسول الله ﷺ محبة صحابته وقرابته وأهل بيته ومعرفة فضلهم والثناء عليهم بما هم أهله والدفاع عنهم وصون حرمتهم.

خامسا: ومن مظاهر محبة النبي ﷺ محبة سنته والداعين إليها:

والمتمسكين با وأهل العلم الذين لهم في هذه الأمة قدم صدق وهم السلف الصالح

---

(١) البخاري الشهادات (٢٥٠٩) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٥٣٣) ، الترمذي المناقب (٣٨٥٩) ، ابن ماجه الأحكام (٢٣٦٢) ، أحمد (٤٣٤/١) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي باب فضائل أصحاب النبي ٢/٥ -٣ . وصحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . فضل الصحابة . ١٩٦٤/٤ .

(٣) البـخاري المناقب (٣٤٧٠) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٥٤١) ، الترمذي المناقب (٣٨٦١) ، أبو داود السنة (٤٦٥٨) ، ابن ماجه المقدمة (١٦١) ، أحمد (١١/٣) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي باب فضائل قول النبي لو كنت متخذا خليلا ١٠/٥ . وصحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ، ١٩٦٧/٤ .

(٥) أخرجه أحمد في الحسد ، ٣٧٩/١١ . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، ٧٨/٣ - ٧٩ .

ومن أتى بعدهم على منهاجهم حتى يومنا هذا وتوليهم والدفاع عنهم ومعرفة قدرهم وحفظ حرمتهم والتأدب معهم والاعتذار لمن أخطأ منهم بأحسن المعاذير، وحمل أقوالهم وأحوالهم على أحسن المحامل والوجوه، لأن قصدهم إنما هو نصرة الدين، ولا يعني ذلك عدم تبيين الحق فيما اختلفوا فيه أو الصواب فيما أخطأوا فيه فذلك هو واجب العلماء إلى يوم القيامة.

وإنما المقصود هو إحسان الظن وإنصافهم والتأدب معهم، لأنم حملة الشريعة، ولولا أن الله هيأهم لهذا الأمر لما كان لنا عن هذا الدين خبر، فهم سلفنا الصالح فلنكن لهم خير خلف، لا أن نفيد من تراثهم ونجحد فضلهم أو نتلمس معايبهم ومطاعنهم دون النظر إلى فضائلهم، فهذا هو سبب ذهاب بركة العلم. ولن نرزق بركة العلم والدين إذا لم نعترف لهم بسابق الفضل والم لة وتسلم صدورنا لهم ونترحم عليهم ونسأل الله لهم المغفرة، وهذا هو شأن المؤمن في كل زمان.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١) .

قال شارح العقيدة الطحـاوية (٢)

(فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمن، كما نطق به القرآن خصوصا (العلماء) الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بم لة النجوم، يهتدي بم في ظلمات البر والبحر.

وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها، إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم، فإنم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما

(١) سورة الحشر آية : ١٠ .

(٢) هو علي بن أبي العز الحنفي ، (٧٣١ - ٧٩٢) فقيه ولي منصب قاضي القضاة بدمشق بالديار المصرية . من تصانيفه : التنبيه على مشكلات الهداية . في الفقه الحنفي . وشرح العقيدة الطحاوية وغيرها . انظر الدرر الكامنة لابن حجر ، ١٥٩/٣ - ١٦٠ ، والإعلام للزركلي ، ٣١٣/٤ .

مات من سنته، فبهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول ﷺ ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له في تركه من عذر [1] فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم) [2].

وكما أن من لوازم المحبة لرسول الله ﷺ محبة سنته والداعين إليها فإن من لوازمها بغض من أبغض السنة وأهلها والدعاة إليها من علماء هذه الأمة وسلفها، كما هو صنيع أهل البدع قديما وحديثا من الطعن في السنة وأهلها والوقيعة فيهم وتشويه صورتهم وتاريخهم.

فيجب على المسلم معرفة هؤلاء المبتدعة وبغضهم في الله، كما ينبغي التنبه للمارقين والمنافقين والمنهزمين من حملة الأقلام المسمومة من الكتاب والأدباء والمؤرخين، الذين راحوا يشوهون التاريخ ويقلبون الحقائق ويطعنون في خيار هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم من علماء هذه الأمة ويختلقون الأكاذيب أو ينقلونا على هوى وعدم بصيرة فيجب على أهل الاختصاص من المسلمين الكشف عن مخططاتهم وتعريف الأمة بهم والرد عليهم وتبيين الحقائق.

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [3].

تلك هي أهم مظاهر محبة الرسول ﷺ ولوازمها في صورتها العامة والتي يجب أن يتحلى بها المسلم في سلوكه وفعله وتظهر آثار ذلك عليه.

آثار المحبة على السلوك والأفعال:

---

(١) بين الشيخ بعد ذلك الأعذار التي اعتذر بها أهل العلم للأئمة . وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية القول في بيانها في رسالته القيمة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) فلتراجع ضمن مجموع الفتاوى ، ٢٣١/٢٠ وما بعدها .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ط ٦ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ ، ص ٥٥٥ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٤٢ .

المقصود بذه الآثار هو ما يظهر على سلوك المؤمن المحب لله ورسوله وفعله. لأن هذه الآثار هي التي تبين صدق هذه المحبة، وهي عنوان انتفاع المسلم بذه المحبة، وإذا كان الحب يحرك إرادة القلب نحو تحصيل المحبوبات ودفع المكروهات، فإن محبة المؤمن لله ورسوله تحمله على تحصيل ما يحبه الله من أعمال القلوب والجوارح، واجتناب ما يبغضه الله ورسوله من الأقوال والأفعال فلا بد لكل محبة في القلب من آثار تظهر على الجوارح. وآثار محبة الرسول ﷺ منها ما هو ظاهر يقع عليه الحكم وينطق فيه الوصف، ومنها ما هو باطن بم لة الثمرة الإيمانية.

فأما الظاهرة منها: فهي أن يكون المسلم محبا لرسول الله ﷺ مؤثرا حبه على كل محبوب وغال، وأن يكون مكثرا لذكره وتذكره والصلاة عليه متشوقا لرؤيته، سائلا الله اللحاق به والاجتماع به في الجنة، والورود على حوضه والشرب منه.

ومنها: أن يكون معظما لرسول الله ﷺ تعظيما شرعيا يليق به، موقرا له، ومتأدبا معه وحافظا لحرمته، ومعظما لدينه وسنته، متجافيا عن البدع والغلو وضروب المعاصي.

ومنها: أن يكون متبعا لرسول الله ﷺ في منشطه ومكرهه، في سره وعلانيته، باذلا كل ما في وسعه للوقوف على هديه واتباع سنته، متحريا في كل أقواله وأفعاله موافقة سنته، وأن يكون حريصا على الاقتداء به في الواجبات والمستحبات، في الفرائض والنوافل، مكثرا من ذكر الله والدار الآخرة مجاهدا في سبيل الله بكل ما يستطيع.

ومنها: أن يكون متأدبا بآدابه متأسيا بأخلاقه ﷺ من سعة الصدر ولين الجانب وسماحة الخلق، وبذل الندى وكف الأذى، وبسط الوجه، وأن يكون صبورا حليما، قريبا من البر، بعيدا عن الإثم، ودودا لإخوانه، منصفا لهم، ي ل الناس منازلهم، ويعرف لأهل الفضل فضلهم. ويمتليء قلبه حبا لإخوانه المسلمين، غير عياب ولا متفحش ولا ملتمس للبرآء المعايب زاهدا في حطام الدنيا وزخارفها، راغبا فيما عند الله من الأجر والمثوبة.

تلك هي بعض أخلاق النبي ﷺ والتي يجب على من أحبه أن يتأسى به فيها، لا أن يدعي حبه، وخلقه وسمته مباين لخلق الصالحين والأبرار. وإن حسن الخلق هو عنوان

استفادة المسلم من هذا الدين وهديه، وهو الركيزة الأساسية في النجاة من النار وسلوك مسلك الأبرار بعد تقوى الله عز وجل.

ومنها: أن يكون محبا لأصحابه وقرابته وآل بيته والصالحين والعلماء وكل ما يحبه الله ورسوله، وأن يبغض كل من أبغض الله ورسوله أو الصحابة أو آل بيت النبي ﷺ أو أبغض دينه وكره ظهوره من الكفرة والمنافقين.

ثمرات المحبة:

أما الآثار الباطنة فمن أعظمها أن يجد المؤمن في قلبه حلاوة الإيمان كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم بسنديها عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ﴾ (١) (٢).

فهذا الحديث يبين أثر محبة الله ورسوله في قلب المؤمن وهو أن يجد حلاوة الإيمان في قلبه إذا اتصف بهذه الصفات الثلاث.

يقول ابن تيميه:

(أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، لأن وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئا أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك... فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح بما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور. تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها.

(" تكميلها " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه سواهما كما تقدم.

---

(١) البخاري الإيمان (١٦) ، مسلم الإيمان (٤٣) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٨٨) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٣٣) ، أحمد (١١٤/٣) .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٤ .

" وتفريعها " أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

" ودفع ضدها " أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار). [(١)] وكلما ازداد المؤمن محبة لله ورسوله كلما ازداد ذوقه لحلاوة الإيمان فإن للإيمان من الحلاوة في القلب واللذة والبهجة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه إلا لمن ذاقه، والناس متفاوتون في ذوق الإيمان واللذة به تفاوتا عظيما لا يعلمه إلا الله.

والمقصود أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ورسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة [(٢)]

وأما عاقبة هذه المحبة فهي أن يكون المرء مع من أحب كما أخبر بذلك نبينا ﷺ فمن أحب رسول الله ﷺ كان معه في الجنة بإذن الله، ولو لم يكن لمحبة النبي ﷺ ثواب سوى مرافقته في الجنة والتنعم برؤيته لكفى.

أخرج البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه ﴿ أن رجلا سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، قال أنت مع من أحببت ﴾ [(٣)]. [(٤)]

وفي رواية: ﴿ قال: وماذا أعددت لها كما قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ فقال: أنت مع من أحببت ﴾ [(٥)].

قال أنس فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ أنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا

---

(١) مجموع الفتاوى ، ١٠/٢٠٥- ٢٠٦ .
(٢) انظر : مجموع الفتاوى ، ١٠/٦٤٨ - ٦٥٠ .
(٣) البخاري الأدب (٥٨١٩) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٣٩) ، الترمذي الزهد (٢٣٨٥) ، أبو داود الأدب (٥١٢٧) ، أحمد (٣/٢٥٥) .
(٤) صحيح البخاري . كتاب الأدب ، باب علامة حب الله٨/٤٩ .
(٥) البخاري المناقب (٣٤٨٥) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٣٩) ، الترمذي الزهد (٢٣٨٥) ، أبو داود الأدب (٥١٢٧) ، أحمد (٣/٢٨٣) .

أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم) [(١)] .

وأخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ﴿ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوما ولم يلحق بم؟ فقال رسول الله ﷺ المرء مع من أحب ﴾ [(٢)] [(٣)] .

فهذه الأحاديث تبين أن المرء مع من أحب طالما كان هذا الحب سببه محبة الأعمال الصالحة وأهلها. فالمحبة الصحيحة تقتضي مشاركتهم في أصل عملهم وهو فعل الواجبات وترك المنكرات، وإن لم يبلغ درجتهم في التقرب إلى الله عز وجل وعلى ذلك دل قول السائل: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ويقصد بذلك ما زاد على الواجبات من النوافل التي تقبل الكثرة والزيادة، أو أن حظه منها قليل جدا بالمقارنة مع فعل النبي ﷺ وأكابر أصحابه ورضي الله عنهم [(٤)]

ويؤكد هذا قول أنس رضي الله عنه فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

قال ابن حجر:

(.. ودل الخبر على أن اتباع الرسول ﷺ وإن كان الأصل أنه لا يحصل إلا بامتثال جميع ما أمـر به، أنه يحصل مـن طريق التفضل باعتقاد ذلك وإن لم يحصل استيفاء العمل بمقتضاه بل محبة من يعمل ذلك كافية في حصول أصل النجاة والكون مع العاملين

(١) صحيح البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب عمر بن الخطاب ١٤/٥- ١٥ . وأخرجه مسلم في البر والصلة . باب المرء مع من أحب ، ٢٠٣٢/٤ .

(٢) البخاري الأدب (٥٨١٧) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٤١) ، أحمد (٤٠٥/٤) .

(٣) صحيح البخاري . كتاب الأدب ، باب علامة حب الله٤٨/٨- ٤٩ . ومسلم . كتاب البر والصلة . باب المرء مع من أحب ، ٢٠٣٢/٤ .

(٤) ويدل على هذا إحدى روايات مسلم وفيها : ما أعددت لها من كثير أحمد عليه نفسي) . صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٢ .

بذلك، لأن محبتهم إنما هي لأجل طاعتهم، والمحبة من أعمال القلوب، فأثاب الله محبهم على معتقده، إذ النية هي الأصل والعمل تابع لها، وليس من لازم المحبة الاستواء في الدرجات) [١] .

نخلص من هذا إلى أن من أحب رسول الله ﷺ حبا صحيحا يصدقه الاتباع كان معه في الجنة بإذن الله فضلا وتكرما منه سبحانه، أما مجرد ادعاء الحب بدون تحقيق الاتباع لرسول الله ﷺ فلن يصل صاحبه إلى هذه المعية ما لم يحقق الاتباع.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى:

(ابن آدم لا تغتر بقول من يقول: المرء مع من أحب، أنه من أحب قوما اتبع آثارهم، ولن تلحق بالأبرار حتى تتبع آثارهم، وتأخذ بديهم، وتقتدي بسنتهم وتصبح وتمسي وأنت على منهجهم، حريصا على أن تكون منهم، فتسلك سبيلهم، وتأخذ طريقهم وإن كنت مقصرا في العمل، فإنما ملاك الأمر أن تكون على استقامة، أما رأيت اليهود، والنصارى، وأهل الأهواء المردية يحبون أنبياءهم وليسوا معهم، لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقهم فصار موردهم النار، نعوذ بالله من ذلك). [٢]

(١) فتح الباري ، ١٠/٥٥٨ .

(٢) استنشاق نسيم الأنس ، لابن رجب ، ص٨٧ .

الفصل الثاني

الاتباع

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول - مفهوم الاتباع.

المبحث الثاني - وجوب طاعة الرسول ﷺ.

المبحث الثالث - مظاهر الاتباع.

المبحث الأول

مفهوم الاتبـاع

الاتباع في اللغة: مصدر اتبع الشيء وتبعه إذا سار في أثره.

جاء في معجم مقاييس اللغة:

(" تبع " التـاء والباء والعين أصـل واحد لا يشذ عنه مـن الباب شيء، وهـو التلو والقفو. يقال تبعت فلانا إذا تلوته واتبعته. وأتبعته إذا لحقته والأصل واحد غير أنهم فرقوا بين القفو واللحوق فغيروا البناء أدنى تغيير، قال تعالـى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [1] و ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [2] فهذا معناه على هذه القراءة اللحوق ومن أهل العربية من يجعل المعنى فيهما واحدا)..

والتبع.... هو الظل، وهو تابع أبدا للشخص،... والتبيع ولد البقرة إذا تبع أمه.. والتبع قوائم الدابة وسميت بذلك لأنه يتبع بعضها بعضا. والتبع النصير، لأنه يتبعه نصره. والتبيع الذي لك عليه مال، فأنت تتبعه.

وفي الحديث: « مطل الغنى ظلم، وإذا اتبع أحدكم على ملئ فليتبع » [3] [4] يقول: إذا أحيل عليه فليحتل [5] .

جاء في لسان العرب:

(... وتبعت الشيء وأتبعته ردفته وأردفته ومنه قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ

---

(١) سورة الكهف آية : ٨٥ .

(٢) سورة الكهف آية : ٨٩ .

(٣) البخاري الحوالات (٢١٦٦) مسلم المساقاة (١٥٦٤) الترمذي البيوع (١٣٠٨) ، النسائي البيوع (٤٦٩١) ، أبو داود البيوع (٣٣٤٥) ، ابن ماجه الأحكام (٢٤٠٣) ، أحمد (٢/٣٨٠) ، مالك البيوع (١٣٧٩) ، الدارمي البيوع (٢٥٨٦) .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحوالات ، باب في الحوالة ، ١٢٣/٣ .

(٥) معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس تحقيق هارون ط٢ ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٦٩هـ ٣٦٢/١ - ٣٦٣ .

﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [1] قال أبو عبيد. أتبعت القوم مثل أفعلت إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم، قال.. واتبعتهم مثل: افتعلت إذا مروا بك فمضيت،.... واتبع فلان فلانا إذا اتبعه يريد به شرا. كما اتبع الشيطان الذي انسلخ من آيات الله فكان من الغاوين، وكما أتبع فرعون موسى....

.... وتبع القرآن: ائتم به وعمل بما فيه.

.... وتابع بين الأمور متابعة: واتر ووالي.

.... والتبعة والتباعة: ما فيه إثم يتبع به. وتابع عمله وكلامه: أتقنه وأحكمه). [2]

وعلى ذلك فالكلمة تدور حول معاني اللحاق والاقتفاء والاقتداء. ومما يقترب من هذا المعنى التأسي والأسوة. يقال تأسى به إذا اتبع فعله واقتدى به، وائتس به أي اقتد به وكن مثله [3] قال الراغب في المفردات:

(الأسوة والأسوة كالقدوة والقدوة. وهي الحالة التي يكون الإنسان فيها في اتباع غيره إن حسنا أو قبيحا، وإن سارا وإن ضارا ولهذا قال تعال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [4] فوصفها بالحسنة). [5] فاتباع الرسول ﷺ هو الاقتداء به واقتفاء آثاره والتأسي به. وقد بحث الأصوليون في باب أفعاله ﷺ عن هذه المعاني وذلك لأننا متعبدون باتباع الرسول ﷺ والتأسي به في أفعاله. لأجل هذا نراهم يتحدثون عن معاني الاتباع والمتابعة والتأسي والموافقة والمخالفة.

وسأتعرض لبيان هذه المعاني حتى يتضح لنا مفهوم الاتباع والمقصود به.

---

(١) سورة الصافات آية : ١٠ .

(٢) لسان العرب ، (تبع) . ، ٢٧/٨ - ٣٢ .

(٣) انظر : لسان العرب مادة (أسا) . ، ٣٤/٤ - ٣٦ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

(٥) المفردات ، ص١٨ .

قال أبو الحسين البصري: [(١)]

(أما التأسي بالنبي ﷺ فقد يكون في فعله وفي تركه أما التأسي به في الفعل، فهو أن نفعل صورة ما فعل على الوجه الذي فعل لأجل أنه فعل. والتأسي كما في الترك. هو أن نترك مثل ما ترك على الوجه الذي ترك، لأجل أنه ترك. وإنما شرطنا أن تكون صورة الفعل واحدة، لأنه ﷺ لو صام وصلينا لم نكن متأسين به، وأما الوجه الذي وقع عليه الفعل، فهو الأغراض والنيات. فكل ما عرفناه أنه غرض في الفعل اعتبرناه، ويدخل في ذلك نية الوجوب والنفل، ألا ترى أنه لو صام واجبا فتطوعنا بالصوم لم نكن متأسين به، وكذلك لو تطوع بالصوم فافترضنا به.

وإنما شرطنا أن نفعل الفعل (لأجل أنه فعله). [(٢)] لأنه ﷺ لو صلى، فصلى مثل صلاته رجلان من أمته لأجل أنه صلى، لوصف كل واحد منهما بأنه متأس به ﷺ ولا يوصف كل واحد منهما بأنه متأس بالآخر، وإنما قلنا إن التأسي يكون في الترك، لأن النبي ﷺ لو ترك الصلاة عند طلوع الشمس فتركناها في هذا الوقت لأجل تركه كنا متأسين به.

.... فأما اتباع النبي ﷺ فقد يكون في القول، وقد يكون في الفعل، وقد يكون في الترك، فالاتباع في القول هو المصير إلى مقتضاه من وجوب، أو ندب، أو حظر لأجله، والاتباع في الفعل أو في الترك هو إيقاع مثله في صورته على وجهه، لأجل أنه أوقعه.

.... وإنما شرطنا في الاتباع ما شرطنا في التأسي، لأنه ﷺ لو صام فصلينا، أو صام واجبا فتنفلنا بالصوم، أو صمنا لا لأنه صام، لم نكن متبعين له في هذه الأحوال كلها). [(٣)]

---

(١) أبو الحسين محمد بن علي الطيب البصري (. . . - ٤٣٦ هـ) . . أصولي متكلم . كان من أئمة المعتزلة . له تصانيف عديدة منها : غرر الأدلة . شرح الأصول الخمسة . كتاب في الإمامة والمعتمد في أصول الفقه . انظر : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠٠/٣ ، الفتح المبين في طبقات الأصوليين . الشيخ عبد الله مصطفى المراغي ، ط ٢ ، طبعة محمد أمين دمج ، بيروت ، ٢٣٧/١ .

(٢) ما بين القوسين ليس في الأصل المحقق ولكن في نسخة أخرى أثبتها المحقق في الحاشية فرأيت إثباتها في الأصل تحقيقا للفائدة .

(٣) المعتمد : أبو الحسن البصري ، تحقيق محمد حميد وآخرون ، نشر المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية . دمشق ، ١٣٨٤هـ ، ٣٧٢/١ - ٣٧٤ .

وعلى هذا يكون الاتباع في الفعل هو التأسي بعينه، أما الاتباع في القول فهو امتثاله على الوجه الذي اقتضاه ذلك القول من وجوب أو ندب أو غير ذلك.

وأما الموافقة- فهي كما يرى الآمدي [1] (مشاركة أحد الشخصين للآخر في صورة قول أو فعل أو ترك أو اعتقاد أو غير ذلك. وسواء كان ذلك من أجل ذلك الآخر، أو لا من أجله) [2]

ومعنى هذا أنه لا يشترط في الموافقة أن يكون فعل أحد الشخصين من أجل فعل الآخر، لأن الموافقة المقصودة هنا هي ما كانت بمعنى المصادفة والمشاركة. أما الموافقة المقصودة شرعا فهي الاتباع بعينه. وأما المخالفة فقد تكون في القول وقد تكون في الفعل أو الترك، فالمخالفة في القول: ترك امتثال ما اقتضاه القول من أمر أو نهي، والمخالفة في الفعل: هي العدول عن إيقاع الفعل مع كونه واجبا، فأما إذا كان الفعل واجبا فلا يسمى تاركه مخالفا. والمخالفة في الترك هي أن نفعل فعلا على وجه العبادة مما تركه الرسول ﷺ لعدم مشروعيته [3]

وبعد بيان هذه المصطلحات نريد أن نعرف مدى علاقة الزمان والمكان بالتأسي والمتابعة. يقول الآمدي:

(... فلو وقع فعله في مكان وزمان مخصوص فلا مدخل له في المتابعة والتأسي وسواء تكرر أو لم يتكرر، إلا أن يدل الدليل على اختصاص العبادة به كاختصاص الحج بعرفات، واختصاص الصلوات بأوقاتها، وصوم رمضان [4]

---

(١) هو أبو الحسن سيف الدين علي بن محمد سالم التغلبي الآمدي (٥٥١- ٦٣١هـ) . أصولي متكلم من تصانيفه . الإحكام في أصول الأحكام . ومختصره منتهى السول وأبكار الأفكار في علم الكلام . انظر : طبقات الشافعية للسبكي ، ١٢٩/٥ . ولسان الميزان لابن حجر ، ١٣٤/٣ .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام . أبو الحسن الآمدي ، تحقيق الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٢هـ ١٧٢/١ .

(٣) انظر المعتمد ، ٣٧٥/١ .

(٤) الأحكام ، ١٧٢/١ .

وتأتي أهمية هذا الأمر لأن ارتباط الزمان أو المكان له أهمية في تحديد صحة الفعل من خطئه، وكون الفعل الواقع في الزمان أو المكان سنة أو بدعة وكون فاعله متبعا أو مبتدعا.

فإذا علمنا تخصيص الشارع أزمنة معينة أو أمكنة بنوع من العبادة وقصدنا نحن تخصيص هذه الأزمنة والأمكنة بذا النوع من العبادة كنا متبعين. أما إذا قصدنا زمانا أو مكانا بنوع من العبادة لم يخصصه به الشارع فسنكون حينئذ مبتدعين " يقول ابن تيميه موضحا أهمية هذا الأمر:

(وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل، فإذا فعل فعلا على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان خصصناه بذلك. كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة، وأن يستلم الحجر الأسود، وأن يصلي خلف المقام، وكان يتحرى الصلاة خلف أسطوانة مسجد المدينة، وقصد الصعود على الصفا والمروة، والدعاء والذكر هناك، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما.

وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده- مثل أن ي ل بمكان ويصلى فيه لكونه نزله لا قصدا لتخصيصه بالصلاة وال ول فيه- فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو ال ول لم نكن متبعين، بل هذا هو من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب كما ثبت بالإسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعرور بن سويد، قال: كان عمر بن الخطاب في سفر فصلى الغداة ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون صلى فيه النبي ﷺ فقال عمر:

" إنما هلك أهل الكتاب أنم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعا. فمن عرضت له الصلاة فليصل وإلا فليمض " (١)

فلما كان النبي ﷺ لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة، بل تخصيص

---

(١) هذا الأثر عزاه ابن تيمية إلى سنن سعيد بن منصور في اقتفاء الصراط المستقيم ، ٧٤٤/٢ ، وقد صححه هاهنا في القاعدة الجليلة .

ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها، ونهى عن التشبه بهم في ذلك، ففاعل ذلك متشبه بالنبي ﷺ في الصورة ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب. وهذا هو الأصل فإن المتابعة في السنة (١) أبلغ من المتابعة في صورة الفعل) (٢)

وعلى ذلك يتبين لنا أن اتباع الرسول ﷺ هو الاقتداء به في أقواله وأفعاله على الوجه الذي جاء به من وجوب أو ندب مع توفر القصد والنية في متابعته والتأسي به. ولما كنا في باب الاتباع متعبدين بأفعال النبي ﷺ لأنها مناط الاتباع وكانت أفعاله ﷺ متفاوتة الرتبة وليست على درجة واحدة من الوجوب أو الندب أو الإباحة. فهي تشمل كل هذا، كما أن من أفعاله ما كان عاديا ومنها ما قصد به التشريع إلى غير ذلك مما فصلته كتب الأصول.

لما كان الأمر كذلك أحببت أن أشير إشارة سريعة إلى أفعاله .

أفعال النبي ﷺ (٣):

تنقسم أفعال النبي ﷺ عند الأصوليين إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

أولا: الأفعال الجبلية (العادية) كالقيام والقعود والأكل والشرب وغيرها فهذه الأفعال محمولة على الإباحة بالنسبة إليه ﷺ وإلى أمته، ولا يجب علينا التأسي والاقتداء به في هذا النوع من الأفعال، وهذا هو مذهب الجمهور (٤).

إلا إن ورد في السنة ما يرشد إلى بعض الهيئات بالنسبة لهذه الأفعال الجبلية فينتقل

---

(١) لعل الصواب : النية .

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ . ص ١٠٥- ١٠٦ .

(٣) انظر في بيان ذلك : الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ، ١٧٣/١ ، وما بعدها . والعدة في أصول الفقه ، للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، تحقيق د . أحمد بن علي المباركي ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ، ٧٣٤/٣ وما بعدها . وإرشاد الفحول ، لمحمد بن المباركي ، ط ١ ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ، ١٣٥٦ هـ ، ص ٣٥ وما بعدها . وأفعال الرسول ودلالتها على الأحكام ، د . محمد العروسي عبد القادر ، دار المجتمع ، جدة ، ١٤٠٤هـ .

(٤) انظر : إرشاد الفحول ، ص٣٥ .

حكمها من الإباحة إلى الوجوب أو الندب على ما هو مقرر عند الفقهاء. مثال ذلك: الأكل باليمين، والشرب قاعدا، والنوم على الجانب الأيمن.

وقال قوم: إن التأسي بالنبي ﷺ في هذا النوع مندوب. وقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يتتبع مثل هذا النوع من الأفعال ويحرص على متابعة الرسول ﷺ في كل ما صدر عنه من مثل ذلك وإن كان قد فعله الرسول ﷺ اتفاقا ولم يقصده.

وجمهور الصحابة كانوا على خلاف ذلك، كما قرره شيخ الإسلام ابن تيميه مبينا أن الأصل في المتابعة هو أن نفعل ما فعله الرسول ﷺ قاصدين لفعله على الوجه الذي فعله من إباحة أو وجوب أو ندب، ما لم يكن داخلا في باب الخصائص انظر [١] ثانيا: الأفعال التي علم أنا من خصائصـه ﷺ

لقد ذكر الأصوليون في باب خصائصه ﷺ أمورا من المباحات والواجبات والمحرمات. بعضها متفق عليه والبعض الآخر متنازع فيه. فمن المباحات في حقه ﷺ الزيادة على أربع نسوة، والنكاح بلا مهر كنكاح الموهوبة، ومن الواجبات وجوب التهجد وقيام الليل، ومن المحرمات الأكل من الصدقة، وأكل ذي الرائحة الكريهة كالثوم والبصل. فهذه الخصائص خاصة بالنبي ﷺ لا يشاركه فيها غيره ولا يقتدى به فيها.

قال الشوكاني [٢] :

(والحق أنه لا يقتدى به ﷺ فيما صرح لنا بأنه خاص به كائنا ما كان إلا بشرع يخصنا [٣]، فإذا قال مثلا: هذا واجب علي مندوب لكم. كان فعلنا لذلك الفعل لكونه أرشدنا إلى كونه مندوبا لنا لا لكونه واجبا عليه، وإن قال: هذا مباح لي أو حلال ولم يزد على ذلك، لم يكن لنا أن نقول هو مباح لنا أو حلال لنا... وأما لو قال: هذا حرام علي

---

(١) القاعدة الجليلة ، ص ١٠٥- ١٠٦ .

(٢) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١١٧٣- ١٢٥٥ هـ) . مفسر . محدث أصولي فقيه ، مجتهد ، كان من كبار علماء اليمن في عصره ، انظر : الأعلام ، ٢٩٨/٦ ، ومعجم المؤلفين ، ٥٣/١١- ٥٤ .

(٣) يقصد الشوكاني من وراء كلامه هذا الرد على من ذهب إلى أن التأسي بالنبي في خصائصه مستحب في الواجبات والمحرمات دون المباحات .

وحدي ولم يقل حلال لكم فلا بأس بالتنزه عن فعل ذلك الشيء، أما لو قال: حرام علي حلال لكم فلا يشرع التنزه عن فعل ذلك الشيء. فليس في ترك الحلال ورع) [1]. ثالثا: الأفعال المجردة عما سبق وإنما المقصود بها التشريع، فهذه نطالب بالتأسي فيها، إلا أن صفتها الشرعية تختلف بحسب الوجوب أو الندب أو الإباحة- وتتنوع هذه الأفعال إلى عدة أنواع بحسب القرائن:

(أ) فإما أن تكون بيانا لمجمل ورد في القرآن أو تقييدا لمطلق أو تخصيصا لعام أو امتثالا لأمر فحكم هذه الأفعال هو حكم ما بينته من وجوب أو ندب وإباحة، ويعرف ذلك إما بصريح القول، مثل قوله ﷺ في الصلاة: ﴿ صلوا كما رأيتموني أصلي ﴾ [2] [3] وقوله في الحج: ﴿ خذوا عني مناسككم ﴾ [4] [5]. وإما بقرائن الأحوال، كقيامه ﷺ بفعل صالح للبيان عند الحاجة إلى ذلك، كقطعه يد السارق من الرسغ، فإنه بيان لقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [6] ففي هذه الأحوال يكون البيان تابعا للمبين في الحكم من حيث الوجوب أو الندب أو الإباحة.

(ب) فإن لم يكن الفعل بيانا لأمر بل ورد ابتداء منه ﷺ فإما أن تعرف صفته الشرعية أو لا. فإن عرفت صفته من وجوب أو ندب أو إباحة فإن أمته في ذلك مثله وهذا هو الرأي الحق كما قال الشوكاني [7]. ودليل ذلك القرآن وفعل الصحابة رضوان الله عليهم.

---

(١) إرشاد الفحول ، ٣٥ - ٣٦ .

(٢) البخاري الأذان (٦٠٥) ، الدارمي الصلاة (١٢٥٣) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان . باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة ١٦٢/١- ١٦٣ .

(٤) النسائي مناسك الحج (٣٠٦٢) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الحج . باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا ٤٩٣/٢ ، والنسائي . كتاب المناسك . باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم ٢٦٩/٥- ٢٧٠ .

(٦) سورة المائدة آية : ٣٨ .

(٧) انظر : إرشاد الفحول ، ص٢٦ .

أما القرآن فمثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ (١). وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٢). وقوله تعالـى: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٤) (٥) وأما الصحابة فقد كانوا يرجعون إلى فعله ﷺ احتجاجا واقتداء به في مواضع كثيرة، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ في تقبيل الحجر الأسود، وقال: ﴿ لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ﴾ (٦) (٧). فإن جهلت صفة الفعل الشرعية فإما أن يظهر قصد القربة أولا فإن ظهر فيه قصد القربة بأن كان مما يتقرب به إلى الله ﷻ كصلاة ركعتين من غير مواظبة عليهما، فيدل على الندب لأنه أقل ما يفيده جانب الرجحان وقال قوم بأنه واجب (٨). وإن لم يظهر فيه قصد القربة بل كان مجردا مطلقا فإنه يدل على الندب، لأن الفعل وإن لم يظهر فيه قصد القربة فلا بد أن يكون لقربة. وأقل ما يتقرب به المندوب، وقال قوم بأنه يدل على الإباحة، وقال آخرون بالتوقف حتى يقو دليل على الوجوب أو الندب (٩).

---

(١) سورة الحشر ، آية (٧) .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٣) سورة النور آية : ٦٣ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

(٥) سورة الأحزاب ، آية (٢١) .

(٦) البخاري الحج (١٥٢٨) ، مسلم الحج (١٢٧٠) ، الترمذي الحج (٨٦٠) ، النسائي مناسك الحج (٢٩٣٧) ، أبو داود المناسك (١٨٧٣) ، ابن ماجه المناسك (٢٩٤٣) ، أحمد (١/١٧) ، مالك الحج (٨٢٤) ، الدارمي المناسك (١٨٦٤) .

(٧) أخرجه البخاري ، كتاب الحج ، باب ما ذكر في الحجر الأسود ، ٢/١٨٣ . ومسلم . كتاب الحج ، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ، ٢/٢٩٥ .

(٨) انظر : إرشاد الفحول ، ص ٣٨ .

(٩) انظر : المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

المبحث الثاني

وجوب طاعة الرسول ﷺ واتباعه

لقد اصطفى الله محمدا ﷺ بنبوته ورسالته وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وأمره باتباع ما أوحي إليه وتبليغ ما أنزل إليه، فقام صلوات الله وسلامه عليه بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة.

وقد شهد الله له بالصدق والعصمة واستمساكه بما أمره به كما شهد له بالهدى في نفسه، وأنه هاد لمن اتبعه، فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١) وهذه م لة رسول الله ﷺ من الدين فهو المبلغ عن الله دينه ووحيه وهو الآمر بإذن مولاه والهادي إلى الصراط المستقيم. فمن آمن به فبالله آمن، ومن أطاعه فقد أطاع الله، ومن قبل عنه فعن الله قبل.

لأجل هذا أمر الله العباد بطاعته وأوجب عليهم اتباع أمره وتصديق خبره، وحذرهم من مخالفته وعصيانه، وجعل طاعته فرضا لازما لكل من آمن بالله، ولم يجعل لمؤمن اختيارا في أي أمر بعد قضاء الله ورسوله فيه. وقد استفاضت آيات الكتاب العزيز في بيان أهمية هذا الأمر والتأكيد على وجوبه وفرضيته، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) سورة الشورى ، آيات (٥٢-٥٣) .
(٢) سورة الأنفال آية : ٢٠ .
(٣) سورة محمد آية : ٣٣ .

﴿ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [2] فبين الله بعد الأمر بطاعة رسوله أن طاعته سبب للهدى والرحمة، كما بين سبحانه أنه لا سعادة للعباد ولا نجاة لهم في المعاد إلا باتباع الرسول ﷺ وطاعته، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [3] وقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [4] وقد أوجب الله على المؤمنين رد قضاياهم وما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله وجعل سبحانه ذلك من مقتضيات الإيمان ولوازمه، وأخبرهم أن ذلك خير لهم في العاقبة والمال، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [5] قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: (... ولهذا قال تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ [6] أي اتبعوا كتابه، ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [7] أي خذوا بسنته، ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [8] أي فيما أمروا به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٣٢ .
(٢) سورة النور آية : ٥٤ .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٧١ .
(٤) سورة النساء آية : ١٣ .
(٥) سورة النساء ، آية (٥٩) .
(٦) سورة النساء آية : ٥٩ .
(٧) سورة النساء آية : ٥٩ .
(٨) سورة النساء آية : ٥٩ .

.... وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [1] قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [2] فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق. وماذا بعد الحق إلا الضلال. ولهذا قال تعالى: ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [3] فدل على أن من لم يتحاكم في محل ال اع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر. وقوله ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ [4] أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل ال اع خير ﴿ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩ ﴾ [5] أي وأحسن عاقبة ومآلا [6] .

وكما أوجب الله على المؤمنين الرد إلى كتابه وسنة رسوله فقد أوجب عليهم تحكيم نبيه ﷺ والتحاكم إليه والتسليم لحكمه وجعل ذلك من مستلزمات الإيمان فقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥ ﴾ [7] قال ابن القيم:

(... أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه ولم يكتف منهم أيضا بذلك حتى يسلموا

---

(١) سورة النساء آية : ٥٩ .
(٢) سورة الشورى آية : ١٠ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٩ .
(٤) سورة النساء آية : ٥٩ .
(٥) سورة النساء آية : ٥٩ .
(٦) تفسير ابن كثير ، ٥١٨/١ .
(٧) سورة النساء آية : ٦٥ .

تسليما، وينقادوا انقيادا، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد ذلك فقد ضل ضلالا مبينا) (٢)

وقد أمرنا الله بأن نتبع رسوله ﷺ ونمتثل أمره ونهيه في كل ما جاءنا به، فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (٣) قال ابن كثير:

(أي: " مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهي عن شر ") (٤) وهذا الأمر من الله عام شامل لكل ما جاءنا به الرسول ﷺ سواء أكان منصوبا بعينه في القرآن أو لا؟ ذلك لأن النصوص الواردة في هذا الشأن كلها توجب اتباع الرسول ﷺ وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه في القرآن، ولأن الله لم يفرق بين طاعته سبحانه وبين طاعة نبيه ﷺ بل جعل طاعة نبيه طاعة له سبحانه فقال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (٥) (٦) وغالب الآيات قرنت بين طاعته سبحانه وطاعة نبيه، ولأن ما سنه الرسول ﷺ مما ليس فيه نص كتاب فإنما سنه بأمر الله ووحيه.

قال الإمام الشافعي:

(وما سن رسول الله فيما ليس لله فيه حكم- فبحكم الله سنه، وكذلك أخبرنا الله في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ (٧) وقد سن رسول الله مع

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٦ .
(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ٥١/١ .
(٣) سورة الحشر ، آية (٧) .
(٤) تفسير ابن كثير ، ٣٣٦/٤ .
(٥) سورة النساء آية : ٨٠ .
(٦) سورة النساء ، آية (٨٠) .
(٧) سورة الشورى ، آية (٥٢-٥٣) .

كتاب الله، وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب. وكل ما سن فقد ألزمنا الله اتباعه، وجعل في اتباعه طاعته، وفي العنود [1] عن اتباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقا، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجا) [2].

وقد جاءت الأحاديث الكثرة عن النبي ﷺ في الدلالة على وجوب طاعته واتباع سنته منها ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿ إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبت طائفة منم فأصبحوا مكانم فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق ﴾ [3] [4]

قال الطيبي [5] فيما نقله عنه الحافظ بن حجر:

(شبه ﷺ نفسه بالرجل، وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح، وشبه من أطاعه من أمته ومن عصاه، بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدقه) [6] .

وأخرج البـخاري أيضا بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ﴿ كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد

---

(١) العنود : العتو والطغيان ، أو الميل والانحراف . انظر لسان العرب ٣٠٧/٣ وما بعدها .

(٢) الرسالة . للإمام محمد بن إدريس الشافعي . تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط ١ ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ، ١٣٥٨ هـ ، ص ٨٨- ٨٩ .

(٣) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٥٤) ، مسلم الفضائل (٢٢٨٣) .

(٤) البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء سنن رسول الله ١١٥/٩ ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب شفقته على أمته ٧٨٨/١٤- ١٧٨٩ .

(٥) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (. . . - ٧٤٣ هـ) ، مفسر محدث ، كان شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة . من تصانيفه شرح المشكاة وشرح الكشاف للزمخشري ، شرحه شرحا حسنا ، ورد عليه فيما خالف فيه مذهب أهل السنة والجماعة . انظر : الدرر الكامنة لابن حجر ، ١٥٦/٢- ١٥٧ .

(٦) فتح الباري ، ٣١٧/١١ .

أبى ﴾ [1] [2] . والمراد بالإباء هنا هو الامتناع عن التزام سنة رسول الله ﷺ وعصيان أمره.

والموصوف بالإباء إن كان كافرا فلا يدخل الجنة أبدا وإن كان مسلما منع من دخولها مع أول داخل إلا من شاء الله تعالى [3] وأخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني ﴾ [4] [5] .

فهذا الحديث يؤكد أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله كما قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [6] وفي الحديث وجوب طاعة ولاة الأمر - وهم العلماء والأمراء - ما لم يأمروا بمعصية فإن أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

وأخرج الترمذي وأبو داود وأحمد - واللفظ له - عن العرباض بن سارية قال: ﴿ صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا، فقال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة

---

(١) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٥١) ، أحمد (٣٦١/٢) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ١١٤/٩ .
(٣) انظر : فتح الباري ، ٢٥٤/١٣ .
(٤) البخاري الأحكام (٦٧١٨) مسلم الإمارة (١٨٣٥) ، النسائي البيعة (٤١٩٣) ، ابن ماجه الجهاد (٢٨٥٩) ، أحمد (٢٧٠/٢) .
(٥) صحيح البخاري ، كتاب الأحكام ، باب قوله تعالى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ٧٧/٩ .
(٦) سورة النساء ، آية (٨٠) .

ضلالة ﴾ [1] [2] ففي هذا الحديث يوصي الرسول ﷺ أصحابه ومن يأتي بعدهم بالتمسك بالسنة ولزومها والاعتصام با.

قال ابن رجـب:

(وهذا إخبار منه ﷺ بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه، وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، وهذا موافق لما روي عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة وأنا كلها في النار إلا واحدة وهي ما كان عليه وأصحابه [3] ولذلك في هذا الحديث أمر عند الافتراق والاختلاف بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، والسنة هي الطريق المسلوك، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة.

.... والخلفاء الراشدون الذين أمرنا بالاقتداء بم هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم) [4] وكما أمر رسول الله ﷺ المسلمين بطاعته، حذرهم من الخروج عن سنته ورهبهم من تركها والإعراض عنها، فقال فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ومسلم عن أنس رضي الله عنهما: ﴿ فمن - من - رغب عن سنتي فليس مني ﴾ [5] [6]

---

(١) أبو داود السنة (٤٦٠٧) ، الدارمي المقدمة (٩٥) .

(٢) المسند ١٢٧/٤ ، وأبو داود . في السنة ، باب لزوم السنة ١٣/٥- ١٥ ، والترمذي في الحلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة ، ١٤٩/٤- ١٥٥ ، وقال : حسن صحيح ، وقال الحافظ أبو نعيم ، هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين . انظر - جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ، طبع دار الفكر ، بيروت ، ص ٢٤٣ .

(٣) يشير إلى حديث افتراق الأمة ولفظه " ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة ، أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب شرح السنة ٥/٥- ٦ ، وأحمد في المسند ١٠٥/٤ ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ١٢٨/١ . انظر : السلسلة الصحيحة للألباني ، ٣٥٨/١ وما بعدها .

(٤) جامع العلوم والحكم ، ص ٢٤٨- ٢٤٩ .

(٥) البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٢٨٥/٣) .

(٦) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ، ٢/٧ .

وقال فيما أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ﴾ [1] [2] وقد نبه الرسول ﷺ على من يحاول رد السنة ورفضها بدعوى الاكتفاء بالقرآن. وذلك فيما أخرجه أحمد وأبو داود - واللفظ له - والترمذي - وصححه وحسنه - عن أبي رافع عن النبي ﷺ قال: ﴿ لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه ﴾ [3] [4]

وأخرج أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه، فله أن يعقبهم بمثل قراه ﴾ [5] [6]

قال الخطابي:

" هذا الحديث يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه ﷺ أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أوتي من الظاهر المتلو.

والثاني: أن معناه أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى، وأوتي مثله من البيان، أي أذن له أن

---

(١) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (٢٥٦/٦) .

(٢) سبق تخريجه . ص٧٠ .

(٣) الترمذي العلم (٢٦٦٣) ، أبو داود السنة (٤٦٠٥) ، ابن ماجه المقدمة (١٣) ، أحمد (٨/٦) .

(٤) سنن أبي داود . كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، ١٢/٥ . والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما نهى أن يقال عند حيث النبي ١٤٤/٤ ، والمسند ٨/٦ .

(٥) الترمذي العلم (٢٦٦٤) ، أبو داود السنة (٤٦٠٤) ، ابن ماجه المقدمة (١٢) .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب باب لزوم السنة ، ١٠/٥ - ١٢ ، الحديث إسناده صحيح . انظر : المشكاة ، ٥٧/١ - ٥٨ .

يبين ما في الكتاب فيعم ويخص وأن يزيد عليه في الشرع ما ليس في الكتاب له ذكر فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن " [١] وقد تضمن هذا الحديث تحذيرا شديدا من مخالفة السنن التي سنها رسول الله ﷺ استغناء عنها بالقرآن.

يقول الخطابي:

" يحذر بذلك من مخالفة السنة التي سنها رسول الله ﷺ مما ليس له ذكر في القرآن على ما ذهب إليه الخوارج والروافض فإنم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي تضمنت بيانا للكتاب فتحيروا وضلوا [٢] ثم أتبع رسول الله ﷺ هذا التحذير ببيان أحكام ثبتت شرعيتها بالسنة ولم يرد لها ذكر في القرآن وذلك كتحريم لحم الحمار الأهلي وكل ذي ناب من السباع. وهذا تأكيد من رسول الله ﷺ على أن السنة - متى ثبتت - حجة بنفسها وإن تضمنت أحكاما زائدة على ما في القرآن ".

قال الخطابي:

" في الحديث دليل على أن لا حاجة بالحديث أن يعرض على الكتاب، وأنه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ كان حجة بنفسه ".

فأما ما رواه بعضهم أنه قال: " إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه " فإنه حديث باطل لا أصل له، وقد حكى زكريا الساجي عن يحيى بن معين أنه قال: " هذا حديث وضعته الزنادقة " [٣] هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ إذ ظهرت في الأمة طوائف تنكر السنة كلها أو بعضها بدعوى الاستغناء عنها بالقرآن وكان من أوائلهم الخوارج والروافض والمعتزلة حيث أثر عن هذه الطوائف إنكار لبعض الأحكام التي وردت في السنة.

---

(١) معالم السنن للخاطبي بهامش سنن أبي داود ، ١٠/٥ .

(٢) معالم السنن ، ١٠/٥ .

(٣) معالم السنن ، ١١/٥ .

وقد وجدت منهم عناصر في زمن الإمام الشافعي وناظر بعضهم [(١)] وتوالى ظهور من يدعو إلى مثل هذه الأفكار على مر التاريخ حتى عصرنا الحاضر، إذ وجدت فرقة تسمت باسم (القرآنيين)، قد ظهرت في الهند والباكتسان، وسرت عدواها إلى مصر وغيرها من البلاد العربية.

وتذهب هذه الفرقة إلى إنكار السنة وحجيتها بدعوى الاكتفاء بالقرآن، واخترعوا دينا جديدا لا مرجع فيه إلى السنة. وإنما اعتمدوا على القرآن بزعمهم، مدعين أن القرآن وحده كاف لإقامة الحياة الإسلامية وليست هناك حاجة إلى السنة.

وبناء عل ذلك تأولوا - بأهوائهم- آيات القرآن بما يجعله شاملا للأحكام بتفاصيلها، وراحوا يلتمسون من الشبهات ما يقوي بنيانم، ولو أننا استغنينا عن السنة لاندم الدين من أساسه ولانفتح باب الزندقة على مصراعيه. وليس المقام هنا مقام الرد على هؤلاء الزنادقة ودحض شبهاتم فقد اكتفيت فيه برد غيري [(٢)].

وقد جاءت الآثار عن الصحابة والتابعين بالتحذير منهم، فأخرج الدارمي بسنده عن عمر ﵁ قال: ﴿ إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله ﴾ [(٣)] [(٤)] وأخرج الآجري بسنده عن سعيد بن جبير أنه حدث عن رسول الله ﷺ حديثا فقال رجل: (إن الله قال في كتابه كذا وكذا، فقال: لا أراك تعارض حديث رسول الله ﷺ بكتاب الله ﷻ رسول الله أعلم بكتاب الله ﷻ

(١) انظر: كتاب جماع العلم ضمن كتاب الأم للإمام الشافعي، ط٢، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ، ٢٧١/٧ وما بعدها.

(٢) انظر في عرض آراء هذه الفرقة وشبهاتا والرد عليها. رسالة: فرقة أهل القرآن بباكستان وموقف الإسلام منها. رسالة ماجستير مقدمة من الباحث خادم إلهي حسين بخش إلى جامعة أم القرى، ١٤٠١ هـ.

(٣) الدارمي المقدمة (١١٩).

(٤) سنن الدارمي، ٤٩/١.

سبحانه وتعالى [1]

وأخرج ابن عبد البر بسنده عن أيوب السختياني أن رجلا قال لمطرف ابن عبد الله بن الشخير: (لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له مطرف: والله ما نريد بالقرآن بدلا ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا) يريد بذلك رسول الله ﷺ [2]

بقي أن أنبه إلى أمر مهم جدا تغافل عنه أكثر المسلمين اليوم ألا وهو مكانة الرسول ﷺ وسنته من الدين، فأكثر المسلمين اليوم على أن اتباع السنة وتطبيقها أمر اختياري من باب المستحبات لا الواجبات، والسبب الأكبر في ذلك غلبة الجهل بالسنة ومكانتها من الدين، وسكوت العلماء والدعاة -إلا من رحم الله- عن نشر السنة وتقريبها إلى الناس، هذا مع غلبة التعصب المذهبي على أكثرهم مما حال بينهم وبين البحث عن الهدي النبوي الشريف.

لأجل هذا صارت السنة في أكثر البقاع مهجورة وغريبة وأغرب منها من يستمسك با ويدعو إليها.

هذا مع ادعاء الأكثرية أنم مازالوا على الصراط المستقيم، وأنم مطيعون متبعون، وكأن الاتباع يثبت بمجرد الدعوى دون أدلة وشواهد حقيقية وواقعية. ورغم كل هذا فلا تزال طائفة من هذه الأمة في كل بلد قائمة بالسنة داعية إليها صابرة على ما تلاقي من ألوان الأذى والصد عن سبيل الله.

كما أخبر بذلك نبينا ﷺ بقوله: ﴿ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ﴾ [3] [1] .

---

(١) كتاب الشريعة للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ، تحقيق محمد حامد الفقي ، نشر . حديث أكاديمي ، فيصل آباد ، باكستان ، ص٥١ .

(٢) جامع بيان الحلم وفضله وما يبغي في روايته وحمله للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر . المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ١٩١/٢ .

(٣) مسـلم الإمارة (١٩٢٠) ، التـرمذي الفتن (٢٢٢٩) ، أبو داود الفتن والملاحم (٤٢٥٢) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٥٢) ، أحمد (٢٧٩/٥) .

لذا كان لأبد من تحديد آثار الاتباع ومظاهره حتى يتبين المتبع حقا من غيره، وهذا ما سأبينه في المبحث القادم إن شاء الله.

(١) صحيح مسلم . كتاب الإمارة . باب قوله لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ١٥٢٣/٣ .

المبحث الثالث

مظاهر الاتبــاع

اتباع الرسول ﷺ أمر واجب وفرض عين على الأمة كلها في عسرها ويسرها ومنشطها ومكرهها. ولا يصير المسلم مسلما حتى يتبع الرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله حسب علمه واستطاعته، واتباع الرسول ﷺ مثل محبته من حيث كونه مقترنا بشواهد تؤكده ومظاهر عملية تحدده وبدونا يصير الاتباع دعوى مجردة عن الدليل.

وأود في هذا المبحث أن أبين بعض مظاهر الاتباع التي إذا تحققت تحقق الاتباع وصدقت المحبة لرسول الله ﷺ فمن هذه المظاهر:

أولا: الاقتداء بالنبي ﷺ والتأسي به:

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [(1)] قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

" هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل. صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين.

ولهذا قال تعالى للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [(2)] أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ [(3)]

والتأسي بالنبي ﷺ هو: أن نفعل مثلما فعل على الوجه الذي فعله، من وجوب أو ندب، وأن نترك ما تركه، أو نى عنه من محرم أو مكروه، كما يشمل التأسي به التأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه ﷺ وعلى ذلك فالتأسي والاقتداء شامل لكافة أمور الدين.

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .
(٢) سورة الأحزاب آية : ٢١ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ٤٧٥/٣ .

فإذا قال الرسول ﷺ قولا قلنا مثل قوله، وإذا فعل فعلا فعلنا مثله، وإذا ترك شيئا تركناه فيما لم يكن خاصا به، وإذا عظم شيئا عظمناه، وإذا حقر شيئا حقرناه، وإذا رضي لنا أمرا رضينا به، وإذا وقف بنا عند حد وقفنا عنده ولم يكن لنا أن نتقدم عليه أو نتأخر عنه.

وبالجملة فإن الاقتداء بالرسول ﷺ هو تجريد متابعته والتلقي عنه وحده فكما أن الرب سبحانه واحد فالرسول الذي أمرنا باتباعه واحد فهما توحيدان: توحيد المرسل وهو الله سبحانه وتعالى، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ.

وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وبدون هذا لا يصير المسلم مسلما. ذلك هو الاقتداء بالرسول ﷺ وهو المعيار الذي ينبغي أن توزن به أفعال الناس وأقوالهم وعقائدهم وسائر أمورهم. وطريق التأسي به مبنى على العلم بديه ﷺ في كافة أمور الدين والعمل به.

وقد وعت دواوين السنة وكتب السير والشمائل كافة أقوال النبي ﷺ وأفعاله وسجاياه وأخلاقه وكل ما يتصل به من قريب أو بعيد وحفظت ذلك أتم حفظ.

وقام أولو العلم في كل عصر بتقريب الناس من هذا الهدى النبوي الشريف قياما بواجبهم في تبليغ هذا الدين ونصحا للمسلمين، فما تركوا شيئا من هديه ﷺ إلا وبينوه أتم بيان، فأبان الله بهم السبيل وقطع بهم المعاذير، فالسعيد من اتبع خطاهم والشقي من تنكب طريقهم وجفاهم.

فعلى كل مسلم يحب الرسول ﷺ أن يتعلم من سننه وهديه ما يدخل به في عداد المقتدين المتبعين للرسول ﷺ.

قال ابن القيـم:

" وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتا وسعادتا، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر

ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم " [١]

والسبيل العملي للتأسي بالرسول ﷺ هو تطبيق السنة في حياة الفرد والجماعة. وهذا التطبيق يشمل كافه جوانب الدين من اعتقادات وعبادات ومعاملات وأخلاق وآداب ونظم اجتماعية وإدارية وسياسية شرعية. ومما يعين على تطبيق السنة، إحياؤها بنشر العلم الشرعي الموروث عن رسول الله ﷺ وهذا واجب على كل من علم من الدين شيئا أن يبلغه، ويتعين هذا ويتأكد وجوبه في حق أهل العلم وحملة الشريعة، أخذا من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [٢] فهذه الآية وإن نزلت في حق أهل الكتاب توبيخا لهم لكتمانهم أمر رسول الله ﷺ ولم يؤمنوا به مع علمهم بأنه هو النبي الخاتم والمبشر به من قبل أنبيائهم، إلا أن فيها تحذيرا لعلماء هذه الأمة من أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب في كتمان العلم فيصيبهم ما أصابهم. فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئا [٣].

كما ورد في السنة الحث على تبليغ العلم في أحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ﴿ بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ﴾ [٤] [٥] وأخرج الترمذي بسنده عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ نضر

(١) زاد المعاد من هدى خير العباد لابن القيم ، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط ط ٨ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ ، ١/٦٩- ٧٠ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .
(٣) انظر ، تفسير ابن كثير ، ١/٤٣٧ .
(٤) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٧٤) ، الترمذي العلم (٢٦٦٩) ، أحمد (٢/١٥٩) ، الدارمي المقدمة (٥٤٢) .
(٥) البخاري . كتاب أحاديث الأنبياء . باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤/٢٠٧ .

الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع ﴾ [١] [٢] وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم [٣] " انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا [٤] والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة وكلها تؤكد وجوب تبليغ السنة ونشرها في كل عصر ومصر. ويتحتم هذا الأمر في حالة الجهل بالسنة أو الإعراض عنها وهجرانا كما هو الحال في هذا الزمان الذي عم فيه الهجران للسنة وتعاليم الدين كافة بلاد المسلمين إلا قليلا ممن هداهم الله ووفقهم للتمسك بالسنة والصبر عليها.

والسبب في ذلك قلة الاهتمام بالعلم الشرعي، وتقصير أهل العلم في القيام بواجبهم في تبليغ هذا الدين على الوجه المطلوب، هذا مع غلبة التعصب المذهبي والتقليد الأعمى على أكثر الناس، مما جعل بين المسلمين وبين هدى نبيهم جفاء وبعدا- إلا من رحم الله. فيجب على كل مسلم يحب الله ورسوله أن يقوم بواجبه في تبليغ هذا الدين حسب علمه واستطاعته، صابرا في سبيل ذلك على ما يلاقي في جنب الله من أذى. متأسيا في ذلك برسول الله ﷺ وصحابته الذين وقفوا حياتم لتبليغ هذا الدين، باذلين في سبيل ذلك النفس والنفيس. فرضي الله عنهم وعمن سار على نجهم إلى يوم الدين. وهذا هو مظهر الاتباع والحب الحقيقي لرسول الله ﷺ.

---

(١) الترمذي العلم (٢٦٥٧) ، ابن ماجه المقدمة (٢٣٢) .

(٢) سنن الترمذي . كتاب الحلم ، باب في الحث على تبليغ السماع ١٤٢/٤ ، وأخرجه أحمد في مسنده ٤٣٧/١ وابن ماجه في المقدمة ، باب من بلغ علما ٨٥/١ . والحديث متواترا رواه أربعة وعشرون صحابيا . انظر : دراسة حديث " نضر الله امرأ سمع مقالتي) رواية ودراية . تأليف عبد المحسن العباد ، ط١ ، المدينة المنورة ، ١٤٠١ هـ .

(٣) هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم . تابعي فقيه ، استحمله عمر بن عبد العزيز على إمرة المدينة وقضائها ، ولهذا كتب إليه . انظر فتح الباري ، ١٩٤/١ .

(٤) ورده البخاري في كتاب العلم ، باب كيف يقبض العلم ، ٣٥/١ .

قال البيهقي:

" وإذا لزم اتباع رسول الله ﷺ فيما سن، وكان لزوم فرضا باقيا، ولا سبيل إلى اتباع سنته إلا بعد معرفتها، ولا سبيل لنا إلى معرفتها إلا بقبول خبر الصادق عنه لزم قبوله ﷺ متابعته، ولذلك أمر بتعليمها والدعاء إليها، وبالله التوفيق " (١)

ثانيا: تحكيم السنة والتحاكم إليها:

إن مما يؤكد صدق الاتباع لرسول الله ﷺ تحكيم سنته والتحاكم إليها وجعلها الميزان الذي توزن به الأقوال والأفعال والأحكام فما وافقها قبل وما خالفها رد وإن قاله من قاله. وقد وردت آيات كثيرة تؤكد هذا الأمر منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢) .

فأمر الله المؤمنين برد قضاياهم وما تنازعوا فيه إلي كتابه وسنة نبيه ﷺ وأعلمهم أن ذلك خير لهم في الدنيا وأحسن عاقبة في الأخرى، وفي الأمر بالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله دلالة صريحة على أنما كافيان لفصل النزاع وتقديم الحل لكل مشكلة تقع بين المسلمين. وإن إيمان المؤمن ليحمله على الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله آنا بعد آن لمعرفة حكم الشرع في كل ما يجد له من أمور الحياة.

وفائدة هذا الأمر عظيمة جدا، إذ يظل المسلم على جادة الاتباع لا يحيد عن الصراط المستقيم طالما أحسن الرجوع إلى الكتاب والسنة، وقد أمر الله بتحكيم نبيه- في حياته وسنته بعد مماته- في كالله أنواع النزاع للفصل فيها فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للإمام أبي بكر البيهقي ، تصحيح كمال يوسف الحوت ، ط ١ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ ، ص ١٥٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٥٩ .

﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [(١)].

فأقسم سبحانه بذاته على أنه لا يثبت للمؤمنين الإيمان حتى يحكموا رسول الله ﷺ في موارد الـ اع في كافة الأمور وأن هذا التحكيم غير كاف حتى يجتمع إليه الرضى بحكمه والتسليم لأمره مع انشراح صدورهم وطيب نفوسهم بقضائه وحكمه.

وأصل ذلك أن المسلم متبع لرسول الله ﷺ في كافة أحواله فإذا عرض له أمر أو تنازع مع أخيه المسلم في أي شأن من شئون الدين أو الدنيا فزع عند ذلك إلى سنة رسول الله ﷺ حتى يجد فيها جوابا شافيا كما كان حال الصحابة معه ﷺ في حياته، يفزعون إليه يسألونه في كافة أمورهم، ويحتكمون إليه في كل شئونهم، فإذا حكم بشيء قبلوا حكمه وسلموا به عن طيب نفس ورضى.

وبعد موته عليه الصلاة والسلام كان الصحابة إذا اختلفوا في أمر أو خفي عليهم حكمه تحاكموا إلى من يعلم بالسنة فيما اختلفوا فيه، فإذا ثبتت عندهم السنة لم يتجاوزوها إلى غيرها.

فها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: « أذكر الله امرأ سمع من النبي في الجنين شيئا؟ فقام حمل بن مالك بن النابغة، فقال: كنت بين جاريتين لي، يعني ضرتين، فضربت إحداهما الأخرى بمسطح [(٢)].، فألقت جنينا ميتا، فقضى فيه رسول الله بغرة [(٣)] فقال عمر: لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره » [(٤)].

---

(١) سورة النساء آية : ٦٥ .

(٢) المسطح : هو عود من أعواد الخباء أو الفسطاط " الخيمة " . انظر : النهاية في غريب الحديث . لابن الأثير ، تحقيق محمود الطناحي مطبعة عيسى الحلبي ، مصر ، ٣٣٠/٤ .

(٣) الغرة : العبد أو الأمة ، والغرة هي ما بلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد أو الإماء ، قال ابن الأثير : (وإنما تجب الغرة في الجنين إذا سقط ميتا ، فإن سقط حيا ثم مات ففيه الدية كاملة . انظر- النهاية في غريب الحديث ، ٣٥٣/٣ .

(٤) أخرجه الشافعي في الرسالة ٤٢٧ . وأصل الحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الديات . باب جنين المرأة وأن العقل على الولد ، ٩/١٤- ١٥ . وانظر فتح الباري ، ١٦٤/١٢- ٢٥٢ .

وأخرج الشافعي بسنده عن سعيد بن المسيب: ﴿ أن عمر بن الخطاب كان يقول: الدية للعاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئا. حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه: أن يورث امرأة أشيم الضبابي [(١)] من ديته. فرجع إليه عمر ﴾ [(٢)]

وقد جمع الإمام الشافعي جملة من الآثار عن الصحابة ومن بعدهم تؤكد أخذهم بالسنة متى ثبتت واطراح كل رأي يخالفها وإن كان قد جرى عليه العمل [(٣)] ولنا في صحابة رسول الله ﷺ وسلف هذه الأمة أعظم الأسوة في التمسك بالسنة وتحكيمها في كافة أمورنا.

وتحكيم السنة والتحاكم إليها هو الفارق بين المسلم الحريص على اتباع السنة وبين من يتبع هواه بغير هدى من الله. فمن تحاكم إلى غير الوحي فقد تحاكم إلى الطاغوت، وذلك كحال من يتحاكم إلى أدلة العقول المبنية على المنطق اليوناني وهذا هو شأن الفلاسفة وأهل الكلام، ومثل ذلك من يتحاكم إلى الذوق والوجد أو مشايخ الطريق وهذا هو حال الصوفية.

أو كالشيعة الذين يتحاكمون إلى الأئمة المعصومين بزعمهم، ويلتحق بأولئك من يتحاكمون إلى القوانين الوضعية، أو أي مبدأ من المبادئ الهدامة أو عرف من الأعراف البشرية السائدة أو غير ذلك مما تحتكم إليه الجاهلية قديما وحديثا معرضين بذلك عن الحكم بكتاب الله وسنة رسوله والتحاكم إليهما.

وهذا الإعراض والصدود هو حال المنافقين في كل زمان ومكان وإن زعموا أنهم يريدون بذلك إحسانا وتوفيقا، أو أنهم يعملون لمصلحة الأمة وقد نبه الله على صنيعهم

---

(١) أشيم الضبابي صحابي قتل خطأ في عهد النبي انظر : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، طبع دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٦٧/١ .

(٢) رواه الشافعي في الرسالة ٤٢٦ ، وأحمد في المسند ، ٤٥٢/٣ ، والترمذي في أبواب الفرائض ، باب ما جاء في توريث المرأة من دية زوجها وقال حديث حسن صحح ، ٢٨٨/٣ ، والحديث صححه الهيثمي من رواية الطبراني . انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ، ط٣ ، ٢٣٠/٤ - ٢٣١ ، دار الكتاب العربي بيروت .

(٣) انظر الرسالة ، ص٤٢٢ ، وما بعدها .

وأبان عن سوء حالهم فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [1] قال ابن القيم:

(.... إن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه، والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته [2] .

ثالثا: الرضى بحكم رسول الله ﷺ وشرعه:

من مظاهر طاعة الرسول ﷺ الرضى بحكمه وشرعه وهذا الأمر تابع للرضا بالله ربا وإلها، فمن رضي بالله ربا، رضى بالرسول الذي أرسله والدين الذي أنزله. فمن حصل له ذلك فهو السعيد حقا.

أخرج مسلم بسنده عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿ ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ﴾ [3]

(١) سورة النساء ، آيات (٦٠-٦٣) .

(٢) إعلام الموقعين ، ١/٥٠ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب الدليل على أن من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبار ، ١/٦٢ .

فإذا رضي المسلم بمحمد ﷺ رسولا لم يلتفت إلى غير هديه، ولم يعول في سلوكه على غير سنته وحكمه وحاكم إليه وقبل حكمه وانقاد له وتابعه واتبعه، ورضي بكل ما جاء به من عند ربه، فسكن قلبه لذلك واطمأنت نفسه وانشرح صدره، ورأى نعمة الله عليه وعلى الخلق - بذا النبي ﷺ وبدينه - أعظم من أي نعمة. ففرح بفضل ربه عليه ورحمته به أن جعله من أتباع خير المرسلين وحزبه المفلحين.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (1) والرضى كلمة تجمع القبول والانقياد، فلا يكون الرضى إلا حيث يكون التسليم المطلق والانقياد ظاهرا وباطنا لما جاء به الرسول ﷺ من ربه. وكل التفات أو عدول عن الوحي إلى غيره أو اعتراض عليه فهو مناقض للرضى ودليل على النفاق ومؤذ إلى الكفر والمروق من الدين.

وقد وقعت طوائف من الأمة فيما يعارض الرضى ويناقضه من الاعتراض على ما جاء به الرسول من ربه، واتخذ ذلك أشكالا متعددة:

- فمنهم من اعترض على توحيد الألوهية بجنس ما اعترض به المشركون الأولون من محبة الأنبياء والصالحين والتقرب بم إلى الله زلفى. فلم يرضوا بالتوحيد الخالص حتى شابوه ودنسوه بدنس الشرك.

- ومنهم من اعترض على أسماء الله وصفاته بالشبه الباطلة، والظنون الحائرة فنفوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ وأثبتوا ما نفاه الله ورسوله عنه فتاهوا في الضلال والعمى. ولو أنم رضوا بما جاءهم به الرسول ﷺ ووقفوا عنده لاهتدوا من الضلالة ولأبصروا بعد العمى ولسعدوا بالهدى.

- ومنهم المعترض على الشرع: إما بالآراء والأقيسة الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرمه

(1) سورة يونس ، آية (57-58) .

الله، وتحريم ما أحله، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه. وإما بالاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالذوق والوجد والكشف ومشايخ الطريق. فحادوا لأجل ذلك عن الصراط المستقيم، وعولوا على أهوائهم وما ألقته إليهم شياطينهم من زخارف القول. فهم على هذا عاكفون، وعن طريق الحق والهدى معرضون وصادون.

- ومنهم من اعترض على الشريعة بالسياسات الجائرة والقوانين الوضعية الخاسرة وألزموا الناس با كأنا شرع م ل، وتركوا شرع رب العالمين وعطلوا حدوده وأهملوا شعائره، وانتهكوا محارمه. زاعمين مع ذلك أنم يريدون إحسانا وتوفيقا فوقعوا في الضلال والحيرة وكساهم الله ثوب الصغار والذلة وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف والقلة. ولو رضوا بشرع رب العالمين لحصل لهم العز والتمكين.

- ومنم من اعترض على أفعال الله وقضائه وقدره وحكمته بأنواع من الشبه الإبليسية التي تطعن في عدل الله وحكمته وعلمه وهذا اعتراض الجهال والسبب الذي أخرجهم من الرضا إلى الاعتراض هو تلقيهم واستمدادهم من غير الوحي والتزامهم أصولا تخالف شرع رب العالمين ولا نجاة من هذا الداء- أعني داء الاعتراض- إلا بالتسليم المطلق للوحي والإقبال عليه مع اليقين التام بأن فيه الهداية والشفاء (١) .

رابعا: الوقوف عند حدود الشريعة:

- هذا الأمر ثمرة للرضا، فمن رضي بحكم رسول الله ودينه وشرعه وقف عند حدود شريعته ولم يتجاوزها إلى غيرها، ولا يكون ذلك إلا إذا أيقن المسلم أن الدين قد كمل فليس بحاجة إلى زيادة ولا نقصان، وأن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين فلم يترك من أمر الدين شيئا إلا وبلغه. فإذا علم المسلم ذلك وأيقن به وقف عند حد الشريعة ولم يتعدها. والحدود التي أمرنا بالوقوف عندها وعدم تعديها: هي جملة ما أذن الله في فعله سواء كان على سبيل الوجوب أو الندب أو الإباحة، واعتداؤها: هو تجاوز ذلك إلى ارتكاب ما نى

(١) انظر : مدارج السالكين ، ٦٩/٢- ٧١ .

عنه [1] وتعدي الحدود يشمل الإفراط والتفريط، لكن أكثر ما يطلق على الإفراط ومجاوزة الحد، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [3] وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [4] وقد أخبر الرسول ﷺ ﴿ سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء ﴾ [5] [6] .

أي أنهم يتجاوزون حدود الطهور بالزيادة فيه والدعاء بالإخلال بشروطه، فمن تجاوز حدود الشريعة فقد خرج عنها إلى غيرها مما زينه له الشيطان كما قال بعض السلف: " ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة- وهي الإفراط- ولا يبالي بأيهما ظفر زيادة أو نقصان [7] ولأجل هذا أمرنا الله بلزوم الصراط المستقيم، وأن نسأله كل صلاة أن يهدينا إليه في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [8] وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [9] ونهي الله عن تعد الحدود ومجاوزتها، والتقدم بين يدي الله ورسوله حتى لا

(١) انظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ، ص٢٤٦ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .
(٣) سورة الأعراف آية : ٥٥ .
(٤) سورة المائدة آية : ٨٧ .
(٥) أبو داود الطهارة (٩٦) ، أحمد (٨٧/٤) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده . من حديث عبد الله بن مغفل ، ٨٦/٤ ، ٨٧ ، والحاكم في المستدرك ، ٥٤٠/١ ، وصححه ووافقه الذهبي .
(٧) انظر : مدارج السالكين ١٠٨/٢ .
(٨) سورة الفاتحة ، آية (٥) .
(٩) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

يزاد في دين الله بالأهواء. وعدم الوقوف عند حدود الشريعة أنتج في الأمة صنوفا من البدع وضروبا من الغلو وألوانا من الخروج على الدين ما كان لها أن توجد لولا مجاوزة هذه الحدود. فأصاب الدين وأهله من المبتدعة والغلاة شر كثير.

نخلص من هذا إلى أن الاتباع مرتبط بمظاهر عملية من حققها فقد حقق الاتباع، وصدقت محبته لله ورسوله ومن أخل بها فقد أخل بالاتباع وكان ذلك دليلا على نقصان المحبة عنده.

الباب الثاني

الغلو والابتداع

(وفيه فصلان)

الفصل الأول:

الغلو في الرسول ﷺ.

الفصل الثاني:

الابتداع.

الفصل الأول

الغلو في الرسول ﷺ

وفيه ستـة مباحـث

المبحث الأول: مفهوم الغلو.

المبحث الثاني: الغلو في الرسل عند اليهود والنصارى.

المبحث الثالث: الغلو في ذات الرسول ﷺ عند الشيعة.

المبحث الرابع: الغلو في ذات الرسول ﷺ عند الصوفية. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الغلو عند الحلاج.

المطلب الثاني: الغلو عند ابن عربي.

المبحث الخامس: أثر الغلو في الرسول ﷺ على الاعتقاد والأعمال.

المبحث السادس حكم الإسلام في الغلو في الرسول ﷺ.

المبحث الأول

مفهـوم الغلـو

أصل الغلو في اللغة يطلق على مجاوزة الشيء حده الذي وضع له، سواء كان هذا الحد شرعيا أو عرفيا.

قال الراغـب:

(الغلو تجاوز الحد، يقال ذلك إذا كان في السعر غلاء، وإذا كان في القَدْر واله لة غُلو، وفي السهم غلو، وأفعالها جميعا غلا يغلو.

قال تعالى: ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ [1] والغلي والغليان يقال في القدر إذا طفحت، ومنه استعير قوله: ﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝ ﴾ [2]

وبه شبه غليان الغضب والحرب، وتغالي النبت يصح أن يكون من الغلي، وأن يكون من الغلو. غلواء: تجاوز الحد في الجماح، وبه شبه غلواء الشباب) [3] وجاء في اللسـان: (... وغلا في الدين والأمر يغلو غلوا: جاوز حده، وفي الت يل ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ [4]

وفي الحديث: ﴿ إياكم والغلو في الدين ﴾ [5] [6] أي التشدد فيه ومجاوزة الحد.

... ومنه الحديث: ﴿ وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه ﴾ [7] [8] إنما قال

(١) سورة النساء آية : ١٧١ .

(٢) سورة الدخان ، آية (٤٤-٤٦) .

(٣) المفردات ، ص٣٦٤ - ٣٦٥ ، مادة : غلا .

(٤) سورة النساء آية : ١٧١ .

(٥) ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (٢١٥/١) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في كتاب المناسك ، باب قدر حص الرمي ١٠٠٨/٢ وسيأتي تخريجه .

(٧) أبو داود الأدب (٤٨٤٣) .

(٨) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب . باب في ت يل الناس منازلهم ، ١٧٤/٥ ، والحديث حسن . انظر صحيح الترغيب والترهيب للألباني ، ط ٢ ، المكتب الإسلامي ، بيروت) ١٤٦٠ هـ ـ ٦٦٠/١ .

ذلك لأن من آدابه وأخلاقه التي أمر بها القصد في الأمور ﴿ وخير الأمور أوساطها ﴾ [١]

وعلى ذلك فالمادة تدور في اللغة حول مجاوزة الحد أيا كان نوعه. فإذا نظرنا إلى معنى الغلو في الشرع فسنجده موافقا للمعنى اللغوي إذ يطلق الغلو في الشرع على مجاوزة حدود الشريعة عملا أو اعتقادا.

وقد وردت مادة الغلو والنهي عنه مرتين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ ﴾ [٢] وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ ﴾ [٣] قال القرطبي في تفسير الآية الأولى:

" قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ [٤] نهي عن الغلو، والغلو التجاوز في الحد، ومنه: غلا السعر يغلو غلاء، وغلا الرجل في الأمر غلوا، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها [٥] ويعني بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه ربا، فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر [٦]

كما ورد لفظ الغلو والنهي عنه في السنة موافقا معناه لما في القرآن ففي الحديث الذي أخرجه ابن ماجه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿ قال لي رسول ﷺ غداة العقبة وهو

(١) لسان العرب ، ١٣٢/٥ ، مادة غلا . وانظر : مقاييس اللغة ٣٨٧/٤- ٣٨٨ .
(٢) سورة النساء آية : ١٧١ .
(٣) سورة المائدة آية : ٧٧ .
(٤) سورة المائدة آية : ٧٧ .
(٥) لداتها : أي أترابها ومثيلاتها .
(٦) الجامع لأحكام القرآن لابن عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط ٢- دار الكتب المصرية ، ١٣٥٧ هـ ، ٢١/٦ .

على ناقته: " القط لي حصى " فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف. فجعل ينفضهن في كفه ويقول " أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: " يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين ﴾ (١) (٢) .

قال ابن تيمية في شرح هذا الحديث:

(وقوله: ﴿ إياكم والغلو في الدين ﴾ (٣) عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، والغلو: مجاوزة الحد، بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك) (٤) فهذه النصوص بينت أن الغلو- يراد به شرعا مجاوزة الحد بالزيادة على المشروع قدرا ووصفا، اعتقادا وعملا. وقد وردت في الشرع ألفاظ تقارب الغلو في معناه. مثل التشدد والتشديد، والتعمق والتنطع والتكلف، وكلها مرادفة للغلو وتجتمع معه في كونا مجاوزة الحد بالزيادة على المشروع، كما يلاحظ في الغلو أنه تجاوز من مشروع إلى غير مشروع فمثلا تعظيم الرسول ﷺ والإشادة بذكره، هذا أمر مشروع طالما كان ذلك في حدود بشريته. فإذا تجاوزنا بتعظيمه حدود بشريته صار هذا غلوا.

أنـواع الغلـو

تتعدد أشكال الغلو وصوره، فمنه ما يكون في الاعتقاد ومنه ما يكون في العمل:

(أ) الغلو في الاعتقاد:

ويتمثل في مجاوزة حدود الاعتقاد الصحيح إلى غيره من ضروب الانحراف، والمتأمل في

---

(١) ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (٢١٥/١) .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب قدر الحصى ، ١٠٠٨/٢ ، ورواه النسائي في السنن . ص ب مناسك الحج ، باب التقاط الحصى ، ٢٦٨/٥ ، والإمام أحمد ني المسند ، ٢١٥/١ " ٣٤٧ . والحديث صحيح إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية وقال : هذا إسناد صحح على شرط مسلم . انظر : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ، تحقيق د . ناصر بن عبد الكريم العقل . ط ١ ، مطابع العبيكان ، الرياض ، ١٤٠٤هـ ، ١/ ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٣) ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (٢١٥/١) .

(٤) المصدر نفسه ، ٢٨٩/١ .

آراء الفرق الكلامية التي فارقت أهل السنة والجماعة بنوع اعتقاد يجدها قد غلت في ناحية من نواحي الاعتقاد حتى خرجت عن الصراط المستقيم. ففي صفات الله تعالى نجد النفاة والمؤولة غلوا في تنزيه الله حتى عطلوه عن صفات الكمال ووصفوه بصفات المعدوم، وفي المقابل نرى المجسمة والمشبهة غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التجسيم والتشبيه، والحق وسط بين الفريقين تنزيه بلا تعطيل، وإثبات بلا تجسيم ولا تمثيل.

وعلى هذا النهج سارت طوائف المتكلمين، فطائفة تثبت شيئا وتغالي فيه وأخرى تثبت نقيضه وتغلو فيه.

ومن الغلو في الاعتقاد غلو النصارى في عيسى عليه السلام حتى أخرجوه من حيز البشرية إلى مرتبة الألوهية.

- ومنه غلو الشيعة في علي رضي الله عنه فطائفة ادعت أنه إله، وطوائف على أنه معصوم (١)

- ومنه غلو بعض المتصوفة في الرسول ﷺ حيث ادعوا أنه مخلوق من نور وأن الكون خلق من نوره، وأنه يتصرف في الأكوان. إلى غير ذلك من العقائد الباطلة.

ومنه الغلو في الصالحين ومشايخ الصوفية، بادعاء العصمة لهم، واتباعهم في كل ما يقولونه بلا دليل، والاستغاثة بهم وندائهم فيما لا يقدر عليه إلا الله، إلى غير ذلك من العقائد الشركية.

(ب) الغلو في العمل:

ويقصد به ما كان واقعا في دائرة الأحكام الشرعية الخمسة وهي الوجوب، والندب، والكراهة، والتحريم، والإباحة. فمن جعل المندوب بمنزلة الواجب، أو المكروه بمنزلة المحرم، أو جعل المباح مكروها أو محرما فقد غلا في الدين وجانب الصراط المستقيم، فمن أوجب

---

(١) انظر: اعتقادات فرق الشيعة في: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. تحقيق. هلموت ريتر، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٥- ٨٥. والفرق بين الفرق. عبد القاهر بن طاهر البغدادي. تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص ٢٩- ٧٢.

على نفسه قيام الليل كله- مثلا- فقد غلا لأنه جعل المندوب بمنزلة الواجب، ولأنه جاوز حدود السنة في هذا الجانب. ومثل هذا من حرم ما أحل الله من النكاح وأكل الطيبات زهدا وتعبدا. ويدخل في هذا الباب كل من زاد على المشروع قدرا أو وصفا، وذلك كالزيادة على الثلاث في الوضوء مثلا.

يقول ابن تيميــة:

(والتشديد تارة يكون باتخاذ ما ليس بواجب ولا مستحب بمنزلة الواجب والمستحب في العبادات، وتارة باتخاذ ما ليس بمحرم ولا مكروه بمنزلة المحرم والمكروه في الطيبات) [(١)]

وقال ابن القيــم:

(والغلو نوعان:

- نوع يخرجه عن كونه مطيعا، كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشرا، أو نحو ذلك عمدا.

- وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار كقيام الليل كله وسرد الصيام الدهر أجمع بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي ﷺ ﴿ إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا ويسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة ﴾ [(٢)] [(٣)] وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: ﴿ هلك المتنطعون ﴾ [(٤)] قالها ثلاثا!) [(٥)] وهم المتعمقون المتشددون) [(٦)] أسباب الغلو

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ، ٢٨٣١/١ .
(٢) البخاري الإيمان (٣٩) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤) ، أحمد (٥١٤/٢) .
(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب الدين يسر ، ١٦/١ .
(٤) مسلم العلم (٢٦٧٠) ، أبو داود السنة (٤٦٠٨) ، أحمد (٣٨٦/١) .
(٥) صحيح مسلم ، كتاب العلم ، باب هلك المتنطعون ، ٢٠٥٥/٤ .
(٦) مدارج السالكين ، ٤٩٦/٢- ٤٩٧ .

أسباب الغلو :

يمثل الغلو ظاهرة انحراف خطيرة في تاريخ الأديان السماوية، إذ يعد من أكبر أسباب الانحراف بالدين عن الصراط المستقيم. ويبدأ هذا الانحراف يسيرا ثم يتعاظم على مر الأيام حتى يصبح كأنه الأصل.

وها هي النصرانية! كيف كانت على عهد المسيح عليه السلام عقيدة خالصة من شوائب الشرك ودينا قويما، ثم أصابها الغلو فانحرف بها عن التوحيد الخالص إلى الشرك المحض ومن دين سماوي إلى دين وضعي ممزوج بوثنيات الهند وترهات اليونان وأباطيل اليهود.

وهذا الغلو لا ينشأ فجأة من فراغ، ولكنه مرتبط بعدة عوامل وأسباب تؤدي إليه، وتظهره. وهذه الأسباب كثيرة ومتنوعة لكننا نريد أن نقف علي أهم الأسباب التي أدت إلى وجود الغلو لدى طوائف من المسلمين. وأول هذه الأسباب:

١ - الجهل بالدين ويتمثل هذا في جوانب متعددة منها:

- القصور في فهم مقاصد الشريعة من التيسير ورفع الحرج عن المكلفين. ويتجلى هذا في صنيع المتشددين على أنفسهم في العبادات.

- ومنها الجهل بحدود الشريعة التي يجب على المكلف أن يقف عندها ولا يتعداها ويتمثل هذا في كل أنواع الغلو المجاوزة لحدود الشريعة وذلك كتحريم المباح أو إيجاب ما ليس بواجب ويدخل فيه الخروج ببعض الأنبياء أو الصالحين عن حد البشرية بوصفهم بصفات الألوهية.

- ومنها القصور في فهم نصوص الشريعة، ويتجلى هذا الأمر في النظرة الجزئية القاصرة لنصوص الشريعة.

فمثلا. وردت النصوص الشرعية في الوعد والوعيد. فنصوص الوعد تبعث في قلوب الخائفين والمذنبين الرجاء والأمل في التوبة والوعد بالمغفرة والرحمة لكل من أقبل على الله تائبا من ذنبه.

وفي المقابل نرى نصوص الوعيد تتوعد الكفار والمشركين وأهل الكبائر المصرين على ذنوبهم بأليم العذاب وشديد العقاب إذا لم يتوبوا ويؤمنوا. فإن تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات تاب الله عليهم.

فهذه هي النظرة المتكاملة في باب الوعد والوعيد ولكن قصور الفهم يأتي من النظرة الجزئية إلى أحد الجانبين وإهمال الجانب الآخر والإعراض عنه، ومحاولة التأويل المتعسف للنصوص الشرعية.

كما وقع ذلك من الخوارج والمرجئة. فالخوارج غلبوا نصوص الوعيد وأهملوا نصوص الوعد، فحكموا بكفر مرتكب الكبيرة وتخليده في النار. وأما المرجئة فغلبوا نصوص الوعد وأهملوا نصوص الوعيد للعصاة فزعموا أنه لا تضر مع الإيمان معصية وعطلوا بذلك جزءا كبيرا من نصوص الشرع.

ومثلهم غلاة المتصوفة في الرسول ﷺ حين غلوا فيه حيث نظروا إلى جانب التعظيم للرسول ﷺ وأهملوا جانب التوحيد وسد الذريعة إلى الشرك، والسبب الذي أوقعهم في ذلك هو النظرة الجزئية القاصرة لنصوص الشرع، دون جمع النصوص بعضها إلى بعض حتى تكتمل النظرة ويصح الحكم عليها. لكن الجهل بمقاصد الشريعة مع غلبة الهوى وعدم البصيرة هو الذي أوقع المبتدعة فيما وقعوا فيه.

يقول الشاطبي (١) :

(ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد. وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض. فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المترتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بينها، إلى ما

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (. . . - ٧٩٠ هـ) فقيه . أصولي . لغوي . مفسر . . من تصانيفه عنوان التعريف بأسرار التكليف ، والموافقات في أصول الأحكام ، وعنوان الاتفاق في علم الاشتقاق وغيرها . انظر : معجم المؤلفين ، ١١٨/١- ١١٩ ، والأعلام ، ٧٥/١ .

سوى ذلك من مناحيها.... فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضا كأعضاء الإنسان.. وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما، أي دليل كان، عفوا وأخذا أوليا، وإن كان ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي. فكان العضو الواحد لا يعطي في مفهوم أحكام الشريعة حكما حقيقيا. فمتبعه متبع متشابه، ولا يتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد الله به ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١) (٢) .

ثانيا- اتباع الهوى:

يطلق الهوى على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء. وهو غالبا ما يطلق على الزيغ والضلال.

واتباع الهوى هو الانحراف عن الحق إلى الباطل لزيغ في القلب وفساد في العقل. وهو طريق كل حائد عن الصراط المستقيم من الضالين، كما أن اتباع الحق والهدى سبيل المؤمنين.

وقد ورد في القرآن ذم الهوى واتباعه والتحذير منه في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٥) واتباع الهوى من أكبر أسباب الغلو في الدين. ويتمثل هذا في تحسين

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٢ .

(٢) الاعتصام . لأبي إسحاق إبراهيم بن مومى اللخمي الشاطبي ، طبع دار الفكر بيروت ، ٢٤٤/١ - ٢٤٥ .

(٣) سورة الروم آية : ٢٩ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١١٩ .

(٥) سورة المائدة آية : ٧٧ .

الظن بالعقل وجعله حاكما على الشرع كما وقع هذا بين طوائف المتكلمين والصوفية، حيث ابتدعت كل طائفة أصولا وقواعد حكمت با على النصوص، فما وافقهم قبلوه، وما خالفهم ردوه بنوع تأويل أو تحريف أو قدح في رواته أو نفيه إن كان خبر آحاد. إلى غير ذلك من الشبه الباطلة.

فلما لم يضعوا الشرع في مكانه، وغلوا في تقديس عقولهم وقعوا في المهالك.

ثالثا- الاعتماد على الأحاديث الواهية والموضوعة:

إن حدوث الوضع في الحديث والكذب على رسول الله ﷺ لم يكن شيئا عفويا بل كان تيارا منظما أحدثته الزنادقة كيدا للإسلام، وتنفيسا لكوامن حقدهم عليه. وتجلى ذلك في محاولة تشويه الإسلام بإدخال رواسب أفكارهم ومعتقداتم التي عمها الإسلام، فأخرجوها في قالب الأحاديث حتى تروج على العامة. وتعتبر الشيعة أوضح مثال على ذلك، حيث وضعوا الأحاديث في فضائل علي ومناقب آل البيت، والإمامة وسائر عقائدهم، ففتحوا بذلك باب الغلو في الأشخاص في هذه الأمة.

يقول ابن أبي الحديد الشيعي المعتزلي (١)

" واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة، فإنم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلقة في صاحبهم. حملهم على وضعها عداوة خصومهم (٢)

ويهمنا في هذا النص اعتراف أحد كتابم بذلك، وكما قيل: الاعتراف سيد الأدلة. كما قام بعض ضلال الفرق بوضع الحديث تأييدا لمذهبه وردا على خصومه. وقد كان للزنادقة خاصة في العصر العباسي الأول دور في وضع الحديث في كافة جوانب الدين

---

(١) هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين أبو حامد بن أبي الحديد المدائني (٥٨٦- ٦٥٥هـ) كاتب، شاعر، أديب شيعي غال، ومن أعيان المعتزلة أيضا، نشأ بالمدائن ثم سار إلى بغداد فكان أحد الكتاب والشعراء بديوان الخليفة، وكانت له حظوة عند الوزير ابن العلقمي الرافضي لما بينهما من المناسبة والمشابة في التشيع والأدب. انظر ترجمته في: البداية والنهاية، ١٣/١٩٩- ٢٠٠، ووفيات الأعيان ١٥٨/٢.

(٢) شرح نج البلاغة لابن أبي الحديد. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع مطبعة عيسى الحلبي، مصر، ١٣٨١هـ ٤٨/١١ - ٤٩.

وأهمها الاعتقاد.

وكان قصدهم من وراء ذلك تشويه الإسلام، وتنفير الناس منه فكانت هذه الأحاديث رصيدا لمن أتى بعدهم من الغلاة يعتمد عليها ويستدل با. وقل أن يوجد فكر منحرف أو عقيدة غالية إلا ووراءها أحاديث موضوعة وواهية.

رابعا- رواسب الديانات القديمة:

مع اتساع موجة المد الإسلامي بكثرة فتوح البلدان، دخل في الإسلام أجناس شتى طائعين ومكرهين. ولم يكن انتشار الإسلام بذه السرعة يوافق رضا كثير من أعدائه بل كان شجى في حلوقهم وغيظا في قلوبم وقذى في أعينهم لما رأوا أن الدولة للإسلام، وأن مقاومته وحربه بالسيف غير ممكنة ولا مجدية، دخلوا في الإسلام متظاهرين ليكيدوا له من الداخل، فراحوا يشوهون صورته ويمزقون وحدته، وراموا أحياء وثنياتم من خلاله، وإفساد صفاء العقيدة الإسلامية.

وساعدهم على ذلك الفتن التي حدثت بعد مقتل عثمان ﵁ والتي كانت سببا في تفرق الأمة إلى شيع وأحزاب. ثم أعقب ذلك ظهور الفرق الكلامية بآرائها ومعتقداتا. والمتأمل في تاريخ الفرق الكلامية وآرائها المخالفة لمعتقد أهل السنة والجماعة يرى تأثر الأفكار الدخيلة، من يهودية ونصرانية ومجوسية وفلسفات وثنية، يونانية وهندية ومصرية.

وقد حاول أعداء الإسلام جهدهم والتوفيق بين هذه الأفكار وبين الإسلام وإلباسها ثوب الإسلام، فظهر ما يسمى بالفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، والتصوف الإسلامي، والفرق الإسلامية، على اختلاف آرائها ومقالاتا والتي بدا تأثير هذه الأفكار واضحا عليها. كما كان وراء نشأة كل فرقة أناس أسلموا ظاهرا مع كفرهم باطنا، كان هؤلاء رواد هذه الفرق ومؤسسيها. فمنهم عبد الله بن سبأ رأس الشيعة ومؤسسها والذي وضع لهم أساس العقائد الباطلة الموروثة إلى يومنا هذا، وذلك كالرجعة أي رجعة علي ﵁ بعد موته إلى الدنيا قبل يوم القيامة وأنه سيـ ل إلى الأرض فيملؤها عدلا كما ملئت جورا.

وكان يقول: " العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع وقد قال

الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [1] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى فوضع لهم أساس رجعة الأئمة بذلك وهو الذي وضع لهم أساس الوصية. وأن عليا خاتم الأوصياء كما أن محمدا خاتم الأنبياء وكان يقول: " أنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي. وكان علي وصي محمد ﷺ فمحمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ".

ثم قال بعد ذلك: " ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ " وكان يقول وهو في يهوديته في يوشع بن نون بعد موسى، مثلما قال في علي بعد رسول الله ﷺ. كما أنه أول من أظهر الطعن في الصحابة والتبرؤ منهم إلى غير ذلك من السموم التي نفثها في الشيعة فاتخذوها عقائد يعتقدونا، ودينا يتعبدون به [2] وقد كانت الشيعة مرتعا خصبا لتقبل هذه الأفكار وغيرها وذلك لقلة عقولهم وضعف تمييزهم.

وهكذا كان وراء كل فرقة عناصر أجنبية أتت بأفكارها وعقائدها المأخوذة من الديانات القديمة.

فقد كان وراء بدعة القدر رجل يقال له (سوسن) كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد بدعته في القدر [3] وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن أصل بدعة جهم بن صفوان في التعطل ونفي الصفات مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له

---

(١) سورة القصص آية : ٨٥ .

(٢) انظر : تفصيل عقائد السبئية في : الملل والنحل . لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني . تحقيق . محمد سيد كيلاني دار الصرفة بيروت ١٤٠٤ هـ ، ١٧٣١١ وما بعدها . وانظر عبد الله بن سبأ في أحداث الفتنة في صدر الإسلام . تأليف سليمان بن حمد العودة ط ١ ، دار طيبة . الرياض ١٤٠٥ هـ ، ص ١٩٩- ٢٤١ .

(٣) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي . تحقيق د . أحمد محمد حمدان . نشر دار طيبة . الرياض ٤/٧٤٩- ٧٥٠ .

صفة ثبوتية أصلا [1] وإذا كان هذا التأثير قد تم بواسطة أشخاص امتلأت قلوبهم حقدا على الإسلام فلا ينبغي أن نغفل الدور المنظم الذي قام به اليهود والنصارى والمجوس ومن مالأهم من الزنادقة الذي سعوا بكل جهدهم في محاولة تشويه الإسلام بإدخال العقائد الباطلة والأفكار الهدامة إلى ساحة الإسلام.

(١) انظر : مجموع الفتاوى ، ٦٦٠/١- ٦٧ .

المبحث الثاني

الغلو في الرسل عند اليهود والنصارى

ينطلق الغلو في الأنبياء من رفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إياها ويحدث هذا الغلو حينما يوصف بعض الأنبياء بصفات الألوهية أو يوصف النبي بأنه ابن الله. ولقد حدث في تاريخ بني إسرائيل أن ادعى اليهود أن عزيرا ابن الله كما ادعت النصارى أن المسيح ابن الله.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1] أما اليهود فقد كان سبب غلوهم في عزير هو ما وقع على يديه من معجزات مثل كتابة التوراة من حفظه بعد أن نسخها الله من صدور اليهود وما وقع له من إحيائه بعد موته مائة عام. فلما ضاقت عقولهم عن التمييز بين فعل الله وقدرته وبين قدرة البشر المحدودة نسبوا ذلك إلى عزير وقالوا عنه إنه ابن الله.

قال ابن عباس رضي الله عنه معللا قول اليهود أن عزيرا ابن الله: " إنما قالوا ذلك لأنهم لما عملوا بغير الحق أنساهم الله التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا عزير الله تعالى، فعاد إليه الذي نسخ من صدورهم ونزل نور من السماء فدخل جوفه، فأذن في قومه فقال: قد آتاني الله التوراة، فقالوا: ما أوتيها إلا لأنه ابن الله ".

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: " إن بختنصر لما ظهر على بني إسرائيل، وهدم بيت المقدس وقتل من قرأ التوراة كان عزير غلاما فتركه. فلما توفي عزير ببابل، ومكث مائة عام، ثم بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل، وقال أنا عزير فكذبوه وقالوا: قد حدثنا آباؤنا أن عزيرا مات ببابل، فإن كنت عزيرا فاملل علينا التوراة، فكتبها لهم، فقالوا

(١) سورة التوبة آية : ٣٠ .

هذا ابن الله " [١]

فهذه الرواية الثانية بينت أن عزيرا كان نبيا من أنبياء بني إسرائيل وأنه مات ثم بعثه الله بعد مائة عام. كما ذكر الله ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [٢] فلما بعثه الله إلى بني إسرائيل كتب لهم التوراة من حفظه بعد أن مات الحفاظ في غزو بختنصر لبيت المقدس. فلما ضاقت عقول اليهود عن استيعاب هذه المعجزة والإيمان بالله الذي أجراها على يد عبده ونبيه عزير قالوا إنه ابن الله.

وأما النصارى فقالوا عن المسيح عيسى ابن مريم أنه ابن الله إما لأنه ولد من غير أب أو لأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله فلأجل هذا ادعوا أنه ابن الله. والقائل لهذا ليس هم أصحاب عيسى وإنما قال ذلك بولس ومن أغواهم من النصارى بعد موت عيسى بوقت طويل ولبس عليهم بذه الشبه فآل أمر النصارى إلى أن أصبحوا مشركين بسبب قولهم إن عيسى هو الله أو ابن الله وقد رد الله عليهم في القرآن في أكثر من موضع وبين أن دعواهم مجرد قول عار عن الدليل والبرهان، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ، ط١ ، طبع المكتب الإسلامي ، دمشق ، بيروت ، ٤٢٣/٣ - ٤٢٤ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٩ .

وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ (1) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (2) وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (3)

وعلى هذا فمبدأ الانحراف والغلو يكون في عدم التمييز بين قدرة الله العظيمة وقدرة العبد ولو كان نبيا، وبين المعجزة التي هي بقدرة الله وبين فعل النبي ثم يتطور الانحراف حتى يظن أن هذه الأفعال صادرة من النبي بقدرته إما لأنه إله أو لأنه ابن الله.

وقد كان النصارى أكثر غلوا من اليهود، ذلك أن الذين قالوا أن عزيرا ابن الله هم قلة من اليهود على خلاف بين المفسرين في ذلك (4).

بينما كان غالبية النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله أو أنه الله على اختلاف مذاهبهم في هذا الاعتقاد وقد رد القرآن عليهم وفند شبههم ثم ناهم عن الغلو في عيسى

(١) سورة المائدة ، آيات (٧٢-٧٧) .

(٢) سورة آل عمران آية : ٥٩ .

(٣) سورة النساء ، آيات (١٧١-١٧٢) .

(٤) انظر : تفسير ابن جرير . تحقيق محمود محمد شاكر ، ٢٠١/١٤- ٢٠٢ .

عليه السلام.

وفي نهي الله في القرآن لأهل الكتاب عن الغلو تحذير لنا نحن المسلمين عن أن نسلك مسالكهم في الغلو في الأنبياء والصالحين فيصيبنا ما أصابهم وقد نبه الرسول ﷺ حين نهى أمته عن إطرائه والمبالغة في مدحه بأن هذا شبيه لفعل النصارى في غلوهم في عيسى عليه السلام.

فقال ﷺ فيما أخرجه البخاري بسنده عن عمر رضي الله عنه قال: ﴿ لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله ﴾ [1] [2] ومع وضوح هذا التحذير إلا أن طوائف من هذه الأمة وقعت في الإطراء والغلو الذي نهى الرسول ﷺ عنه فصاروا بذلك مشابين للنصارى ومتبعين سننهم.

وهذا ما سيتضح لنا في المباحث القادمة إن شاء الله.

(١) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦١) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : واذكر في الكتاب مريم ٢٠٤/٤ .

المبحث الثالث

الغلو في ذات الرسول ﷺ عند الشيعة

إن من العقائد الثابتة التي أكدتا نصوص الشرع وأجمعت عليها الأمة أن رسل الله أجمعين بشر من جنس المرسل إليهم. كما جرت بذلك سنة الله في المرسلين ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ﴿٦٢﴾ ﴾ (١) وإن الرسول ﷺ لم يكن بدعا من الرسل بل كان بشرا مثلهم يوحى إليه.

وبشرية الرسول ﷺ أمر واضح لكل من قرأ القرآن أو تصفح السنة أو قلب نظره في سيرته وأحواله.

ومع وضوح هذا الأمر لعامة المسلمين وخاصتهم إلا أننا نرى بعض الطوائف المنتسبة إلى الإسلام غلت في الرسول ﷺ بما يخرجه عن حد البشرية، ولقد كان الشيعة أول من فتح باب الغلو في الأشخاص وذلك بغلوهم في علي رضي الله عنه وذريته حتى ذهبوا في ذلك مذاهب شتى فمنهم من ادعى أن عليا وذريته معصومون ومنهم من ادعى أن عليا كان نبيا، ومنهم من غلا فيه حتى ادعى أنه إله وأن روح الإله حلت فيه وفي الأئمة من ذريته (٢) ولما كان علي رضي الله عنه ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته، ووصيه وخليفته من بعده -على مذهبهم- كان طبعيا أن يبتدأ غلوهم من رسول الله ﷺ ويأخذ دور التسلسل إلى علي رضي الله عنه والأئمة من ذريته، لذلك نجد لدى غلاة الشيعة عقائد باطلة تدور حول أزلية وجود الرسول ﷺ وأسبقيته على الكون وأنه ليس كسائر البشر، بل هو مخلوق من نور.

وقد روى الكليني (٣) نصا منسوبا زورا وبتانا إلى جعفر الصادق يدور حول أزلية

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٦٢ .

(٢) انظر : عقائد الشيعة في مقالات الإسلاميين للأشعري ، ص٥ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادي ، ص ٢٩ وما بعدها .

(٣) هو أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (. . . - ٣٢٨ هـ) من كبار فقهاء الشيعة الإمامية وله كتاب الكافي جمع فيه أحاديث الشيعة وهو عندهم بمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة . وقد جمع فيه من

وجود النبي ﷺ أو ما يطلق عليه الصوفية الحقيقة المحمدية أو النور المحمدي.

يقول النص على لسان جعفر الصادق:

(كنا عند الله وليس عنده أحد سوانا لا ملك ولا غيره ثم بدا له فخلق السماوات والأرض فخلق ونحن معه.

.... ونصب الخلق في صورة كالهباء قبل دخول الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته، وتوحيد جبروته، وأتاح نورا من نوره فلمع، ونزع قبسا من قبسه فسطع، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصورة الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد ﷺ فقال الله عز من قائل أنت المختار والمنتخب وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسطح البطحاء، وأموج الماء، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار، وأنصب أهل بيتك للهداية، وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يشكل به عليهم دقيق، ولا يغيب عنهم به خفي، وأجعلهم حجتي على بريتي والمنبهين على قدرتي ووحدانيتي.

.... ولم يزل الله تعالى يخبئ النور تحت الزمان إلى أن وصل محمدا في ظاهر الفترات، فدعا الناس ظاهرا وباطنا... ثم انتقل النور إلى غرائزنا، ولمع في أئمتنا فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض، فبنا النجاة، ومنا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور وبمهدينا تنقطع الحجج، خاتم الأئمة، منقذ الأمة، وغاية النور ومصدر الأمور) (١)

وقد ذكر الأشعري في مقالات الإسلاميين أن الصنف الخامس عشر من أصناف غلاة الشيعة، يزعمون أن الله ﷻ وكل الأمور وفوضها إلى محمد ﷺ وأنه أقدره على خلق الدنيا فخلقها ودبرها وأن الله سبحانه لم يخلق من ذلك شيئا ويقول ذلك كثير منهم في علي (٢) وجاء في المسائل المجموعة من الحقائق العالية والدقائق من كتب الإسماعيلية ما

الشناعات والطامات والافتراءات على أهل البيت ما لا يعلمه إلا الله . انظر : لسان الميزان لابن حجر ، ٥/ ٤٣٣ ، والأعلام ١٤٥/٧ .

(١) الفلسفة الصوفية في الإسلام . د . عبد القادر محمود ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، مصر ١٩٦٧م ، ص ٥٧٩-٥٨٠ نقلا عن الكافي ، ص ٢٧٦ .

(٢) مقالات الإسلاميين ، ص١٦ .

نصه: (ليس بين المبدع الأول ومبدعه تعالى شيء من نور ولا غيره، والذي سمعت من ذلك هو أن السابق لما سبق أبناء جنسه إلى توحيد مبدعه. طرقه من مبدعه مادة إلهية اطلع بها على علم ما كان وما يكون وأن تلك المادة شائعة في ذات المبدع الحاملة لها فلا فرق بينه وبينها بل هو هي وهي هو.

كما أن العلم المتصل بكل متعلم إذا وصل النفس الحاملة له لم يبق فرق بين العلم والنفس الحاملة له وصارت تلك المادة إلهية سارية من المبدع الأول إلى من دونه من عقول عالم الإبداع وعقول عالم الطبيعة فهي عمود النور الساري فيما بين العقول وبين المبدع الأول) [1] .

ونجد في هذا النص تشابها بين المبدع الأول الذي فاضت عليه مادة إلهية فصار ممدا لغيره بذلك الفيض الإلهي، وبين الحقيقة المحمدية أو الروح المحمدي الذي أمد جميع الأنبياء والأولياء بالوحي والعلم الباطني كما ذهب إلى ذلك ابن عربي ومن تابعه على ما سيأتي بيانه.

---

(١) المسائل المجموعة من الحقائق العالية والدقائق ، ضمن مجموعة رسائل إسماعيلية ، طبع مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ٥٩ .

المبحث الرابـع

الغلو في الرسول ﷺ عند الصوفية

إذا كان الشيعة أول من فتح باب الغلو في هذه الأمة بغلوهم في علي رضي الله عنه والأئمة من ذريته حسب زعمهم فإن الصوفية قد انتقلت إليها عدوى الغلو من الشيعة في المقام الأول. وهناك تشابه كبير في كثير من الجوانب بينهما. فإذا كان المذهب الشيعي قد دار فيه الغلو حول علي رضي الله عنه والأئمة من ذريته فإن الغلو عند الصوفية قد دار حول الرسول ﷺ والأولياء من بعده أو بالأصح حول الحقيقة المحمدية- حسب تعبيرهم والأولياء من بعد.

وإذا وجد في غلاة الشيعة من قال إن روح الإله قد حلت في النبي ﷺ ثم في علي رضي الله عنه وأولاده من بعده، فقد وجد في الصوفية من يقول بالحلول كالحلاج مثلا. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

فكانت الشيعة المتأثرة بالتراث الـوسي اليهودي لدى السبئية وفرق الغلاة ثم التراث الفلسفي اليوناني والمصري لدى الإسماعيلية القرامطة أصحاب رسائل إخوان الصفاء كان هؤلاء هم المعبر الرئيسي لانتقال العقائد الباطلة إلى الصوفية [(1)].

وقد أكد ابن خلدون هذه الصلة بين التصوف والتشيع في حديثه عن مذهب وحدة الوجود وتوابعه فقال: (وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر فاختلط كلامهم وتشابت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان. وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها فقال: جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد.

وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو

---

(١) انظر الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٥٧٧ وما بعدها .

بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به.

ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال [١] بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء [٢].

حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم رفعوه إلى علي ﷺ وهو من هذا المعنى أيضا وإلا فعلي ﷺ لم يختص من بين الصحابة بتخلية، ولا طريقة في لباس ولا حال، بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة) [٣].

ويؤكد المعاصرون من الشيعة والصوفية على حد سواء هذه الصلة بينهما.

يقول سيد حسين نصر:

".... فقد كانت هناك بعض الصلات بين التصوف والتشيع - وعلى الأخص بطابعه الإسماعيلي - كما يبدو مما ذكره إخوان الصفا عن التصوف في سائلهم وهم إن لم يكونوا حتما من أصل إسماعيلي، فهم بلا ريب قد نشئوا في وسط شيعي، واقترن ذكرهم فيما

(١) الأبدال جمع بدل واختلف في عددهم فقيل سبعة وقيل ثلاثون وقيل أربعون كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلا . وقد ورد فيهم حديث ضعيف منقطع الإسناد عن عليمرفوعا إلى النبي " الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف بهم من أهل الشام العذاب " (المسند ، ١١٢/١) . وأخرج الإمام أحمد بسنده عن عبادة بن الصامت مرفوعا : " الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمنكلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلا ، قال الإمام أحمد عقبه : حديث منكر (المسند ، ٣٢٢/٥) وأحاديث الأبدال كلها موضوعة أو واهية منكرة لا تثبت بمثلها حجة . انظر : السلسلة الضعيفة للألباني ، ٣٣٩/٢- ٣٤١ . وانظر لنقد فكرة الأبدال . مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٤٣٣/١١ وما بعدها .

(٢) النقباء جمع نقيب وهو السيد المطاع في قومه وقد كانوا في بني إسرائيل اثنا عشر نقيبا على عدد الأسباط ، لقوله تعالى : ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا المائدة ، آية (١٢) وحينما بايع الرسول الأنصار ليلة العقبة جعل عليهم اثني عشر نقيبا يتولون أمر الدعوة بين أهليهم وعشيرتهم . والشيعة الإمامية الاثنا عشرية قالوا بإمامة اثني عشر من آل البيت عددهم كعدة نقباء بني إسرائيل . فمن هنا شاع على الأئمة لفظ النقباء .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، طبع المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ص ٤٧٣ .

بعد بالحركة الإسماعيلية [1] ولم تكن هذه الصلة بين التصوف والتشيع صلة عفوية من قبيل التأثير والتأثر المجرد بل كانت تيارا منظما هدفه تقويض دعائم الإسلام، تأثرا بالغوصية الفارسية، وتحويل الدين إلى خليط عجيب من الفلسفة والوثنية والدين وذلك تحقيقا لآمال الفرس وغيرهم من أصحاب المبادئ الشعوبية الناقمين من انتشار الإسلام ولعل في توافق الشيعة والصوفية في أكثر البلاد وإفساح كل واحدة المجال لصاحبتها قديما وحديثا ما يؤكد ذلك الهدف المشبوه. على أن التشيع لم يكن هو الرافد الوحيد الذي أمد الصوفية بهذه العقائد والأفكار فقد كانت هناك روافد أخرى متمثلة في التراث الهندي الذي اقتبس منه الصوفية كثيرا من نظرياتهم في المجاهدة والسلوك والزهد. كما أخذوا من النصارى الرهبنة والخلوات والخوانق التي تشبه الأديرة كما أخذوا عنهم مذهب الغنوصية [2]

وعن الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة أخذوا فكرة العقول العشرة ووحدة الوجود [3] وقد استمد الصوفية عقائدهم وأفكارهم من كل مصدر وسعهم أن يستمدوا منه وحاولوا أن يصوغوها في قالب إسلامي حتى يقبلها العامة.

لكن الذي يهمنا في هذا المجال هو غلو الصوفية في الرسول ﷺ وسآخذ مثالين من الصوفية:

أولهمـا: الحلاج باعتباره أول صوفي ادعى الألوهية بحلول الله فيه كما أنه أول من غلا في الرسول ﷺ بادعائه أن الله حل فيه وقوله بقدم النور المحمدي.

ثانيهمـا: ابن عربي باعتباره صاحب مذهب وحدة الوجود في المحيط الصوفي ولأنه

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية : محمود عبد الرؤوف القاسم ، ط ١ ، دار الصحابة بيروت ١٤٠٨ هـ ، ص ٧٨٤ ، نقلا عن الصوفية بين الأمس اليوم ، ص ١٣٤ .

(٢) الغنوصية : كلمة يونانية معناها المعرفة ولكنها تطورت حتى صارت تعني التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا أو تذوق المعارف تذوقا مباشرا بطريقة الكشف وهذا هو معنى الذوق عند الصوفية . انظر : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص ٤ وما بعدها .

(٣) انظر : تفصيل ذلك في الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص٣ وما بعدها والكشف عن حقيقة الصوفية ، ص ٧٤٧ وما بعدها .

أشهر من قال بالحقيقة المحمدية التي هي أعظم مظهر تجلى فيه الحق بزعمه.

كما كان لآراء ومعتقدات ابن عربي أكبر الأثر في انحراف أكثر الصوفية إلى مذهب وحدة الوجود.

وسأتحدث في المطلبين القادمين عن الحلاج، ثم عن ابن عربي.

المطلب الأول

الغلو في الرسول ﷺ لدى الحلاج

يعتبر الحلاج (١) أول صوفي جاهر بعقيدة الحلول في أوساط الصوفية إذ كان يرى أن

---

(١) هو الحسين بن منصور ، ويكنى أبا مغيث ، كان جده مجوسيا اسمه محمي من أهل البيضاء بفارس ، وفيها ولد الحلاج سنة ٢٤٤هـ . وكانت نشأته بواسط وقيل بتستر وتتلمذ على سهل بن عبد الله التستري ثم قدم بغداد وخالط الصوفية ، وتعرف على عمرو بن عثمان المكي . ولبس خرقة الصوفية على يديه ، ثم ترك بغداد وتجول في البلاد فذهب إلى مكة مرارا وجاور فيها ، وذهب إلى الصين وتركستان ، ودخل الهند وتعلم فيها السحر ، وقال أدعو به إلى الله!! وكان الحلاج متلونا في ملابسه وأحواله فتارة يلبس ملابس الصوفية ، وتارة يتجرد في ملابس رزية ، وتارة يلبس لبس الأجناد ويعاشر أبناء الأغنياء والملوك . وكان مع كل قوم على مذهبهم سواء أكانوا أهل سنة أم رافضة أم معتزلة أو صوفية أو فساقا . وكان دجالا ساحرا صاحب مخاريق وأحوال شيطانية . كما كان صاحب دعوة باطنية، تَسَتر بالزهد وتضمر الزندقة والإلحاد واتخذ دعاة له بثهم في البلدان يدعون الناس إلى الزندقة . ولأجل تلونه وتقلبه اختلف الناس في أمره ، فقد حكي عن غير واحد من العلماء والأئمة إجماعهم على قتله وأنه قتل على كفره وزندقته وبذا قال أكثر الصوفية في عصره ، ومنهم طائفة غرهم ظاهره ولم يطلعوا على باطنه فأجملوا القول فيه وبعض هؤلاء كان متابعا له في الباطن غير أنه لم يجرؤ على الظاهرة بذلك . أما معظم الصوفية بعده إلى يومنا هذا فيعتقدون ولايته وأنه مات شهيدا!! وهذا من جهلهم بالشرع وقلة مبالاتهم بإجماع الفقهاء ، وإلا فقد كان الحلاج زنديقا كافرا حلوليا يدعي الألوهية . وقد اتفق علماء بغداد على كفره وزندقته ، وأجمعوا على قتله وصلبه ، وكان علماء بغداد إذ ذاك هم الدنيا . ولما ورد الحلاج آخر مرة إلى بغداد جعل يدعو إلى مذهبه الفاسد ويظهر أشياء من المخاريق والحيل الشيطانية ، واستغوى أناسا خدعهم حتى صاروا يتابعونه ويعتقدون ألوهيته وشاع خبره فأحضر وحضر معه جماعة من أصحابه وأقروا بأنه يدعى الألوهية وأنه يحيي الموتى . فأنكر ذلك منهم . وفي آخر مجلس من مجالس محاكمته جيء به وقد أحضر له كتاب من دور بعض أصحابه ، وفيه يقول : " من أراد الحج ولم يتيسر له فليبن في داره بيتا لا يناله شيء من النجاسة ولا يمكن أحدا من دخوله ، فإذا كان في أيام الحج فليصم ثلاثة أيام وليطف به كما يطاف بالكعبة ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة ثم يستدعي ثلاثين يتيما فيطعمهم من طعامه ، ويتولى خدمتهم بنفسه ، ثم يكسوهم قميصا قميصا ، ويعطي كل واحد منهم سبعة أو ثلاثة دراهم ، فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج . وأن من صام ثلاثة أيام لا يفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندباء أجزأه ذلك عن

من هذب نفسه بالطاعة، وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه حظ من البشرية حل فيه الإله الذي حل في عيسى ابن مريم، ولم يرد حينئذ شيئا إلا كانا كما أراد، وكان جميع فعله فعل الله [1] وقد ادعى الحلاج أن روح الله حلت فيه كما حلت في الأنبياء من قبل- حسب زعمه - وكلامه في ذلك واضح في أشعاره، وكتبه التي خلفها.

وفي ذلك يقول:

أنــا مــن أهــوى ومــن أهــوى أنا ... نحــن روحــان حللــنا بدنــا
فــإذا أبصــرتني أبصــرته ... وإذا أبصــرته أبصــرتنا

ويقول:

مزجــت روحــك في **روحــي كمــا ... تمــزج الخمــرة** في **المــاء الــزلال**
فــإذا مســك شــيء مســني ... فــإذا أنــت أنــا في **كــل حــال**

وهو القائل:

صيام رمضان ، ومن صلى في ليلة ركعتين من أول اليل إلى آخره أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك . وأن من جاور بمقابر الشهداء وبمقابر قريش ببغداد عشرة أيام يصلي ويدعو ويصوم ثم لا يفطر إلا على شيء من خبز الشعير والملح الجريش أغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره " . فقال له القاضي من أين لك هذا ؟ فقال : من كتاب الإخلاص للحسن البصري . فقال كذبت يا حلال الدم ، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة ليس فيه شيء من هذا . فكتب القاضي بإهدار دمه وقتله وتبعه الفقهاء على ذلك فأخذ وضرب ألف سوط ، ثم قطعت يداه ورجلاه وحز رأسه وأحرقت جثته وألقي رماده في نهر دجلة سنة ٣٠٩هـ . انظر ترجمته في : - تاريخ الأمم والملوك للطبري ، ٧٩/١١ وما بعدها . - تاريخ بغداد ، ١١٢/٨ وما بعدها . - المنتظم لابن الجوزي ، ١٦٠/٦ وما بعدها . - البداية والنهاية ، ١٣٢/١١ وما بعدها . - سير أعلام النبلاء ، ٣١٣/١٤ وما بعدها .

(١) الفرق بين الفرق ، ص٢٦٣ .

سبحان من أظهر ناسوته — سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهرا — في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه — كلمحة الحاجب بالحاجب

ويقول:

أنا أنت بلا شك — فسبحانك سبحاني
فتوحيدك توحيدي — وعصيانك عصياني

ويتمادى الحلاج في كفره حين يقول:

كفرت بدين الله والكفر واجب — لدي وعند المسلمين قبيح

ويقول:

إذا بلغ الصب الكمال من الهوى — وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
فيشهد صدقا حيث أشهده الهوى — بأن صلاة العاشقين من الكفر

ويقول:

ألا أبلغ أحبائي بأني — ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتي — فلا البطحا أريد ولا المدينة

هذه نبذ من شعره توضح اعتقاده بالحلول وتصرح بكفره الذي أقر به على نفسه، بل اعتقد أن الكفر بدين الإسلام واجب عليه. فلا عجب بعد ذلك إذا ادعى الألوهية قائلا:

أنا الحق والحق للحق — لابس ذاته فما ثم فرق (١)

وكان يكتب إلى أتباعه واصفا نفسه بالألوهية، ويستتر بين العامة بالتصوف. ومع ادعائه للألوهية كان يتكلم على طريقة فلاسفة الصوفية عن بدء العالم وكيف خلقه الله

(١) هذه النصوص نقلتها من كتاب الصوفية في الإسلام ، ص٣٦٢ وما بعدها .

فيقول:

(تجلى الحق لنفسه في الأزل قبل أن يخلق الخلق، وقبل أن يعلم الخلق وجرى له في حضرة أحديته مع نفسه حديث لا كلام فيه ولا حروف، وشاهد سبحات ذاته في ذاته، في الأزل حيث كان الحق ولا شيء معه، نظر إلى ذاته فأحبها، وأثنى على نفسه فكان هذا تجليا لذاته في ذاته في صورة المحبة الم هة عن كل وصف وكل حد، وكانت هذه المحبة علة الوجود والسبب في الكثرة الوجودية ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتي ماثلا في صورة خارجية يشاهدها ويخاطبها فنظر في الأزل، وأخرج من العدم صورة من نفسه لها كل صفاته وأسمائه وهي آدم الذي جعله الله صورته أبد الدهر، ولما خلق آدم على هذا النحو عظمه ومجده فاختاره لنفسه، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه، هو هو) [1] فالحلاج في هذا النص يؤكد على مذهبه في الحلول، وأن الإله قد حل في آدم، فصار بذلك الإنسان الإلهي، أي الذي حلت روح الإله فيه. والمقصود بآدم عند الحلاج ومن- سلك مسلكه من فلاسفة الصوفية- هو النوع الإنساني ابتداء بآدم واستمرارا في الأنبياء حتى محمد ﷺ والأولياء من بعده. وكلام الحلاج في هذا النص كله من قبيل التصوف الفلسفي الوثني عن بداية الخلق متأثرا في ذلك بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة وقد كذبهم الله تعالى بقوله ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [2] لكن يهمنا في هذا الـ ال موقف الحلاج من الرسول ﷺ الذي يدور حول النور المحمدي؛ إذ يرى الحلاج أن للنبي ﷺ صورتين مختلفتين:

(أ) صورته نورا أزليا قديما كان قبل أن يوجد العالم ومنه استمد كل علم وعرفان حيث أمد الأنبياء السابقين عليه والأولياء اللاحقين به.

(ب) ثم صورته نبيا مرسلا وكائنا محدثا تعين وجوده في مكان وزمان محدودين والنبي

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٦١ ، نقلا عن الطواسين للحلاج ، ص ١٢٩- ١٣٠ .
(٢) سورة الكهف آية : ٥١ .

المرسل ﷺ إنما صدر في رسالته عن ذاك النور الأزلي القديم (1) يقول الحـلاج:

(" طس " سراج من نور الغيب بدأ وعاد، وجاوز السراج وساد. قمر تجلى بين الأقمار. برجه في فلك الأسرار... ما أخبر إلا عن بصيرته، ولا أمر بسنته إلا عن حق سيرته، حضر فأحضر، وأبصر فخبر... أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم سوى نور صاحب الكرم... همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم، ما كان في الآفاق وراء الآفاق ودون الآفاق. أظرف وأشرف وأعرف وأنصف وأرأف وأخوف وأعطف من صاحب هذه القضية وهو سيد البرية، الذي اسمه أحمد، ونعته أوحد، وأمره أوكد، وذاته أوجد، وصفته أمجد، وهمته أفرد، يا عجبا ما أظهره وأنظره وأكبره وأشهره وأقدره وأبصره، لم يزل، كان مشهورا قبل الحوادث والكوائن والأكوان، ولم يزل، كان مذكورا قبل القبل وبعد البعد.. هو الدليل وهو المدلول... بالحق موصول غير مفصول، ولا خارج عن المعقول... العلوم كلها قطرة من بحره... والأزمان كلها ساعة من دهره، الحق وبه الحقيقة، هو الأول في الوصلة، وهو الآخر في النبوة، والباطن بالحقيقة، والظاهر بالمعرفة... الحق ما أسلمه إلى خلقه، لأنه هو وإني هو، وهو هو ٠٠٠) (2) فهذا النص يدور حول النور المحمدي وأنه هو المصدر الذي استمد منه الأنبياء والرسل قبله، والأولياء من بعده هذا النور. ويؤكد الحلاج في هذا النص على قدم وجود النبي ﷺ وأسبقيته على وجود الكون. فيقول: " همته سبقت الهمم ووجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم ".

وبناء على ذلك نراه ينكر الوحي ويزعم أن الرسول جاء بالرسالة من ذاته وأخبر بما عن بصيرته. ويتمشى هذا منطقيا مع قوله بقدم النور المحمدي وأنه هو مصدر الوحي والإله أم لجميع الأنبياء والأولياء، ثم مع مذهبه في الحلول الذي يرى بأن الإله حل في آدم

(1) انظر : الفلسفة الصوفية ، ص ٣٧٩- ٣٨/٠ .

(2) الكشف عن حقيقة الصوفية ، ص ٢٦٣- ٢٦٤ ، نقلا عن أخبار الحلاج ص ٨٢ وما بعدها .

ثم الأنبياء من بعده. فلا حاجة مع ذلك إلى الوحي. وبذلك يكون الحلاج بمذهبه هذا قد حاول أن يصل بشخصية الرسول ﷺ عن طريق الغلو إلى ما وصلت إليه النصرانية بالغلو في عيسى إذ جعلوه الكلمة الإلهية الأزلية الحالة في الناسوت فقالوا عنه إنه ابن الله.

أما الحلاج ومن تابعه من الحلوليين فيرون أن محمدا ﷺ هو المظهر الذي حل فيه الإله أو الناسوت الذي حل فيه اللاهوت. ولم يكن هذا الحلول خاصا بالرسول بل تعدى إلى الأولياء من بعده، وهذا كفر أشنع من كفر النصارى لأن النصارى خصوا الحلول بعيسى، أما الحلاج فقد عممه في الأنبياء والأولياء على السواء.

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن غلو الحلاج في الرسول ﷺ لم يكن نابعا من حبه له. وإنما كان هدفه من وراء ذلك الغلو هو ادعاؤه للألوهية وتصريحه بحلول الله فيه، ودعوة أتباعه إلى عبادته، طالما أن حلول الإله مستمر في الأولياء بعد الأنبياء بزعمه.

ولذلك حكم عليه فقهاء عصره بردته وإهدار دمه وقتله جزاء وفاقا لكفره وزندقته.

وقد كان مقتل الحلاج بسيف الشرع سببا مهما في استتار ملاحدة الصوفية بدعوتهم الباطنية الرامية إلى إخراج المسلمين من دينهم إلى الزندقة والكفر حتى لا يحصل لهم ما حصل للحلاج. فكانوا على حذر تام من الوقوع تحت سيف الشرع، فإذا وجدوا فرصة ضعف في المسلمين جاهروا بآرائهم، كما كان مقتل الحلاج سببا لإظهار عداوة ملاحدة الصوفية للفقهاء وتنفير أتباعهم منهم.

ولم تمت أفكار الحلاج بموته، بل امتد أثرها فيمن أتى بعده من الصوفية ويدل على ذلك ثناؤهم عليه وتصويبهم لمسلكه، وتأويلهم لعباراته وكفرياته وأنه مات شهيدا إلى غير ذلك من وجوه الدفاع الصادرة إما عن جاهل بحقيقة مذهب الحلاج، أو معتقد لمذهبه مدافع عنه.

قال الذهبي في معرض ترجمته للحلاج:

(فتدبر -يا عبد الله- نحلة الحلاج، الذي هو من رؤوس القرامطة، ودعاة الزندقة، وأنصف وتورع واتق الله في ذلك، وحاسب نفسك فإن تبرهن لك أن شمائل هذا المرء

شمائل عدو للإسلام، محب للرئاسة، حريص على الظهور بباطل وبحق، فتبرأ من نحلته، وأن تبرهن لك والعياذ بالله، أنه كان- والحالة هذه- محقا هاديا مهديا، فجدد إسلامك واستغث بربك أن يوفقك للحق وأن يثبت قلبك على دينه، فإنما الهدى نور يقذفه الله في قلب عبده المسلم، ولا قوة إلا بالله، وإن شككت ولم تعرف حقيقته، وتبرأت مما رمي به، أرحت نفسك، ولم يسألك الله عنه أصلا) (1) المطلب الثاني الغلو في الرسول ﷺ عند ابن عربـ ـي

(1) سير أعلام النبلاء ، ١٤/٣٥٤ .

المطلب الثاني

الغلو في الرسول ﷺ عند ابن عربي

انتهينا فيما سبق إلى أن الحلاج كان أول صوفي غلا في الرسول ﷺ بما يخرجه عن حد البشرية منطلقا من مذهبه في الحلول.

وجاء ابن عربي (١) الذي بدأ من حيث انتهى الحلاج ليقيم مذهبا فلسفيا صوفيا مبنيا

(١) هو محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي ثم الدمشقي ، المعروف بابن عربي بالتنكير تمييزا بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي ، وينتهي نسب ابن عربي إلى عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم الطائي . ولد ابن عربي في رمضان سنة ٥٦٠ هـ بمرسية في بلاد الأندلس ثم ارتحل إلى أشبيلية بعد بلوغه ثماني سنوات وفيها حفظ القرآن وتعلم القراءات واشتغل بتحصيل الحديث وسماعه من أهل الحديث في بلاده ثم مال بعد ذلك إلى الأدب ونظم الشعر فحصل له توسع فيه وكتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب ثم بعد ذلك كله سلك طريق التصوف فتزهد وتعبد وأقبل على الخلوات وانقطع للتنسك إلى أن أصبح رأسا في التصوف الفلسفي . وكان ابن عربي بحكم نشأته في الأندلس التي كانت بمثابة الباب العربي للمسلمين على أوربا قد اطلع على ثقافات عصره والفلسفات السائدة في ذلك الوقت . ثم خرج ابن عربي بعد ذلك من الأندلس لطلب العلم ولقاء الصوفية في البلدان والاجتماع بهم فزار معظم مدن المغرب مثل سبته وفاس وتونس وتلمسان وغيرها ، ثم اتجه في رحلاته إلى المشرق راغبا في الحج ، وبعد الحج اتجه صوب العراق فدخل بغداد والموصل ثم رحل إلى مصر سنة ٦٠٣ هـ . واتصل ببعض أشباهه من الصوفية وأخذ بتأليف الرسائل والكتب وهناك ظهر منه ما يستوجب النقد والإنكار ، فأنكر عليه علماء مصر ما صدر منه وحكموا بكفره وإراقة دمه كما حكم على الحلاج وأمثاله ، وكاد أن يقتل لولا أن خلصه وشفع له الشيخ أبو الحسن علي بن فتح بن عبد الله البجائي الذي سعى في أمره وأظهر وجوه تأويل كلامه إلى أن عفي عنه . ثم رحل إلى مكة فجاور بها إلى سنة ٦٠٧ هـ وفيها ابتدأ تأليف كتابه الفتوحات المكية الذي يعتبر أكبر موسوعة صوفية شملت كثيرا من علوم الصوفية وأحوالهم غير أنه مزجه بمذهب وحدة الوجود . ثم توجه ابن عربي بعد ذلك إلى بلاد الأناضول فوصل إلى (قونيه) وكانت آنذاك عاصمة القسم الإسلامي من بلاد الروم ، وفيها صنف بعض كتبه كما تزوج فيها بأم صدر الدين القونوي فأصبح القونوي ربيبه ومن أخص تلامذته فيما بعد ، ثم رحل ابن عربي بعد ذلك إلى بغداد حيث التقى بشهاب الدين السهروردي صاحب كتاب عوارف المعارف ، ومن بغداد توجه إلى مكة ومنها إلى قونيه مرة أخرى ، ثم رجع إلى الشام ليتنقل بين قرى الشام ومدنه واستقر به الأمر آخرا في دمشق حيث أتم كتاب الفتوحات المكية وصنف فصوص الحكم ، والتفصيل في معاني التنزيل ، وغيرها من الكتب ، كما أخذ ينشر علومه ومعارفه وظل في دمشق إلى أن توفي فيها سنة ٦٣٨ هـ . ويعتبر ابن عربي من أكثر الصوفية تصنيفا إذ جاوزت تصانيفه ما يربو على المائتين ، ومن أشهر تصانيفه الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم ، وعنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب ، وإنشاء الدوائر ، والفناء في المشاهدة ، وكتاب الإسراء إلى مقام الإسرى ، ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار وغيرها . ويعد ابن عربي رأسا في تصوف أهل وحدة

على وحدة الوجود، وتفرع عن مذهبه في الوجود مذهبه في الحقيقة المحمدية التي دان بها أكثر الصوفية وآمنوا بها إيمانا عميقا.

ويتمثل غلو ابن عربي في الرسول ﷺ في قوله بالحقيقة المحمدية، ولكي نفهم مقصوده بالحقيقة المحمدية لا بد أن نعرف بإيجاز مذهبه في وحدة الوجود.

مذهب ابن عربي في وحدة الوجود:

إن القول بوحدة الوجود كمذهب فلسفي يحاول تفسير الوجود ومدى علاقته بخالقه سبحانه وتعالى قول قديم جدا عرفه الفكر الفلسفي الوثني، وعن طريقه انتقل إلى أهل الأديان من يهود ونصارى، ثم انتقل إلى المتصوفة عن طريق ابن عربي الذي حاول جهده أن يصبغه بصبغة إسلامية [(١)]. ولم يكن هذا المذهب قد أخذ صورته الكاملة في المحيط الصوفي قبل ابن عربي الذي قرر مذهب وحدة الوجود في صورته النهائية ووضع له مصطلحا صوفيا كاملا استمده من كل مصدر وسعه أن يستمد منه، كعلم الكلام والفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة والغنوصية المسيحية وغيرها من الفلسفات، كما أنه

الوجود كما كان أهل الصوفية ضلالا وزيغا ومروقا من الدين . ولكنه لم يجاهر بآرائه وزندقته وكفره إلا لخواص أصحابه وتلامذته خوفا من الوقوع تحت سيف الشرع متظاهرا بين عامة أهل العلم بالتنسك والعبادة والزهد . فلما مات وانتشرت كتبه عرف الناس حقيقة أمره وحقيقة مذهبه فحكم أكثر العلماء بكفره وزندقته وكذبه على الله ورسوله وانتصب كثير منهم للرد عليه وبيان كفره وتحذير الناس منه . وقد جمع تقي الدين الفاسي في العقد الثمين جملة من ردود العلماء وفتواهم بكفره وزندقته ، كذلك فعل برهان الدين البقاعي في تنبيه الغبي إلى تكفر ابن عربي ، ومثل ذلك فعل السخاوي في القول المبني في ترجمة ابن عربي . وبعض العلماء أثنى على ابن عربي لما رأوا من زهده وإيثاره واجتهاده في العبادة فأثنوا عليه بذا الاعتبار ولم يعرفوا ما في كلامه من الكفر ، وبعض من أثنى عليه يعرفون ما في كلامه من الباطل ولكنهم يزعمون أن له تأويلا ، وحملهم على ذلك متابعتهم له في معتقده ، فثناؤهم عليه مردود لتزكيتهم معتقدهم . وأما الصوفية فأكثرهم - إلا من رحم الله - يعدون ابن عربي الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر وكثير منهم اليوم على مذهبهم بفهم لحقيقته وبغير فهم . انظر : - سير أعلام النبلاء للذهبي ، ٤٨/٢٣ وما بعدها . - البداية والنهاية لابن كثير ، ١٥٦/١٣ . - لسان الميزان لابن حجر ، ٣١١/٥ وما بعدها . - العقد الثمين لتقي الدين الفاسي ، ١٦٠/٢ وما بعدها . - شذرات الذهب لابن العماد ، ١٩٠/٥ وما بعدها . - نفح الطيب للمقري ١٦١/٢ ، وما بعدها .

(١) انظر : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص٤٩٧ وما بعدها .

استفاد من تراث متصوفة الإسلام المتقدمين عليه سواء منهم من كان في الأندلس أو في المشرق، كما اعتمد على الأحاديث الموضوعة وتأويلات الشيعة الباطنية للشريعة ونصوصها. ولكنه صبغ هذه المصطلحات والفلسفات بصبغته الخاصة وأعطى لكل منها معنى جديدا يتفق مع روح مذهبه العام في وحدة الوجود [١].

ويقوم مذهب ابن عربي في وحدة الوجود على أساس أن الوجود كله -بما فيه ومن فيه- واحد هو الله، وأن ما يوجد في الكون من مخلوقات فوجودها خيال أو وهم أو ظل بالنسبة لوجود الله [٢]. فالوجود عند ابن عربي كله واحد هو الله، والكثرة التي تشهدها الحواس إنما هي مجرد صور ومظاهر ومجال تتجلى فيها الصفات الإلهية. وليس هناك فرق حقيقي بين الوحدة والكثرة، أو بين الحق والخلق إلا من حيث الاعتبار والجهة أو النسب والإضافات أو الأسماء والصفات. فالحقيقة الوجودية واحدة في ذاتا متكثرة بصفاتا وأسمائها، فالله حق في ذاته، خلق من حيث صفاته، وصفاته عين ذات، فالخلق عين الحق، والحق هو الخلق [٣]. فالله- تعالى وتقدس- عند ابن عربي هو الواحد والكثرة، وهو القديم والحديث: وهو الباطن والظاهر، وهو العبد وهو الرب.

يقول ابن عربي عن آله وحـدة الوجود:

(فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن) [٤]. فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من يبطن عنه، فهر ظاهر لنفسه، باطن عنه، وهو المسمى أبا سعيد الخراز، وغير ذلك من أسماء المحدثات. فيقول الباطن: لا إذا قال الظاهر أنا، ويقول الظاهر: لا إذا قال الباطن أنا، وهذا في كل ضد، والمتكلم واحد وهو

(١) انظر : مقدمة فصوص الحكم لابن عربي تقديم وتعليق أبو العلا عفيفي نشر دار الكتاب العربي بيروت ص٧ .

(٢) انظر : فصوص الحكم ، ص ١٠١ وما بعدها .

(٣) انظر : مقدمة النصوص ، ص ٢٩ .

(٤) لا يريد ابن عربي بالأول والآخر والظاهر والباطن المعنى الإسلامي الصحيح الذي يليق بأسماء الله وصفاته . وإنما يريد معنى إلحاديا ينبني على أن الله هو الكون والكون هو الله . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

عين السامع) [1]. ويقول:

يــا خــالق الأشــياء في نفســه **أنــت لمــا تخلقــه جــامع**
تخلــق مــا لا ينــتهي كونــه في **ك فأنــت الضــيق الواســع**

ويقول:

فـالحق خلـق بـذا الوجـه فاعتبروا **ولـيس خلقـا بـذاك الوجه فادكروا**
مـن يـدر مـا قلت لم تخذل بصيرته **ولـيس يدريـه إلا مـن له بصـر**
جمـع وفـرق فـإن العـين واحـدة **وهـي الكـثيرة لا تـبقي ولا تذر [2]**

وحتى لا يظن ظان أن ابن عربي يفرق بين ذات الله وبين الخلق يقول: (.... وبالإخبار الصحيح أنه عين الأشياء، والأشياء محدودة، وإن اختلفت حدودها، فهو محدود بحد كل محدود فما يحد شيء إلا وهو حد الحق، فهو الساري في مسمى المخلوقات والمبدعات، ولو لم يكن الأمر كذلك ما صح الوجود، فهو عين الوجود، (فهو على كل شيء حفيظ " بذاته " ولا يؤوده " حفظ شيء فحفظه تعالى للأشياء كلها حفظه لصورته أن يكون الشيء غير صورته. ولا يصح إلا هذا فهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود، فالعالم صورته وهو روح العالم المدبر له فهو الإنسان الكبير.

فهـــو الكـــون كلـــه **وهـــو الواحـــد الـــذي**
قـــام كـــوني بكونـــه **ولـــذا قلـــت يغـــتذي**
فوجـــودي غـــذؤه **وبـــه نحـــن نحـــتذي**
فـــبه مـــنه أن نظـــرت **بوجـــه تعـــوذي [3]**

وعلى ذلك فلا فرق بين الله والعالم عند ابن عربي، فالعالم بما فيه من مخلوقات هو الله،

---

(١) الفصوص ، ص ٧٧ .
(٢) المصدر نفسه ص٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص١١ .

وليس ثم شيء آخر وراء هذا العالم عنده. وبذا يكون ابن عربي بمذهبه في وحدة الوجود قد وصل إلى نهاية الكفر التي ليس وراءها شيء. وبناء على ذلك فهذا المذهب لا يؤمن بالخلق والإيجاد من العدم، وإنما الخلق عند ابن عربي هو عبارة عن التجلي الإلهي الدائم الذي لم يزل ولا يزال بظهور الحق في كل آن فيما لا يحصى عدده من صور الموجودات. فأصل كل وجود وسبب كل موجود عنده هو الفيض الإلهي المتصل الدائم [1]. يقول ابن عربي:

(لما شاء الحق سبحانه من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها، وإن شئت قلت أن يرى عينه، في كون جامع يحصر الأمر كله، لكونه متصفا بالوجود، ويجهر به سره إليه، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته بنفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة، فإنه يظهر له نفسه في صورة يعطيها المحل المنظور فيه مما لم يكن يظهر له من غير وجود هذا المحل ولا تجليه له. وقد كان الحق سبحانه أوجد العالم كله وجود شبح مسوى لا روح فيه فكان كمرآة غير مجلوة. ومن شأن الحكم الإلهي أنه ما سوى محلا إلا ويقبل روحا إلهيا عبر عنه بالنفخ فيه، وما هو إلا حصول الاستعداد من تلك الصورة المسواة لقبول فيض التجلي الدائم الذي لم يزل ولا يزال وما بقي إلا قابل، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس. فالأمر كله منه، ابتداؤه وانتهاؤه ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [2] كما ابتدأ منه.

فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة، وكانت الملائكة من بعض قوى تلك الصورة التي هي صورة العالم المعبر عنه في اصطلاح القوم ((بالإنسان الكبير)) [3]. هذا هو مذهب ابن عربي في وحدة الوجود ولسنا بصدد

---

(١) انظر : الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٥٠٧ وما بعدها .

(٢) سورة هود ، آية (١٢٣) .

(٣) الفصوص ، ص ٤٨- ٤٩ .

مناقشته وبيان مخالفته للإسلام [1].

لكن يهمنا هنا موقفه من الحقيقة المحمدية، وما هي علاقتها بمذهبه في وحدة الوجود؟

الحقيقة المحمدية عند ابن عربي:

لما كان الله -تـ ه وتقدس- عند ابن عربي يتجلى في صور المخلوقات باعتباره روح هذا العالم وكان الإنسان أعظم هذه المخلوقات، كان تجلي الحق فيه أعظم وأكمل. فالإنسان - في نظر ابن عربي - أكمل مجالي الحق باعتباره أرقى الموجودات. حيث جمع الصفات الحقيقة والخلقية، فصار صورة للعالم الأكبر، ولذلك يسميه ابن عربي بالمختصر الشريف، والكون الجامع لجميع حقائق الوجود ومراتبه، فهو العالم الأصغر الذي انعكست في مرآة وجوده كل كمالات العالم الأكبر (الله). أو كمالات الحضرة الإلهية الأسمائية والصفاتية. فأكمل الموجودات على الإطلاق هو الحق، وأكمل مظهر للحق هو الإنسان الكامل [2]. والإنسان الكامل عند ابن عربي هو الإنسان الذي تجلى فيه الحق، أكمل تجل وأعظمه، ولا يصدق هذا إلا على الأنبياء والأولياء. وأكمل هؤلاء جميعا هو محمد ﷺ. ولا يقصد ابن عربي بذلك شخص الرسول ﷺ بل يقصد به الحقيقة المحمدية الأزلية القديمة التي تعتبر. الروح التي ظهرت في الأنبياء والأولياء، أو التي كان الأنبياء والأولياء صورا لها ولذلك يسميها بالروح المحمدي أو روح الخاتم (خاتم الرسل) [3]. فالحقيقة المحمدية -في نظر ابن عربي- هي أكمل مجلى خلقي ظهر فيه الحق، بل يعتبرها الإنسان الكامل والخليفة الكامل بأخص معانيه. وكمال الشيء عنده متوقف على عدد الأسماء والصفات الإلهية

---

(١) انظر : في الرد على مذهب وحدة الوجود . - رسالة حقيقية مذهب الاتحاديين ووحدة الوجود لابن تيمية . مجموع الفتاوي ١٣٤/٢- ٢٨٥ . - وتنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ، وتحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد . برهان الذين البقاعي . تحقيق عبد الرحمن الوكيل . - والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تقي الدين القاصى المكي ١٦٠/٢٠- ١٩٩ . وقد ترجم فيه التقى القاضي لابن عربي وذكر طائفة من ردود العلماء عليه وتكفيرهم له .

(٢) انظر : الفصوص ، ص ٥٤- ٥٥ .

(٣) انظر : نظريات الإسلاميين في الكلمة . لأبي العلاء عفيفي ، مقال بمجلة كلية الآداب . جامعة الملك فؤاد (القاهرة) سنة ١٩٣٤م ، ج١ ، الـلد الثاني ، ص٣٣ - ٧٥ .

المتجلية فيه، فإذا كان كل واحد من الموجودات يعتبر مجلى خاصا لبعض الأسماء الإلهية التي هي أرباب له، فإن محمدا ﷺ - عند ابن عربي - قد انفرد بأنه مجلى للاسم الأعظم الجامع لجميع تلك الأسماء، وهو الله. ولهذا كانت له مرتبة الجمعية المطلقة (جمع كمالات الأسماء والصفات) ومرتبة التعين (التجلي) الأول الذي تعينت به الذات الأحدية. ومعنى ذلك أن الحقيقة المحمدية هي أول شيء تجلى فيه الحق وظهر، وإن شئت قلت إنها هي الحق ذاته ظاهرا لنفسه في أول تعين من تعيناته في صورة العقل الحاوي لكل شيء، المتجلي في كل كائن عاقل (١). ولذلك يعرف غلاة الصوفية الحقيقة المحمدية بأنها (هي الذات مع التعين الأول، وهو الاسم الأعظم) (٢). هذا هو مقصود ابن عربي ومن أتى بعده بالحقيقة المحمدية أو الروح المحمدي وهي شيء مختلف عندهم تماما عن شخصية النبي ﷺ بل ليس بينهما من الصلة على كما بين الحقيقة المحمدية وأي نبي من الأنبياء أو رسول من الرسل أو ولي من الأولياء (٣). يقول ابن عربي في إحدى صلواته:

(اللهم أفض صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعينات المفاضة من العماء الرباني وآخر التنـ لات المضافة إلى النوع الإنساني، المهاجر من مكة " كان الله ولم يكن مع شيء ثان " إلى مدينة " وهو الآن على ما عليه كان " محصي عوالم الحضرات الإلهية الخمس في وجوده، ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) نقطة البسملة الجامعة لما يكون ولما كان، ونقطة الأمر الجوالة بدوائر الأكوان، سر الهوية التي في كل شيء سارية، وعن كل شيء مجردة وعارية.. كلمة الاسم الأعظم، وفاتحة الكـ المطلسم، المظهر الاسم الجامع بين العبودية والربوبية... والنفس الرحماني الساري بمواد الكلمات التامات، الفيض الأقدس الذاتي الذي تعينت به الأعيان واستعداداتها، والفيض المقدس الصفاتي الذي

(١) انظر : التعليقات على فصوص الحكم لأبي العلاء عفيفي ، ٣٢٠/٢- ٣٢/١ .
(٢) انظر : التعريفات للشريف الجرجاني ، ص٩٠ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٣) التعليقات على الفصوص ، ٣٢١/٢ .
(٤) سورة يس آية : ١٢ .

تكونت به الأكوان واستمداداتا، مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفات ومنبع الإفاضات في رياض النسب والإضافات، خط الوحدة بين قوسي الأحدية والواحدية... ومركز إحاطة الباطن والظاهر.... اللهم يا رب يا من ليس حجابه إلا النور، ولا خفاؤه إلا شدة الظهور، أسألك بك... أن تصلي على سيدنا. محمد صلاة تكحل با بصيرتي بالنور المرشوش في الأزل لأشهد فناء ما لم يكن وبقاء ما لم يزل، وأرى الأشياء كما هي في أصلها معدومة مفقودة، وكونا لم تشم رائحة الوجود فضلا عن كونا موجودة) [1].

ويتضح من هذا النص كفر ابن عربي وغلوه في الحقيقة المحمدية حتى جعلها مساوية للحقيقة الإلهية. ويبدو هذا واضحا في عباراته السابقة التي منها:

- المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شيء ثان. أي أن المهاجر من مكة وهو الرسول ﷺ كان الله.

- كلمة الاسم الأعظم (الله).

- الفيض الأقدس الذاتي الذي تعينت به الأعيان واستعداداتا ومعنى ذلك أن الموجودات تعينت وتحددت بفيضه عليها.

- ثم يتجلى لنا مدى خبثه في لي النصوص وتأويلها لخدمة مذهبه الزائغ. ويقول ابن عربي في رسالة شجرة الكون:

" لما قبض الله آدم من قبضة تراب (كن) مس على ظهره حتى يميز الخبيث من الطيب فاستخرج من ظهره من كان من أصحاب اليمين ومن كان من أصحاب الشمال. ثم اعتصر من شجرة (كن) صفوة عنصرها، ومخضها حتى بدت زبدتا، ثم صفاها وألقى عليها من نور هدايته، حتى ظهر جوهرها ثم غمسها في بحر الرحمة، ثم خلق منها نور نبينا محمد ﷺ ثم زينه بنور الملأ الأعلى حتى أضاء وعلا، ثم جعل ذلك النور أصلا لكل نور،

---

(١) أفضل الصلوات على سيد السادات ، ليوسف بن إسماعيل النبهاني ، طبع المطبعة الأدبية ، بيروت ، ١٣٠٩هـ ، ص٨٨ وما بعدها .

فهو أولهم في السطور وآخرهم في الظهور "[1].

وواضح أن ابن عربي هنا قد صاغ هذه الفكرة بأسلوب صوفي بعيد عن التركيب الفلسفي الذي نراه في كتبه وبالأخص فصوص الحكم والفتوحات المكية، وهو في هذا متأثر بسلفه الحلاج حيث قال: " أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم "[2]. هذا هو مفهوم الحقيقة المحمدية عند ابن عربي فما هي خصائصها وما علاقتها بالعالم المادي والروحي كما للحقيقة المحمدية -عند ابن عربي- عدة وظائف في العالم المادي والروحي فمن ناحية صلتها بالعالم المادي تعتبر مبدأ خلق العالم إذ هي النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء، كما يقول ابن عربي (بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية)[3].

ويقول (أنه سبحانه تجلى بنوره إلى " ذلك الهباء... فقبل منه تعالى كل شيء في ذلك الهباء وعلى حسب قوته واستعداده كما تقبل زوايا البيت نور السراج، وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتد ضوؤه وقبوله. قال تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ﴾[4] فشبه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه قبولا في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد ﷺ المسماة بالعقل فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الأزلي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية وفي الهباء وجد عينه، وعين العالم من تجليه وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب[5]. وأسرار الأنبياء أجمعين[1].، ومن ناحية صلتها بالإنسان

(١) نشأة الفلسفة الصوفية ، وتطورها . عرفان عبد الحميد فتاح ، طبع المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٤ هـ ، ص ١٠٠ .

(٢) الكشف عن حقيقة الصوفية ، ص ٢٦٣ ، نقلا عن أخبار الحلاج ص١١ .

(٣) الفتوحات المكية ، ١١٨/١ .

(٤) سورة النور ، آية (٣٥) .

(٥) تفوح من هذا النص رائحة التشيع عند ابن عربي بالإضافة إلى الغلو .

يعتبرها ابن عربي صورة كاملة للإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه جميع حقائق الوجود ولذلك يسميها آدم الحقيقي والحقيقة الإنسانية (٢). أما من ناحية صلتها بالعالم الروحي فيعتبرها مصدر كل وحي وإلهام وكشف للأنبياء والأولياء على السواء فهي منبع الوحي والعلم الباطني، والأصل الذي يأخذ عنه الأنبياء والأولياء.

يقول ابن عربي:

" فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي ما منهم من أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته فإنه بحقيقته موجود، وهو قوله ﷺ " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين! (٣). وغيره من الأنبياء ما كان نبيا إلا حين بعث " (٤). وبذلك تكون الحقيقة المحمدية مشابة للقطب أو الإمام المعصوم لدى الشيعة الإسماعيلية الذي يتجلى في كل زمان في صورة قطب ذلك الزمان (٥). هذا هو مقصود ابن عربي ومن أتى بعده بالحقيقة المحمدية.

وقد تأثر ابن عربي بمن سبقه من المتصوفة لاسيما الحلاج في قوله بقدم النور المحمدي، كما أنه استفاد من كل ما سبقه من فلسفات يونانية وهندية، ومصرية وعقائد يهودية ونصرانية. كما كان لعقائد الشيعة والباطنية وتأويلاتم لنصوص الشرع، وآرائهم الهدامة نصيب كبير في فكر ابن عربي. كما سبق أن بينا ذلك ولكن ابن عربي حاول أن يصبغ مذهبه في الحقيقة المحمدية بصبغة إسلامية باحثا له عن أسس يعتمد عليها. من تأويل لآيات القرآن ونصوص الحديث، ومن أكثر ما يستدل به الأحاديث الواردة في قدم ذات النبي ﷺ مثل حديث: " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " ويروى: " كنت

(١) الفتوحات المكية ، ١١٩/١ .
(٢) انظر : التعليقات على الفصوص ، ص ٣٢٠ .
(٣) هذا حديث باطل لا أصل له وسيأتي مزيد كلام عليه .
(٤) الفصوص ، ٦٣ - ٦٤ .
(٥) انظر : نظريات الإسلاميين في الكلمة ، ص ٥٨ .

نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين " [1] ومنها حديث كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث فبدأ بي قبلهم " [2]. ومنها حديث النور المنسوب إلى مصنف عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء؟ كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم " إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور في القدر حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك، ولا سماء، ولا أرض، ولا شمس، ولا قمر، ولا جني، ولا إنسي، فلما أراد أن يخلق الخلق، قسم ذلك النور أربعة أجزاء:

١ - فخلق من الجزء الأول: القلم.

٢ - ومن الثاني: اللوح.

٣ - ومن الثالث: الجنة والنار.

٤ - ثم قسم الرابع أربعة أجزاء:

(أ) فخلق من الأول: نور أبصار المؤمنين.

(ب) ومن الثاني: نور قلوبهم - وهو المعرفة بالله.

(ب) ومن الثالث: نور أنسهم - وهو التوحيد - لا إله إلا الله، محمد رسول الله... الحديث " [3].

ومما يسوقه الصوفية في هذا الباب ويعدونه حديثا قولهم: " إن الله تبارك وتعالى خلق نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل خلق آدم بألفي عام وجعله في عمود أمام عرشه يسبح الله ويقدسه ثم

---

(١) هذا حديث لا أصل له كما بينه ابن تيمية . انظر : الرد على البكري ، ص ٩ ، ومجموع الفتاوى ٢٣٨/٢ .

(٢) هذا الحديث منكر الإسناد والمتن معا . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ، ١١٥/٢ . ورسالة النور المحمدي ، تأليف عداب محمود الحمش ، ٢٣- ٢٦ .

(٣) كشف الخفاء ومزيل الألباس فيما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للشيخ إسماعيل العجلوني ، تصحيح أحمد القلاش ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ ، ١١٣/١ . وهذا الحديث مكذوب لا أصل له ومنسوبا زورا إلى مصنف عبد الرزاق وليس فيه ، ولا رواه عنه أحد من العلماء المعتد بهم كما أنه ليس موجودا في أي من كتب السنة المعتمدة . انظر : رسالة النور المحمدي ، ص ٤٦ - ٥٣ .

خلق آدم - عليه الصلاة والسلام - من نور محمد ﷺ وخلق نور النبيين - عليهم الصلاة والسلام - من نور آدم - عليه الصلاة والسلام - " [١]..

وما ذكروه ليس حديثا إنما هو مجرد قول توارثوه وليس هناك ما يدل على ثبوته فلا أصل له.

مناقشة ابن عربي في الحقيقة المحمدية:

يريد ابن عربي من وراء استدلاله بالأحاديث السابقة أن يقرر أن النبي ﷺ كان موجودا بحقيقته قبل الخلق وأن نوره هو مبدأ الخلق ومادته ليقوى بذلك نظريته في الحقيقة المحمدية.

يقول ابن عربي:

" فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته فإنه بحقيقته موجود وهو قوله ﷺ " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " وغيره من الأنبياء ما كان نبيا إلا حين بعث ". [٢].

وهذا كلام باطل فإن الأنبياء لا يأخذ أحد منهم عن آخر إلا من كان مأمورا باتباع شريعته كأنبياء بني إسرائيل الذين أمروا باتباع التوراة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ ﴾ [٣] ....) [٤]. الآية.

وأما إبراهيم وموسى وعيسى فلم يأخذ أحدهم عن الآخر كما لم يأخذوا عن محمد، ﷺ وإن بشروا به وآمنوا به.

---

(١) نقله ابن الحاج في المدخل عن كتاب الدلالات لأبي عبد الرحمن الصقلي . انظر : المدخل للابن الحاج ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١ هـ ، ٣٠/٢ .

(٢) فصوص الحكم ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٣) سورة المائدة آية : ٤٤ .

(٤) سورة المائدة ، آية : ٤٤ .

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾[1]...)[2]. الآية.

قال على بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما:

(ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه)[3]..

واعتقاد ابن عربي أن النبي ﷺ كان بحقيقته موجودا استنادا إلى حديث " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " اعتقاد باطل لبطلان هذا الحديث وعدم صحته وثبوته وعلى فرض صحته فإنه لا يؤدى إلى نفس المعنى لأن الأشياء لا تكون موجودة بحقائقها إلا حين توجد، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم ولم تكن حقيقته ﷺ موجودة قبل أن يخلق إلا ما كانت حقيقة غيره بمعنى أن الله علمها وقدرها.

لكن كان ظهور خبره واسمه مشهورا أعظم من غيره، فإنه كان مكتوبا في التوراة والإنجيل وقبل ذلك[4].، كما روى الإمام أحمد في مسنده عن العرباض ابن سارية، عن النبي ﷺ قال: « إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم »[5] [6].

(١) سورة آل عمران آية : ٨١ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٨١ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ٣٧٨/١ .
(٤) انظر مجموع الفتاوى ، ٢٣٦/٢ - ٢٣٩ .
(٥) أحمد (١٢٨/٤) .
(٦) المسند ، ١٢٧/٤ ، ١٢٨ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ، ٦٠٠/٢ ، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

وحديث ميسرة الفجر: ﴿ قلت يا رسول الله، متى كنت نبيا؟ وفي لفظ متى كتبت نبيا؟ قال: " وآدم بين الروح والجسد ﴾ [(١)] [(٢)].

قال ابن تيمية:

(ولهذا يغلط كثير من الناس في قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه ميسرة قال: ﴿ قلت يا رسول الله متى كنت نبيا؟ وفي رواية متى كتبت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد ﴾ [(٣)]. فيظنون أن ذاته ونبوته وجدت حينئذ، وهذا جهل فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره وقد قال له: (.. ﴿ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾ [(٤)].

... ومن قال أن النبي ﷺ كان نبيا قبل أن يوحى إليه فهو كافر باتفاق المسلمين، وإنما المعنى أن الله كتب نبوته فأظهرها وأعلنها بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه، كما أخبر أنه يكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته بعد خلق جسده، وقبل نفخ الروح فيه.... وكثير من الجهال المصنفين وغيرهم يرويه " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " " وآدم لا ماء ولا طين " ويجعلون ذلك وجوده بعينه وآدم لم يكن بين الماء والطين بل الماء بعض الطين لا مقابله " [(٥)]..

وإذا ثبت بطلان كون الرسول ﷺ موجودا بحقيقته قبل خلق السماوات والأرض فقد انهدم أكبر أساس بنى عليه ابن عربي نظريته في الحقيقة المحمدية.

ثم إن قوله إن الحقيقة المحمدية هي أكبر مظهر تجلى فيه الإله أو أنا هي الله متعينا في

---

(١) أحمد (٥٩/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥٩/٥ ، والحاكم في المستدرك ، ٦٠٨/٢ - ٦٠٩ ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي رجال أحمد رجال الصحيح ، ٢٢٣/٨ .

(٣) أحمد (٥٩/٥) .

(٤) سورة يوسف آية : ٣ .

(٥) الفتاوى ، ٢٨٢/٨ - ٢٨٣ .

أول تعيناته قول لا دليل عليه - فوق أنه كفر - بل الدليل قائم على بطلانه عقلا وشرعا لأن الخالق غير المخلوق، ولو قلنا بأن الخالق هو المخلوق لما كان هناك خلق أصلا.

وهو الذي يؤمن به ابن عربي إذ حاصل كلامه إنكار الخلق والقول بقدم العالم، وقوله عن الحقيقة المحمدية بأنا مبدأ خلق العالم وسبب وجوده. قول مصادم للنصوص الشرعية التي بينت أن مبدأ خلق العالم هو الماء والعرش كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [1] . الآية.

وقوله ﷺ ﴿ كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ﴾ [2]... " [3]. الحديث. [4].. الحديث.

كما بين القرآن أن الغاية من الخلق هي أن يعبد الله بما شرع، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [5] .

وقول ابن عربي بأن الحقيقة المحمدية هي التي أمدت الأنبياء والأولياء بالعلم الباطن قول ينفي الوحي والنبوة والرسالة، إذ النبوة والرسالة متوقفة على الوحي الذي نزل به الملك على كل نبي.

والنتيجة التي يريد ابن عربي أن يصل إليها هي الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. واتخذ ابن عربي في سبيل تحقيق ذلك. الغلو في الرسول ﷺ بدرجة مساواته بالله ﷻ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

---

(١) سورة هود آية : ٧ .

(٢) البخاري التوحيد (٦٩٨٢) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد . باب وكان عرشه على الماء ، ١٥٢/٩ .

(٤) وأما حديث : أول ما خلق الله القلم ، ثم قال اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة . المسند ، ٣١٧/٥ فالأولية في هذا الحديث مقيدة بالنسبة لما عدا العرش والماء . أو بالنسبة لما صدر منه من الكتابة ، أي قيل له أول ما خلق : اكتب . انظر : فتح الباري ٢٨٩/٦ . وشرح العقيدة الطحاوية ، ص٢٩٤ - ٢٩٦ .

(٥) سورة الذاريات آية : ٥٦ .

وقد يتوهم بعض الناس حين يظن أن معنى هذا الكلام أننا ننفى أن الرسول ﷺ نور كما وصفه القرآن بذلك.

والحق أنه ليس معنى وصف النبي ﷺ بأنه نور. أنه مخلوق من نور كما يزعم الصوفية، وإنما معناه أنه ﷺ هاد لمن اتبعه، منير له طريق الهدى وسبيل الرشاد بإذن ربه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [(١)] وقوله تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ ﴾ [(٢)].

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية:

(يقول جل شأنه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور. يعنى بالنور محمدا ﷺ الذي أنار الله به الحق وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك فهو نور لمن استنار به يبين الحق) [(٣)].

ولو كان المراد من ذلك أن الرسول ﷺ مخلوق من نور لصرح القرآن بذلك أتم تصريح ووضحه أوضح بيان، ولما كان هناك داع لوصفه بالبشرية. ولكننا نجد نصوص الشرع تؤكد على بشرية الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [(٤)] .

وأخرج البخاري بسنده عن أم سلمة أن الرسول ﷺ قال: « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » [(٥)] [(٦)].

---

(١) سورة الأحزاب ، آية (٤٥-٤٦) .

(٢) سورة المائدة ، آية (١٥) .

(٣) تفسير الطبري ، ١٠٤/٤ .

(٤) سورة الكهف آية : ١١٠ .

(٥) البخاري الأحكام (٦٧٤٨) ، مسلم الأقضية (١٧١٣) ، النسائي آداب القضاة (٥٤٠١) ، أبو داود الأقضية (٣٥٨٣) ، ابن ماجه الأحكام (٢٣١٧) ، أحمد (٣٢٠/٦) ، مالك الأقضية (١٤٢٤) .

(٦) سبق تخريجه ، ص ٢٢ .

وأخرج مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود قال. ﴿ صلى بنا رسول الله ﷺ خمسا فقلنا يا رسول الله أزيد في الصلاة؟ قال وما ذاك؟ قالوا صليت خمسا. قال " إنما أنا بشر مثلكم. أذكركما تذكرون. وأنسى كما تنسون " ثم سجد سجدتي السهو ﴾ (١) (٢).

فالنبي ﷺ نور بالمعنى القرآني - لا كما يزعم الصوفية - وهو بشر كغيره من الأنبياء السابقين. وصلته بربه صلة العبد المخلوق بمولاه كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ ﴾ (٤).

فوصفه الله بالعبودية في أشرف مقاماته ﷺ وهو مقام القرب من ربه.

ما هو مقصد ابن عربي من الغلو في الرسول ﷺ ؟.

لا شك أن ابن عربي قد خرج من الإسلام إلى كفر أشنع من كفر اليهود والنصارى وسائر الكفرة والمشركين بآرائه في وحدة الوجود وما تفرع عنها كالحقيقة المحمدية وغيرها من توابع مذهبه.

ولما كان ابن عربي قد جمع فنونا كثيرة من العلوم والمعارف والفلسفات والأديان الموجودة في عصره، مع خبث ودهاء وزندقة، أراد أن يتخذ من الغلو في الرسول ﷺ ذريعة لادعائه النبوة وأنه هو خاتم الأولياء الذي هو في نظره أفضل من خاتم الأنبياء.

يقول ابن عربي عن نبوة الأولياء:

(اعلم أيدك الله أن النبي هو الذي يأتيه الوحي من عند الله، يتضمن ذلك الوحي

---

(١) البخاري الصلاة (٣٩٢) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٢) ، الترمذي الصلاة (٣٩٢) ، النسائي السهو (١٢٤٤) ، أبو داود الصلاة (١٠٢٠) ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢١١) أحمد (٣٧٩/١) ، الدارمي الصلاة (١٤٩٨) .

(٢) سبق تخريجه ، ص ٢٢ .

(٣) سورة الإسراء آية : ١ .

(٤) سورة النجم ، آية (١٠) .

شريعة يتعبد بها في نفسه. فإن بعث إلى غيره كان رسولا... وهذا باب قد أغلق برسول الله ﷺ فلا سبيل أن يتعبد الله أحدا بشريعة ناسخة لهذه الشريعة المحمدية.

وأما حالة أنبياء الأولياء في هذه الأمة فهو كل شخص أقامه الحق في تجل من تجلياته، وأقام له مظهر محمد ﷺ ومظهر جبريل - عليه السلام. فأسمعه ذلك المظهر الروحاني خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد ﷺ حتى إذا فرغ من خطابه وفزع عن قلب هذا الولي عقل صاحب هذا المشهد جميع ما تضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة في هذه الأمة المحمدية، فيأخذها هذا الولي كما أخذها المظهر المحمدي) [1]..

وأما عن ادعائه بأنه خاتم الأولياء الذي هو في نظره أفضل من خاتم الأنبياء فيقول:

فـأتى بــه خـتم الولايـة مـثل ما ... خــتم النــبوة بالــنبي المرســل

ولــنا مــن الخــتمين حــظ وافــر ... ورثــا أتانــا في الكــتاب المــ ل [2]

وقال:

أنــا خــاتم للأولــياء كمــا أتــى ... بــأن خــتام الأنبــياء محمــدا

خــتام خصــوص لا خــتام ولايــة ... نعــم فــإن الخــتم عيســى المؤيدا [3]

وعلاقة عيسى عليه السلام بموضوع خاتم الأولياء لأن ابن عربي يرى أن ختم الولاية نوعان عام وخاص. فختم الولاية العامة لعيسى - عليه السلام - الذي ي ل آخر الزمان نبيا وليا يحكم بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام. أما ختم الولاية الخاص فهي المرتبة التي ادعاها ابن عربي لنفسه وأضفى عليها عدة صفات وخصائص من أهمها:

القول بقدم خاتم الأولياء:

كما هـو الحال بالنسبة لخاتم الأنبياء عنده فكذلك خاتم الأولياء كان وليا وآدم بين الماء والطين وغيره من الأولياء ما كان وليا إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق

---

(١) الفتوحات المكية ، ١٥٠/١ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣/ ٨٤ .

(٣) ديوان ابن عربي ، ص ٢٩٣ .

الإلهية [1].

أن خاتم الأولياء مصدر علوم الأولياء والأنبياء:

فكما أن خاتم الأنبياء عند ابن عربي هو مصدر كل علم ومشكاته، فكذلك خاتم الأولياء هو المشكاة التي يأخذ منها كل ولي علمه الباطن.

يقول ابن عربي:

(وليس هذا العلم (أي العلم بوحدة الوجود) إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم) [2]..

ولكن ابن عربي لم يكتف بذا الادعاء حتى زعم أن الأنبياء والمرسلين من حيث كونم أولياء يأخذون من مشكاة خاتم الأولياء الذي هو ابن عربي نفسه.

أما من حيث كونم أنبياء ومرسلين فيأخذون من مشكاة خاتم المرسلين.

ومعنى هذا أن لعلوم الأنبياء والمرسلين اعتبارين:

أحدهما: علوم النبوة والرسالة والتي هي الشريعة والأحكام الظاهرة وهذه يستمدها كل نبي من مشكاة خاتم الأنبياء.

الثاني: علوم الولاية. التي هي الحقائق والعلوم الباطنة فهذه يستمدها الأنبياء والأولياء من مشكاة خاتم الأولياء. [3].

وبذلك يكون ابن عربي قد فضل نفسه على جمع الأنبياء والمرسلين بذا الكلام الذي هو من وحي الشيطان، وفيه من الكفر والتنقيص للرسل والاستخفاف بم والكفر بما جاءوا به ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة. وليس هناك اسم شرعي لما يسمى بخاتم

---

(١) انظر : فصوص الحكم ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(٣) انظر : كتاب رد الفصوص المسمى مرتبة الوجود وم لة الشهود ، الملا علي بن سلطان القاري . دراسة وتحقيق . الطالب عبدالله علي الملا رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى ، ١٤٠٩ هـ ، ٥٣٤/١ . وانظر : التعليقات على فصوص الحكم ، ص ٢٤ .

الأولياء، وإنما هو منصب صوفي مبتدع لا دليل عليه من الشرع.

نخلص من هذا إلى أن ابن عربي ومن قبله الحلاج، ومن تبعهم من ملاحدة الصوفية لم يصدروا في غلوهم في الرسول ﷺ عن محبته وتعظيمه واتباع شريعته. وإنما كان مقصدهم من هذا الغلو تعظيم ذواتهم ودعوة المخدوعين من أتباعهم إلى عبادتهم. وهدم الدين الذي جاء به محمد ﷺ وإذهاب هيبته من النفوس.

فضررهم على دين الإسلام أشد من ضرر اليهود والنصارى وملل الكفر مجتمعة فيجب على كل من له بصيرة وكل طالب للحق محب لرسول الله ﷺ أن يعرف حقيقة مذهب هؤلاء وضلالهم وكفرهم حتى لا يخدع بهم وبباطلهم.

كما يجب على أهل العلم والدعاة أن يبينوا للناس حقيقة كفر ابن عربي وأمثاله وضلال مذهبه لإنقاذ عامة الصوفية من افتتانهم بهؤلاء الملاحدة.

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [1] .

(١) سورة الأنفال آية : ٤٢ .

المبحث الخامس

آثار الغلو في الرسول ﷺ على الاعتقاد والأعمال

لا شك أن الغلو من أكبر أسباب الانحراف بالدين عن الصراط المستقيم.

وقد كان للغلو في الرسول ﷺ أكبر الأثر في إفساد حقائق الدين وتشويه معالمه، ولم ينحصر هذا الإفساد على جانب دون آخر بل عم الدين كله اعتقادا وعملا وسلوكا، وسأتحدث في هذا المبحث بإيجاز عن دور غلاة الصوفية في إفساد العقيدة والعبادة بسبب غلوهم في الرسول ﷺ.

أولا - في الاعتقاد:

(أ) في جانب الألوهية:

يؤمن المسلمون بأن الله متفرد بالخلق والتدبير والألوهية والربوبية، وأن الله واحد لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله، فجاء ملاحدة الصوفية وزعموا أن محمدا ﷺ شريك مع الله في الخلق والتدبير وكشف الضر وجلب النفع إلى غير ذلك من صنوف الشرك، وكتب الصوفية وصلواتم مشحونة بذلك.

يقول البوصيرى (١) في البردة التي يترنم با ملايين الصوفية:

يـا أكـرم الخلـق مـا لي من ألوذ به … سـواك عـند حدوث الحادث العمم

ولـن يضـيق رسـول الله جاهك بي … إذا الكـــريم تجـــلى باســـم منـــتقم

فـإن مـن جـودك الدنـيا وضـرتا … ومـن علومـك علم اللوح والقلم (٢)

---

(١) شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري (٦٠٨ - ٦٩٦ هـ) نسبة إلى بوصير من قرى بني سويف بمصر ، شاعر . أغلب شعره في مديح النبي على طريقة الصوفية . من أشهر قصائده البردة والهمزية والرائية . انظر : فوات الوفيات . محمد بن شاكر الكتبي . تحقيق د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ٣ : ٣٦٢ . والدليل الشافي على المنهل الصافي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، تحقيق . فهيم محمد شلتوت . من مطبوعات جامعة أم القرى . مركز البحث العلمي ، مكة المكرمة ، ٢/٦٢٢ .

(٢) ديوان البوصيري . تحقيق محمد سيد كيلاني طبع مصطفى الحلبي مصر ١٣٧٤هـ ، ص٢٠٠ .

فهذا الشاعر خلع على رسول الله ﷺ من أوصاف الربوبية والألوهية ما لا يليق وصف أحد به إلا الله وحده، فجعل الرسول وحده ملاذه ومعاذه عند حلول الخطوب ونزول الشدائد ثم نسب إلى الرسول الشفاعة مطلقا كما يعتقده المشركون في الشفاعة الشركية التي تكون بدون إذن ولا رضى من المشفوع عنده وإنما تكون بجاه الشافع ومكانته فقط.

ثم نراه يجعل الدنيا والآخرة من جوده، وأن علم اللوح والقلم من بعض علومه وهذا مع ما فيه من الشرك كفر بالله عز وجل. لأن كل ما ذكره من أوصاف الربوبية والألوهية لا يجوز بأي حال من الأحوال وصف أي مخلوق با وإنما أي من صفات الخالق وحده.

قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [2]. وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [3]... الآية. وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [4].

ويقول البكري [5] في قصيدة له:

---

(١) سورة النمل آية : ٦٢ .
(٢) سورة طه آية : ١٠٩ .
(٣) سورة هود آية : ١٢٣ .
(٤) سورة طه آية : ١١٠ .
(٥) هو محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي الشافعي (٩٣٠ - ٩٩٤ هـ) ، محدث ، إخباري ، من تصانيفه . الجوهر الثمين من كلام سيد المرسلين ، تأبيد المنة بتأبيد أهل السنة وغيرها . انظر : معجم المؤلفين ، ١٨٥/٩ والأعلام ، ٦٠/٧ .

والــذ بــه في كــل مــا تــرتجي فإنــــه المــأمن والمعقــــل
ونــــاده إن أزمــــة أنشــــبت أظفارهــا واســتحكم المعضــل
يــا أكــرم الخلــق عــلى ربــه وخــير مــن فــيهم بــه يســئل
قــد مســني الكــرب وكــم مــرة فرجــت كــربا بعضــه يعضــل
فــبالذي خصــك بــين الــورى برتــبة عــنها العــلا تــنـزل
عجــل بإذهــاب الــذي اشــتكى فــإن توقفــت فمــن أســأل [(١)]

وهذا مع ما فيه من شرك قدح في الألوهية وتفرد الله بتدبير الكون وحده، ولم يتوقف شركهم وكفرهم عند هذا الحد حتى زعموا أن محمدا عين ذات الله وهو من الحق بمنزلة إنسان العين من العين وأنه روح الله المنفوخ في آدم.

يقول أحمد بن إدريس [(٢)] في إحدى صلواته:

" اللهم صل على الكنه الذاتي والقدس الصفاتي، نور الأسماء، ورداء الكبرياء، أزار العظمة الإلهية، عين الإحاطة الذاتية، تجليات الغيب والشهادة، روح حياة الماء، الروح الإلهي، والنور البهاء، رحمة الوجود وعلم الشهادة صلاة ذاتية أزلية أبدية. اللهم وسلم عليه مثل ذلك " [(٣)].

ويقول صاحب دلائل الخيرات:

" اللهم صل على سيدنا محمد بحر أنوارك ومعدن أسرارك، ولسان حجتك وعروس

---

(١) أورد هذه القصيدة محمد بن علوي المالكي في كتابه الذخائر المحمدية ، القسم الأول ، ص ١٥٨ ، مطبعة حسان ، القاهرة ، وقال إنا مجربة لقضاء الحوائج وتقرأ في آخر الليل بعد ما تيسر من الصلاة ، ويكرر بيت : عجل بإذهاب الذي اشتكى ثلاثا وسبعين مرة .

(٢) هو أحمد بن إدريس الحسني صاحب الطريقة الأحمدية الإدريسية المنتشرة في المغرب والسودان وغيرهما . ولد بفاس وانتقل إلى مكة ثم رحل إلى اليمن فسكن صبيا إلى أن مات . وهو جد الأدراسة الذين كانت لهم إمارة عسير ونواحيها وكان صوفيا على دين ابن عربي . له عدة كتب منها العقد النفيس ، والسلوك وروح السنة توفي سنة ١٢٥٣ هـ .

(٣) مجموعة أحزاب وأوراد ورسائل . تأليف أحمد بن إدريس ، ص ٦٢ .

مملكتك، وإمام حضرتك، وطراز ملكك، وخزائن رحمتك، وطريق شريعتك المتلذذ بتوحيدك إنسان عين الوجود والسبب في كل موجود عين أعيان خلقك المتقدم من نور ضيائك صلاة تدوم بدوامك وتبقى ببقائك لا منتهي لها دون علمك صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين " (١).

ويقول صاحب كتاب النفحات الأقدسية في خطبة كتابه:

(نحمدك اللهم يا من صلى على محمد بفيض ذاته فكان مجلى له في جميع تجلياته فهو روح الله المنفوخ في صورة آدم. وطامة الحقائق الكبرى لسائر العالم فلا يصل واصل إلا إليه ولا يهتدي حائر إلا به فيه عليه. وأشهد أن لا إله إلا الله ولا موجود في هذا الوجود إلا إياه وأشهد أن محمدا ﷺ إنسان عين ذاته وسر إمداداته) (٢).

ويقول عبد الكريم الجيلي (٣) (اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس، ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين... واعلم أن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته.. ثم اعلم أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات، والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات ليس لها

---

(١) دلائل الخيرات . محمد بن سليمان الجزولي ، ص٧٢ .

(٢) النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية ، محمد باء الدين البيطار . طبع دار الجليل ، بيروت ، ص٣ .

(٣) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ، ابن سبط الشيخ عبد القادر الكيلاني ، (٧٦٧ - ٨٢٠ أو ٨٣٢ هـ) كان صوفيا على دين ابن عربي . من مؤلفاته : الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل . شرح مشكلات الفتوحات المكية . وحقيقة الحقائق التي في هي للحق من وجه ومن وجه للخلائق . والكمالات الإلهية في الصفات المحمدية . انظر : معجم المؤلفين ، ٣١٣/٥ ، الأعلام ٥٠/٤ - ٥١ .

مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل، فمثاله للحق مثال المرآة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكنه أن يرى نفسه إلا بمرآة الاسم " الله " فهو مرآته، والإنسان الكامل أيضا مرآة الحق. فإن الحق تعالى أوجب على نفسه ألا ترى أسماؤه ولا صفاته إلى في الإنسان الكامل) (١) وتصور كلامهم في هذا الباب كاف لإثبات بطلانه (٢).

(ب) أما اعتقادهم في الرسول ﷺ فيخالف اعتقاد عامة المسلمين في جوانب كثيرة:

فإذا كان المسلمون يعتقدون أن محمدا ﷺ وجميع الأنبياء والرسل من قبله بشر مثل بقية البشر في كل شيء غير أنم مفضلون بالوحي وبخصائص تناسب نبوتم ورسالتهم. وهذا هو الاعتقاد الصحيح الذي نطق به القرآن والسنة وأجمع عليه المسلمون على مر العصور.

حتى جاء ملاحدة الصوفية وحولوا أتباعهم عن هذا الاعتقاد الصحيح إلى عقيدة وثنية تجعل من محمد ﷺ التجلي الأعظم للذات الإلهية وأنه الواسطة بين الوجود المطلق وهو الله وبين عالم الطبيعة وبالتالي صار محمدا هو الإله عندهم وقد سبق في النصوص ما يؤيد ذلك، ويؤمن المسلمون بأن أول ما خلق الله هو الماء والعرش ثم القلم ثم خلق السماوات والأرض كما بين ذلك الله ورسوله (٣).

ولكن الصوفية تعتقد بأن أول ما خلق الله هو محمد ﷺ ومنه خلق كل شيء ولما كانت نصوص الشرع على خلاف ذلك والآيات والأحاديث تبين أن أول ما خلق الله هو الماء والعرش ثم القلم، حاولوا التوفيق بين ضلاهم وبين هذه النصوص فأطلقوا على الحقيقة المحمدية أسماء مثل عرش التجلي الذاتي، والقلم الأعلى، وأم الكتاب، إلى غير ذلك من الألقاب الكثيرة التي خلعوها على الحقيقة المحمدية.

---

(١) الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر . عبد الكريم الجيلي ، ط٣ ، مصطفى الحلبي ، مصر ، ١٣٩٠ هـ ، ٧٣/٢ - ٧٧ .

(٢) انظر مناقشة الحقيقة المحمدية وبيان بطلانا في المبحث السابق ، ص١٨٧ وما بعدها .

(٣) انظر مناقشة الحقيقة المحمدية وبيان بطلانا في المبحث السابق ، ص١٨٧ وما بعدها .

يقول أحمد بن إدريس في إحدى صلواته:

(اللهم صل على مولانا محمد نورك اللامع ومظهر سرك الهامع الذي طرزت بجماله الأكوان وزينت ببهجة جلاله الأوان، الذي فتحت ظهور العالم من نور حقيقته وختمت كماله بأسرار نبوته فظهرت صور الحسن من فيضه في أحسن تقويم ولولا هو ما ظهرت لصورة عين من العدم الرميم) (١).

ويقول في صلاة أخرى:

(اللهم صل على أم كتاب كمالات الذات، عين الوجود المطلق الجامع لسائر التقييدات. صورة ناسوت الخلق، معاني لاهوت الحق، الغيب الذات، والشهادة الأسماء، والصفات الناظر بالكل في الكل من الكل للكليات الجزئيات ..) (٢).

ويعتقد المسلمون بأن الله خلق هذا الكون من العدم وأوجده على غير مثال سابق. لكن الصوفية تؤمن بأن الله خلق هذا الكون من نور محمد ﷺ ويستشهدون بحديث النور المنسوب إلى جابر بن عبد الله وقد سبق ذكره وبيان بطلانه (٣).

يقول الدباغ (٤) (اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسموات وأرضين وجنات وحجب، وما فوقها، وما تحتها، إذا جمعت كلها، وجدت بعضا من نور محمد، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت

(١) مجموعة أحزاب وأوراد ورسائل ، ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ٥٦ - ٥٧ .

(٣) انظر ص ١٦٤ - ١٦٥ من هذا البحث .

(٤) هو عبد العزيز بن مسعود المعروف بالدباغ ، (١٠٩٥ - ١١٣٢هـ) ، صوفي ، من أهل فاس بالمغرب ، كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولأتباعه مبالغة في الثناء عليه ونسبة الخوارق إليه . من آثار الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز جمعه أحمد بن مبارك السجلماسي . انظر : الأعلام ، ٢٨/٤ . ومعجم المؤلفين ، ٢٦٢/٥ - ٢٦٣ .

وتساقطت) [(١)].

وإذا كان المسلمون يؤمنون بأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ بواسطة جبريل، وأن النبي ﷺ لم يكن يدري عن القرآن شيئا قبل نزوله عليه كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [(٢)] ولكن ملاحدة الصوفية تأبى هذه الحقيقة وتعدل عنها إلى الإفك والبهتان فتزعم أن جبريل عجب حين رأى محمدا ﷺ يتلو القرآن قبل أن يعلمه إياه فسأله جبريل فأجابه قائلا: ارفع الستر مرة حين يلقى إليك الوحي، ففعل جبريل ذلك فرأى محمدا ﷺ هو الذي يوحي إليه، فصاح سبحان الله: منك وإليك يا محمد. وهذا دليل واضح على تلاعب الشيطان بعقولهم وأحلامهم، إذ لا يصدق بذه الخراقة إلا من ليس له أدنى تمييز، وقد أسس لهم هذه الأسطورة ابن عربي شيخ الصوفية الأكبر إذ يفسر قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ ﴾ [(٣)] .

يقول:

(اعلم أن رسول الله ﷺ أعطى القرآن مجملا قبل جبريل من غير تفصيل الآيات والسور فقيل له ولا تعجل بالقرآن الذي عندك قبل جبريل فتلقيه على الأمة مجملا فلا يفهمه أحد منك لعدم تفصيله) [(٤)].

وهذه فرية واضحة البطلان يكذبا القرآن وحال الرسول ﷺ الذي كان ينتظر نزول

(١) هذه هي الصوفية . تأليف عبد الرحمن الوكيل ، ط٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤/١ هـ ، ص ٨٧ ، نقلا عن الإبريز للدباغ ، ٨٤/٢ .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٤٨ .

(٣) سورة طه آية : ١١٤ .

(٤) الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر للشعراني بهامش اليواقيت والجواهر ، طبع مصطفى ، الحلبي ، ١٣٧٨٩ هـ ، ص٦ . وانظر : هذه هي الصوفية ، ص٨٩ - ٩٢ .

الوحي عليه ليعرف حكم الله فيما يجد من الحوادث والنوازل.

وإذا كان المسلمون يؤمنون بأن رسول الله ﷺ أرسل في زمان ومكان معينين وأن الرسل السابقين عليه أرسل كل واحد منهم إلى قوم معينين في زمان معين.

إلا أن غلاة الصوفية تعتقد بأن الرسول في كل العصور واحد هو محمد ﷺ وأن الرسل السابقين ليسوا إلا صورا لمحمد ﷺ ويروون في هذا شعرا: ويروون في هذا شعرا:

كـل النبـيين والرسـل الكـرام أتوا   **نـيابة عـنه** في **تبلـيغ دعـواه**
فهـو الرسـول إلى كـل الخلائق في   **كـل العصـور ونابـت عنه أفواه** [(١)]

وإذا كان المسلمون يعتقدون بأن رسول الله ﷺ قد مات كما يموت سائر البشر بعد أن بلغ رسالة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [(٢)] وإذا بمتأخري الصوفية يعتقدون بأن الرسول حي وأنه يرى يقظة لا مناما، وأن مشايخ الصوفية يتلقون عنه مباشرة ويجتمعون به. وهذا من أظهر البطلان الذي يكذب التاريخ والواقع ويستحيل أن تقبله الفطر والعقول [(٣)].

فساد مفهوم محبة الرسول ﷺ :

بعد أن كانت محبة الرسول ﷺ تعنى إيثاره على كل مخلوق سواه، وطاعته واتباعه. صار معناها عند غلاة الصوفية عبادته ودعاؤه والسؤال به وتأليف الصلوات المبتدعة وعمل الموالد وإنشاء القصائد الشركية في الاستغاثة به وصرف وجوه العبادة إليه ﷺ وبعد أن كان تعظيم رسول الله ﷺ باتباعه والأدب معه وتوقيره، صار التعظيم عندهم هو الغلو فيه ﷺ بإخراجه عن حد البشرية ورفعه إلى مرتبة الألوهية.

هذا عن دور الغلاة في إفساد عقيدة المسلمين في الله ورسوله وتحويلهم عن الإسلام والتوحيد الخالص على عقائد وثنية مخالفة للإسلام جملة وتفصيلا.

---

(١) انظر النفحات الأقدسية ، ص١٧ . .
(٢) سورة الزمر آية : ٣٠ .
(٣) سيأتي مزيد بيان في الرد على هذه الخرافة في مبحث البدع التي ظهرت بدعوى محبة الرسول .

ثانيا: آثار الغلو في الرسول ﷺ على العبادات الشرعية:

أدى الغلو في الرسول ﷺ إلى الانحراف بالعبادات عن وضعها الشرعي، وتأويلها، وابتداع عبادات ما أنزل الله بها من سلطان فبعد أن كان المسلمون يرون أن أعظم أعمالهم بعد الإيمان بالله هو الصلاة وبقية أركان الإسلام. جاء غلاة الصوفية فزعموا أن أجل الأعمال هو الإيمان بوحدة الوجود والتحقق بها (أي الفناء في ذات الله)، والإيمان بالحقيقة المحمدية، والصلاة عليها بأكثر الصلوات شركا وكفرا، وقضاء الأعمار في الخلوات والأذكار المبتدعة، وسيأتي لهذا مزيد بيان [1].

ويؤمن المسلمون بأن أجل ما ورثوه عن رسول الله ﷺ هو هديه وسنته، فجاءت الصوفية لتزعم بأن أجل ما ورثوه عن رسول الله ﷺ هو الطريقة، والحقيقة، والتصوف الفلسفي بمقاماته واصطلاحاته، وهلم جرا.

أما هديه ﷺ وسنته فلا يعرفونها ولا يرفعون لها رأسا بل يرون أن المشتغلين بالسنة. الداعين إليها هم من ألد خصومهم. لأن مهمتهم نشر الهدي ودين الحق الذي فيه إبطال كل خرفات وأباطيل الملاحدة والزنادقة قديما وحديثا.

(١) انظر : مبحث البدع التي ظهرت بدعوى المحبة .

المبحث السادس

حكم الإسلام في الغلو في رسول الله ﷺ

لقد جاءت نصوص الشرع بإثبات بشرية الرسول ﷺ وأنه بشر محكوم بقوانين البشرية غير أنه مفضل بخصائص تناسب نبوته ورسالته ويأتي التأكيد على هذا الأمر لئلا يتطرق الغلو إلى الرسول ﷺ مثلما وقع لليهود مع عزير وللنصارى مع عيسى ابن مريم عليه السلام.

وَقَدْ نَهى اللهُ أَهْلَ الْكِتَابِ - خَاصَةً النصَارَى - عَنِ الْغُلُو وحذرهم من سوء عاقبته فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ ﴾ (٢) الآية.

وفي نهي الله لهم تَحْذِيرٌ لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقعت فيه النصارى من الغلو في عيسى ورفعهم له فوق مرتبته ووصفه بصفات الألوهية، فوقعوا بسبب ذلك في الشرك والكفر المخرج عن الملة.

لأجل هذا نهى الرسول ﷺ عن الغلو في الدين عامة وفيه خاصة وذلك في أحاديث كثيرة.

منها ما أخرجه النسائي وابن ماجه واللفظ له بسنده ۞ عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (قال لي رسول ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: " القط لي حصى " فلقطت له سبع حصيات، هن حصى الخذف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: " أمثال هؤلاء فارموا " ثم قال: " يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في

---

(١) سورة المائدة آية : ٧٧ .

(٢) سورة النساء آية : ١٧١ .

الدين ﴾ [1] [2].

قال ابن تيمية في شرح هذا الحديث:

(وقوله: ﴿ إياكم والغلو في الدين ﴾ [3] عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال. والغلو: مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق، ونحو ذلك، والنصارى أكثر غلوا في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف.

وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ [4].

وسبب هذا اللفظ عام: رمي الجمار. وهو داخل فيه، فالغلو فيه مثل الرمي بالحجارة الكبار، ونحو ذلك. بناء على أنه أبلغ من الحصى الصغار ثم علل ذلك: بأن ما أهلك من قبلنا إلا الغلو في الدين كما نراه في النصارى. وذلك يقتضي: أن مجانبة هديهم مطلقا أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه أن يكون هالكا) [5].

ومنها ما أخرجه البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. فإنما أنا عبده. فقولوا عبد الله ورسوله ﴾ [6] [7].

ففي هذا الحديث تحذير واضح لهذه الأمة من الإطراء في مدحه ﷺ حتى لا يفضي

---

(١) النسائي مناسك الحج (٣٠٥٩) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (٢١٥/١) .
(٢) سبق تخريجه ، ص ١٤٧ .
(٣) ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (٢١٥/١) .
(٤) سورة النساء آية : ١٧١ .
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ، ٢٨٩/١ - ٢٩٠ .
(٦) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦١) .
(٧) سبق تخريجه ، ص ٢٤ .

ذلك إلى الغلو فيه كما غلت النصارى من قبل في عيسى بن مريم عليه السلام.

والنهي عن الإطراء في هذا الحديث يحتمل أمرين:

- إما النهي عن مطلق المدح والاقتصار على وصفه بأنه عبد الله ورسوله.

- وإما النهي عن المبالغة في المدح لئلا يؤدى ذلك إلى وصف الرسول ﷺ بصفات الألوهية. ولكلا الأمرين ما يؤيده من الأحاديث (١).

وبين الرسول ﷺ في هذا الحديث م لته التي أنزله الله إياها، وهي مرتبة العبودية لله، ﷻ ثم مرتبة الرسالة التي اصطفاه الله لها.

فأمر الرسول ﷺ أمته أن تصفه بالعبودية والرسالة ولا تتجاوز ذلك إلى غيره من الأوصاف التي تتضمن الإطراء المنهي عنه.

ومع أن هذا الحديث حجة قاطعة في النهي عن الإطراء وسد باب الغلو في الرسول ﷺ إلا أن الغلاة حاولوا تأويل هذا الحديث بما يبطل معناه ويؤدى إلى نقيضه، فزعموا أن الإطراء المنهي عنه في هذا الحديث هو إطراء مشابه لإطراء النصارى لعيسى، ووصفهم له بصفات الألوهية والربوبية وقولهم عنه أنه الله أو ابن الله. وما سوى ذلك من أنواع الإطراء فليس بمذموم بل هو مستحب (٢).

فأجازوا إطراء الرسول ﷺ بما دون وصفه بصفات الألوهية والربوبية. وظنوا أن هذا من قبيل التعظيم لرسول الله ﷺ.

كما قال البوصيري في البردة:

دع مـا ادعـته النصـارى في نبيهم	**واحكـم بمـا شئت مدحا فيه واحتكم**
فانسـب إلى ذاتـه ما شئت من شرف	**وأنسـب إلى قـدره ما شئت من عظم**
فـإن فضـل رسـول الله لـيس له	**حـد فـيعرب عـنه نـاطق بفـم**

---

(١) انظر : التوسل . أنواعه وأحكامه . للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط٥ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) انظر الجوهر المنظم في زيارة القبر النبوي لابن حجر الهيتمي ص ٦١ .

وهذا جهل واضح بمعنى الحديث ومقصود الرسول ﷺ به لأن معناه النهي عن المدح أصلا، أو النهي عن المبالغة فيه.

ثم إن تعظيم الرسول ﷺ لا يكون إلا بما شرعه، ووصفه ومدحه بدون قيد قد يدخل في أنواع من الشرك كالاستغاثة به ﷺ عند الشدائد وطلب الحاجات منه إلى غير ذلك من أنواع الغلو المفضي إلى الشرك، الذي نهى الله ورسوله عنه.

وليت هؤلاء الغلاة وقفوا في إطرائه ﷺ عند هذا الحد فلم يصفوه بصفات الألوهية والربوبية كما فعلت النصارى، بل إنه قد وصل بهم الغلو إلى مساواة الرسول ﷺ بالله.

يقول صاحب كتاب النفحات الأقدسية:

(فشأن محمد في جميع تصرفاته هو شأن الله، تعالى، فليس لمحمد ﷺ من محمد شيء ولذلك كان نورا ذاتيا من عين ذات الله) [1] وفي هذا الكلام من الكفر الصريح ما فيه والذي يناقض ما جاء به الرسول ﷺ من تحقيق التوحيد وسد الذرائع إلى الشرك.

ومن الأحاديث التي وردت في النهي عن الإطراء في المدح ما أخرجه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه ﴿ أن رجلا قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله ﷺ عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل ﴾ [2] [3].

وأخرج أبو داود بسنده ﴿ عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: (انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا فقال: السيد الله تبارك وتعالى. قلنا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا. فقال: " قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرينكم

(١) النفحات الأقدسية ، ص ٩ .

(٢) أحمد (١٥٣/٣) .

(٣) سبق تخريجه ، ص ٨٩ .

الشيطان ﴾ [(١)] [(٢)].

قال الخطابي:

(وإنما منعهم - فيما نرى - أن يدعوه سيدا، مع قوله ﴿ أنا سيد ولد آدم ﴾ [(٣)]، وقوله للخزرج ﴿ قوموا إلى سيدكم ﴾ [(٤)] - يريد سعد بن معاذ - من أجل أنهم قوم حديثو عهد بالإسلام، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة كما هي بأسباب الدنيا، وكان لهم رؤساء يعظمونهم، وينقادون لأمرهم، ويسمونهم السادات، فعلمهم الثناء عليه وأرشدهم إلى الأدب في ذلك، فقال: ﴿ قولوا بقولكم ﴾ [(٥)] يريد قولوا بقول أهل دينكم وملتكم وادعوني نبيا ورسولا كما سماني الله ﷻ في كتابه فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ [(٦)] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [(٧)]، ولا تسموني سيدا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم ولا تجعلوني مثلهم، فإني لست كأحدهم، إذ كانوا يسودونكم بأسباب الدنيا وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة، فسموني نبيا ورسولا [(٨)].

فكره رسول الله ﷺ من أصحابه أن يواجهوه بالمدح لئلا يفضي ذلك إلى الغلو، وأخبر أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه - ولو بما فيه - من عمل الشيطان لما يقتضيه المدح والإطراء من تعاظم الممدوح في نفسه وهذا ينافي التوحيد، لأنه يدخل في النفس

(١) أبو داود الأدب (٤٨٠٦) ، أحمد (٤/٢٥) .

(٢) سنن أبي داود . كتاب الأدب ، باب كراهية المدح ، ٥/١٥٤ - ١٥٥ ، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ، ٣/٢٢٦ .

(٣) مسلم الفضائل (٢٢٧٨) ، أحمد (٢/٥٤٠) .

(٤) البخاري الجهاد والسير (٢٨٧٨) مسلم الجهاد والسير (١٧٦٨) أبو داود الأدب (٥٢١٥) ، أحمد (٣/٢٢) .

(٥) أبو داود الأدب (٤٨٠٦) ، أحمد (٤/٢٥) .

(٦) سورة الأنفال آية : ٦٤ .

(٧) سورة المائدة آية : ٤١ .

(٨) معالم السنن للخطابي ، ٥/١٥٥ .

الكبر والعجب المفسد للاعتقاد والعمل.

كما في الحديث القدسي ﴿ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئا منهما قذفته في النار ﴾ (1) (2).

وفي الحديث ﴿ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ﴾ (3) (4).

وهذه الآفات سببها محبة المدح، لأجل هذا كره الرسول ﷺ من أصحابه أن يواجهوه بالمدح والإطراء حتى لا ينافي هذا عبوديته الخالصة لربه، فمقام العبودية يقتضي كراهية المدح أصلا، والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح صيانة لهذا المقام، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحا لهم، وحماية لمقام التوحيد من أن يدخل عليه ما يفسده من الشرك ووسائله ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ (5) ورأوا أن فعل ما ناهم الرسول ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات وحسنة من أعظم الحسنات (6).

وفي قوله ﷺ ﴿ أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق م لتي التي أنزلني الله عَجَلَّ ﴾ (7) دليل قاطع على كراهية الرسول للمدح بما سوى العبودية

---

(1) مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٢٠) ، أبو داود اللباس (٤٠٩٠) ، ابن ماجه الزهد (٤١٧٤) ، أحمد (٢/ ٤٤٢) .

(2) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس ، باب ما جاء في الكبر ، ٤/ ٣٥٠ - ٣٥١ . وبنحوه أخرجه مسلم مرفوعا إلى النبي كتاب البر . باب تحريم الكبر ، ٤/ ٢٠٢٣ .

(3) مسلم الإيمان (٩١) ، الترمذي البر والصلة (١٩٩٩) ، أبو داود اللباس (٤٠٩١) ، ابن ماجه المقدمة (٥٩) ، أحمد (١/ ٣٩٩) .

(4) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر ، ٩٣/١ .

(5) سورة البقرة آية : ٥٩ .

(6) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص٧٣١ - ٧٣٣ .

(7) أحمد (٣/ ١٥٣) .

والرسالة وأخبر أن هذه هي م لته الحقيقية التي أنزله الله إياها، وهذا مما يبين أن الغلاة قد سلكوا في غلوهم مسلكا لا يحبه الرسول ﷺ ولا يرضاه بل نى عنه في مواقف كثيرة.

وقد أنكر الرسول ﷺ على من قال له ما شاء الله وشئت فقال له: ﴿ أجعلتني والله عدلا بل ما شاء الله وحده ﴾ (١) (٢) كما أنكر على معاذ رضي الله عنه حينما هم أن يسجد له (٣) ومعاذ إنما قصد بذلك تعظيم النبي ﷺ لكن النبي ﷺ أنكر عليه ذلك لأنه لا ينبغي السجود إلا لله وحده، فكل من عظم الرسول ﷺ بما لم يشرعه فقد غلا فيه وإن ظن أنه بذلك معظما.

ومن هذا الباب نهيه ﷺ عن اتخاذ قبره عيدا ومسجدا حتى لا تقع الأمة في الشرك. فحقق الرسول ﷺ لأمته التوحيد وسد كل الذرائع إلى الشرك وقطع أسبابه والتي من أعظمها الغلو فيه، لأجل هذا كان الغلو في الرسول ﷺ محرما لأنه يفضي إلى الشرك والكفر، ولما يتضمنه هذا الغلو من القدح في مقام الألوهية وتفرد الله بصفات الربوبية.

ولأن فيه تنقيصا للنبي ﷺ لأن كماله في عبوديته لربه كما يتضمن الكذب عليه لأن الرسول ﷺ ما دعا الخلق إلا إلى إفراد الخالق بالعبادة، ولم يدعهم إلى عبادة نفسه ووصفه بصفات الرب كما أنه لم يدع أنه من نور، أو أن له في الكون شيئا من التدبير، أو أنه يعلم الغيب إلى غير ذلك مما يعتقده الغلاة فيه.

بل عد ذلك مما يناقض الدين الذي جاء به، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾ (٤) الآية.

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا

---

(١) ابن ماجه الكفارات (٢١١٧) ، أحمد (٢١٤/١) .

(٢) سبق تخريجه ، ص ٨٩ .

(٣) انظر المسند ، ٣٨١/٤ ، ٢٢٧/٥ - ٢٢٨ .

(٤) سورة الأنعام آية : ٥٠ .

رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] وقال تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [2].

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم - وهم أعلم خلق الله بعد رسوله ﷺ بالدين وأشدهم حبا وتعظيما لله ولرسوله ﷺ ومعرفة لحقوقه - لم يتعاملوا معه ﷺ إلا على أنه بشر مثلهم رسول، لا على أنه إنسان حل فيه الإله، أو أنه روح الله أو أنه مخلوق من نور إلى آخر ما يعتقده الغلاة. ولا دعوا الناس إلى ذلك، وإنما دعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وأن رسول الله ﷺ عبد الله اصطفاه الله لرسالته وعلى هذا جرى سلف هذه الأمة. إلى أن رفعت الزندقة رأسها فوجد في الأمة من أنواع الغلو ما يناقض شرع الله.

وما علمت هذه المقالات ولا ابتدعت إلا من أناس زنادقة منافقين كالحلاج وابن عربي والجيلي وابن الفارض [3] وغيرهم من الغلاة الذين سار على نجهم أكثر الصوفية حتى زماننا هذا.

وهذه المقالات التي ابتدعوها هي كفر وزندقة متسترة بدعوى حبهم للرسول ﷺ وتعظيمه.

فهي في ميزان الشرع كفر صريح أو مؤدية للكفر ومن اعتقد فيها وقال بها عن علم

---

(١) سورة الجن ، آية(٢٠-٢٢) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (٧٩-٨٠) .

(٣) عمر بن علي بن مرشد المعروف بابن الفارض حموي الأصل ، مصري المولد والدار والوفاة . اشتغل بالفقه والحديث أول أمره ثم انتقل إلى التصوف فكان أكثر الصوفية شعرا ، ومن أشهر شعره تائية السلوك التي جمع فيها فنون الالحاد والاتحاد والكفر برب العالمين . توفي (٦٣٢ هـ) . قال عنه الذهبي " ينعق بالاتحاد الصريح في شعره وهذه بلية عظيمة فتدبر نظمه ولا تستعجل ولكنك حسن الظن بالصوفية ، وما ثم إلا زي الصوفية وإشارات مجملة وتحت الزي والعبارة فلسفة وآفاعي فقد نصحتك والله الموعد " . ميزان الاعتدال ، ٢١٤/٣ - ٢١٥ . وانظر لسان الميزان ، ٣١٧/٣- ٣١٩ . وشذرات الذهب ، ١٤٩/٥- ١٥٣ .

فقد كفر.

وذلك كالقول بقدم النور المحمدي وأنه مادة العالم وأن الرسول كان بحقيقته موجودا قبل أن يخلق آدم وأنه إنسان عين الله، وأنه هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود بأسره وأن الحقيقة المحمدية هي العقل الكلي الذي يصل ما بين الوجود المطلق وهو الله وما بين عالم الطبيعة (الخلق).

وأن الحقيقة المحمدية هي روح الله المنفوخ في آدم وأن محمدا ﷺ كان خلقا في ظاهره خالقا في باطنه وأن الأنبياء كانوا صورا للحقيقة المحمدية وأن الحقيقة المحمدية ليست إلا الله متعينا في أول تعيناته وهي اسم الله الأعظم إلى غير ذلك من العقائد الباطلة.

فهذه الأمور من اعتقدها فلا شك في كفره وزندقته، كما حكم جمع من العلماء بكفر ابن عربي ومن تابعه على معتقده [1] ومع كون هذه الأمور كفرا بواحا، إلا أن هؤلاء الزنادقة الضلال موهوه وخرفوه وأخرجوه في قالب محبة الرسول ﷺ وحجبوا الناس عن تلقي حقائق الشرع، والعلم بالدين حتى لا ينكشف للناس زيغهم وضلالهم.

وشجعهم على ذلك انتشار الجهل بين غالبية المسلمين حتى عد هؤلاء الضلال من علماء الدين وأولياء الله الصالحين.

فراجت في سوق الجهل بضاعتهم وأقبل عليها الجهال يحسبونا دينا يتقربون به إلى الله فإذا بم قد وقعوا في الشرك الأكبر وصاروا عبيدا لهؤلاء الضلال يتلاعبون بعقولهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة. والمحفوظ من حفظه الله فأنار بصيرته وفتح للحق قلبه وعقله.

(١) انظر : العقد الثمين ، ٢/١٦٠ وما بعدها . وتنبيه الغبي إلى كفر ابن عربي ، ص ١٥٠ وما بعدها .

الفصل الثاني

الابتداع

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول - تعريف البدعة وبيان حكمها.

المبحث الثاني - البدع التي ظهرت بدعوى محبة الرسول ﷺ.

المبحث الثالث - آثار الابتداع.

المبحث الأول

تعريف البدعة وبيان حكمها

البدعة في اللغة: اسم هيئة من الابتداع كالرفعة من الارتفاع وهي: كل شيء أحدث على غير مثال سابق. سواء أكان محمودا أم مذموما. وهي مأخوذة من بدع الشيء يبدعه بدعا إذا أنشأه واخترعه.

قال ابن فارس:

(" بدع " الباء والدال والعين أصلان: أحدهما ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال والآخر الانقطاع والكلال) [1] وجاء في لسان العرب:

(بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه... والبديع والبدع: الشيء يكون أولا. وفي التنزيل: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [2] أي ما كنت أول من أرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير. والبدعة: الحدث وما ابتدع في الدين بعد الإكمال.... وأبدع وابتدع وتبدع: أتى ببدعة. قال الله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ [3] وبدعه: نسبه إلى البدعة... والبديع: المحدث العجيب،.... وأبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال. والبديع من أسماء الله - تعالى - لإبداعه الأشياء وإحداثه إياه. وهو البديع الأول قبل كل شيء. ورجل بدع وامرأة بدعة: إذا كان غاية في كل شيء، كان عالما أو شريفا أو شجاعا) [4].

هذا ما يختص بالأصل الأول من معاني الكلمة، وهو الاختراع والإحداث وأما ما يختص بالأصل الثاني: وهو الانقطاع والكلال، فمنه قولهم - كما جاء في لسان العرب: (... أبدعت الإبل: بركت في الطريق من هزال أو داء أو كلال، وفي الحديث:

(١) معجم مقاييس اللغة ، ٢٠٩/١ .
(٢) سورة الأحقاف آية : ٩ .
(٣) سورة الحديد آية : ٢٧ .
(٤) لسان العرب ، مادة بدع ، ٦/٨ - ٧ .

﴿ إني أبدع [(١)] فاحملني ﴾ [(٢)]... كأنه جعل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السير إبداعا أي إنشاء أمر خارج عما اعتيد منها) [(٣)].

وهذا راجع إلى المعنى الأول. لأن انقطاع الدابة عن السير طارئ على عادتا وأمر حادث لم يكن من قبل. ومن هذا المعنى الثاني أخذت البدعة أيضا، لأنا وإن كانت شيئا مخترعا لم يسبق له مثيل إلا أن فيها معنى الانقطاع، لأنا تنقطع بصاحبها عن سلوك الصراط المستقيم.

وعلى هذا فالكلمة تدور على معنى الإحداث والاختراع والخروج عن حد المألوف والمعهود.

قال الشاطبي:

(ومن هذا المعنى - أي الإحداث والاختراع - سميت البدعة بدعة، فاستخراجها للسلوك عليها هو الابتداع، وهيئتها هي البدعة، وقد يسمى العمل المعمول على ذلك الوجه بدعة. فمن هذا المعنى سمي العمل الذي لا دليل عليه في الشرع بدعة، وهو إطلاق أخص منه في اللغة) [(٤)].

تعريف البدعة اصطلاحا:

بعد بيان المعنى اللغوي للبدعة أنتقل لبيان معناها الاصطلاحي لنرى العلاقة بين المعنيين.

وأول ما يقابلنا في البحث عن تعريف العلماء للبدعة هو أنه ليس هناك تعريف موحد متفق عليه بين العلماء، إذ انقسم العلماء في تعريف البدعة إلى فريقين:

- الفريق الأول وسع مدلول البدعة لتشمل كل ما حدث بعد رسول الله ﷺ سواء

---

(١) أبدع : انقطع إذا هلكت دابته ولم يجد ما يركبه .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة . باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره ، ١٥٩٦/٣ . وأبو داود في كتاب الأدب ، باب في الدال على الخير ، ٣٤٦/٥ .

(٣) لسان العرب . مادة بدع ، ٩/٨ .

(٤) الاعتصام للشاطبي ، ٣٦/١ .

كان مذموما أو محمودا.

- والفريق الثاني قصر مدلول البدعة على الحادث المذموم الذي لم يرد به الشرع ولم يندرج تحت أصل يعمل به. مما يدخل في العبادة أو قصد به التعبد من العادات وبالجملة فهي تطلق عند هذا الفريق في مقابلة السنة.

وتبعا لذلك انقسم تعريف البدعة بسبب هذين الاتجاهين، فالاتجاه الأول يرى أن البدعة تنقسم إلى محمودة ومذمومة، والاتجاه الثاني يرى أن البدعة لا تكون إلا مذمومة. وسنعرض لتعريف البدعة لدى كل فريق بشيء من التفصيل، ونتبع ذلك بتحديد معنى البدعة الشرعية وبيان حكمها.

أولا - القائلون بالتقسيم:

يرى هذا الفريق أن البدعة: هي كل ما أحدث في الدين بعد رسول الله ﷺ سواء أكان محمودا أم مذموما، وعلى ذلك فالبدعة عندهم تنقسم إلى محمودة ومذمومة، لكن منهم من اكتفى بذلك، ومنهم من قال بجريان الأحكام الخمسة عليها.

فممن ذهب إلى أنا تنقسم إلى محمودة ومذمومة الإمام الشافعي - رحمه الله - حيث قال: (البدعة بدعتان، بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم) [1].

واحتج بقول عمر رضي الله عنه في قيام رمضان (نعمت البدعة هي) [2].

وروى عن الشافعي قول آخر يفسر ما سبق. فأخرج البيهقي في مناقب الشافعي بسنده عنه قال: (المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما: ما أحدث مما يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهي البدعة الضلالة. والثانية ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، ط ٣ ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ـ ١١٣/٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التراويح . باب فضل من قام رمضان ، ٥٨/٣ .

هذا [1] فهي محدثة غير مذمومة) [2].

وقال ابن الجوزي:

(البدعة عبارة - عن فعل لم يكن فابتدع، والأغلب في المبتدعات أنا تصادم الشريعة بالمخالفة وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان. فإن ابتدع شيء لا يخالف الشريعة ولا يوجب التعاطي عليها فقد كان جمهور السلف يكرهونه وكانوا ينفرون من كل مبتدع وإن كان جائزا حفظا للأصل وهو الاتباع... وقد جرت محدثات لا تصادم الشريعة ولا يتعاطى عليها فلم يروا بفعلها بأسا) [3] واستشهد بقول عمر: " نعمت البدعة هذه ".

ثم قال: (ومتى أسند المحدث إلى أصل مشروع لم يذم، فأما إذا كانت البدعة كالمتمم فقد اعتقد نقص الشريعة، وإن كانت مضادة فهي أعظم) [4].

وإذا كان الشافعي ومن تابعه قد اكتفى بتقسيم البدعة إلى قسمين: بدعة محمودة أو مستحسنة، وبدعة مذمومة. فإن العز بن عبد السلام [5] ومن حذا حذوه مالوا إلى التفصيل. فالبدعة عندهم تجرى عليها الأحكام الخمسة.

قال العز بن عبد السلام:

(البدعة: فعل ما لم يعهد في عهد رسول الله ﷺ وهي منقسمة إلى: بدعة واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة، والطريق في معرفة ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة، وإن دخلت في قواعد التحريم فهي محرمة، وإن دخلت في قواعد المندوب فهي مندوبة، وإن دخلت في

---

(١) أي لا يخالف هذا الحادث الكتاب أو السنة أو الأثر أو الإجماع .

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط١ ، دار التراث ، القاهرة ، ٤٦٨/١ - ٤٦٩ .

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي ، طبع المطبعة المنيرية ، نشر دار الندوة الجديدة ، بيروت ، ص١٦ - ١٧ .

(٤) تلبيس إبليس لابن الجوزي ، طبع المطبعة المنيرية ، نشر دار الندوة الجديدة ، بيروت ، ص١٦ - ١٧ .

(٥) هو عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الدمشقي الملقب بسلطان العلماء (٥٧٧ - ٦٦٠هـ) . فقيه . شافعي . بلغ رتبة الاجتهاد . من تصانيفه : الإلمام في أدلة الأحكام ، قواعد الشريعة ، بداية السول في تفصيل الرسول . وغيرها . انظر : طبقات الشافعية الكبرى ، ٢٠٩/٨ - ٢٧٧ .

قواعد المكروه فهي مكروهة، وإن دخلت في قواعد المباح فهي مباحة) [١].

ومثل هذا قسمها القرافي [٢]. [٣]. والنووي [٤] وابن حجر [٥] في أحد المواضع في الفتح.

ثانيا - القائلون بذم البدعة مطلقا:

يرى هذا الفريق أن البدعة تطلق على كل ما أحدث في الدين مما لا أصل له في الشرع وأن البدعة مذمومة مطلقا. وقد ذهب إلى هذا جمع من الأئمة، والعلماء منهم الإمام مالك - رحمه الله - حيث قال: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [٦] فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا) [٧] وقال الإمام أحمد - رحمه الله:

(أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة ضلالة) [٨] وممن سار على هذا النهج ابن وضاح [٩] في كتابه البدع والنهي

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، طبع مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ٢٠٤/٢.

(٢) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس عبد الرحمن الصنهاجي (... - ٦٧٤ هـ) أصله من صنهاجة بالمغرب وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. فقيه مالكي. أصولي له مؤلفات كثيرة منها: أنوار البروق في أنواء الفروق، والذخيرة في فقه المالكية، وشرح تنقيح الفصول في الأصول، والأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة. انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي. طبع دار الكتب العلمية، بيروت، ص٦٢ وما بعدها.

(٣) انظر: الفروق للقرافي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٢/٤ وما بعدها.

(٤) تذيب الأسماء واللغات للنووي، طبع المطبعة المنيرية، مصر، القسم الثاني، ٢٢/١ - ٢٣.

(٥) فتح الباري، ٢٥٣/٤.

(٦) سورة المائدة آية: ٣.

(٧) الاعتصام، ٤٩/١.

(٨) طبقات الحنابلة لأبي يعلى الفراء. نشر دار المعرفة بيروت، ٢٤١/١.

(٩) هو أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيغ القرطبي، (١٩٩ - ٢٨٦هـ)، عالم محدث. فقيه. رحل إلى المشرق فحصل علما كثيرا ثم رجع إلى الأندلس فنشره فانتفع به خلق كثير. من تصانيفه. مكنون السر ومستخرج العلم في الفقه، القطعان في الحديث. انظر: سير أعلام النبلاء، ٤٤٥/١٣ - ٤٤٦، ولسان الميزان، ٤١٦/٥.

عنها حيث عقد بابا بعنوان كل محدثة بدعة وساق الآثار التي تؤكد ذلك وتؤيده [1].

ويعرف ابن تيميه البدعة بقوله:

(إن البدعة في الدين هي ما لم يشرعه الله ورسوله، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب) [2].

ويقول ابن رجب:

(والمراد بالبدعة: ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا، وإن كان بدعة لغة) [3].

وإلى هذا ذهب الحافظ ابن حجر عند شرحه لقول ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ وشر الأمور محدثاتها ﴾ [4] [5] حيث قال: (والمراد بقوله: كل بدعة ضلالة: ما أحدث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عام) [6].

ولعل أحسن من فصل القول في هذا المجال الإمام الشاطبي - رحمه الله - حيث عرف البدعة بتعريفين:

أولهما: أنها (طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى.

وهذا التعريف على رأى من لا يدخل العادات في معنى البدعة وإنما يخصها بالعبادات.

ثانيهما: البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية) وهذا على رأى من أدخل العادات في مسمى البدع. وليس هذا

---

(١) انظر : البدع والنهي عنها لمحمد بن وضاح القرطبي ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط ٢ ، دار البصائر ، دمشق ، ١٤٠٠هـ ص٢٣ وما بعدها .

(٢) مجموع الفتاوى ، ١٠٧/٤ - ١٠٨ .

(٣) جامع العلوم والحكم ، ص ٢٣٣ .

(٤) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٤٩) ، الدارمي المقدمة (٢٠٧) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ١١٤/٩ .

(٦) فتح الباري ، ٢٥٣/١٣ ، ٢٥٤ .

التعريف داخلا معنا لأن الصحيح أن البدعة لا تدخل العادات إلا ما قصد به التعبد منها.

ثم أخذ الشاطبي يشرح ألفاظ التعريف، ويتلخص ما قاله فيما يأتي: الطريقة والطريق: ما رسم للسلوك عليه.

في الدين: قيد يخرج الاختراع في أمور الدنيا.

وإنما قيدت بالدين لأنا فيه تخترع، وإليه يضيفها صاحبها، ولو كانت الطريقة مخترعة في الدنيا لم تسم بدعة، وذلك كإنشاء المدن الحديثة واختراع الآلات التي لم تكن موجودة من قبل.

مخترعة: أي لا أصل لها في الشريعة، ولا تعلق لها بها. لأن البدعة تتميز بأنا خارجة عما رسمه الشرع.

وهذا القيد يخرج ما حدث وله أصل في الشرع كتصنيف العلوم الشرعية مثلا، فإنا وإن لم توجد في الزمان الأول، فأصولها موجودة في الشرع، وهي مستمدة من قاعدة المصالح المرسلة، ولا ينبغي أن تسمى بدعة أصلا، ومن سمى مثل ذلك بدعة فإما أن يريد المفهوم اللغوي لها، - كما سمى عمر بن الخطاب ﷺ جمع الناس على قيام رمضان بدعة - وإما من جهله بمواقع السنة والبدعة.

تضاهي الشرعية: أي أن البدعة تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون كذلك بل هي مضادة لها من أوجه متعددة منها:

- وضع الحدود، وذلك كالناذر للصيام قائما لا يقصد، ضاحيا لا يستظل، والاقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف.

- ومنها التزام الكيفيات والهيئات المعينة، كالذكر بيئة الاجتماع على صوت واحد، واتخاذ يوم ولادة النبي ﷺ عيدا، وما أشبه ذلك.

- ومنها التزام العبادات المعينة في أوقات معينة، لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة، وذلك كالتزام صيام يوم النصف من شعبان، وقيام ليلته، وكون البدعة تضاهي الأمور المشروعة وصف لازم لها، وإلا لكانت من باب الأفعال العادية.

ويبين ذلك، أن صاحب البدعة يخترعها ليضاهي بها السنة، سواء لبس بها صاحبها على الناس، أو كانت مما التبست عليه - هو - بالسنة ويؤكد هذا انتصار المبتدع لبدعته بأمور تخيل أنها مشروعة، ولو بدعوى الاقتداء بفلان المعروف منصبه في أهل الخير.

- يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله، تعالى، هذا القصد. قيد لإخراج العادات التي لا يقصد بها التعبد من البدع، وبيان أن ما ابتدع من الأمور الزائدة على المشروع، والمنسوبة للشرع، مقصود بها المبالغة في التعبد، أو تجديد النشاط إلى العبادة (1).

وعرفها الشمني بأنها (2) (ما أحدث على خلاف الحق المتلقي عن رسول الله ﷺ من علم أو عمل أو حال بنوع شبهة أو استحسان، وجعل دينا قويما وصراطا مستقيما) (3) والمراد بالعلم: الاعتقاد، وبالحال: هيئة العمل (4).

أدلة القائلين بالتقسيم.

وبعد أن استعرضنا تعريف كل من الفريقين للبدعة أنتقل إلى عرض أدلة كل فريق ومناقشتها حتى يتسنى لنا تحديد معنى البدعة في الشرع.

وسأبدأ بالفريق الأول: وهم القائلون بالتقسيم:

إن مراد هذا الفريق باستدلالهم بهذه الأدلة هو بيان أنها تخصص العموم الوارد في ذم البدعة، وأنها ليست كلها ضلالة، بل منها المحمود والمذموم، وقد استدلوا بعدة أدلة منها:

- قول عمر رضي الله عنه عن جمع الناس على قيام رمضان: ﴿ نعمت البدعة هذه ﴾ (5) (6)

---

(1) انظر: الاعتصام، ١/٣٧ - ٤٢.

(2) هو أحمد بن محمد بن محمد الشمني، نسبة لمزرعة في بلاد المغرب. المصري (٨٠١ - ٨٧٢ هـ). فقيه. محدث. لغوي. من تصانيفه: المنصف من الكلام على مغني ابن هشام في النحو، ومزيل الخفا عن ألفاظ الشفا، تعليقا على الشفا للقاضي عياض، كمال الدراية في شرح النقاية في الفقه الحنفي. انظر: شذرت الذهب، ٧/٣١٣، والأعلام، ١/٢٣١.

(3) حكاه الشيخ على محفوظ في كتابه: الإبداع في مضار الابتداع، ط ٧، دار الاعتصام، القاهرة، ص ٢٦.

(4) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(5) البخاري صلاة التراويح (١٩٠٦)، مالك النداء للصلاة (٢٥٢).

(6) سبق تخريجه ص ٢٢٠.

ووجه الاستدلال بهذا القول: أن عمر قد سمى ذلك الفعل بدعة، ووصفها بما يفيد حسنها فدل ذلك على أن هناك بدعة حسنة في الشرع.

- ومنها ما أخرجه مسلم بسنده عن جرير بن عبد الله ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيء ﴾ [1] [2].

قال النووي:

(وفي هذا الحديث تخصيص قوله ﷺ ﴿ كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ﴾ [3] [4] وأن المراد به المحدثات الباطلة والبدع المذمومة) [5].

ويشرح الشاطبي وجه استدلالهم بهذا الحديث:

بأنه صريح في أن من سن سنة خير فذلك خير، وأن سن هنا بمعنى اخترع وابتدع لكون الاستنان قد نسب إلى المكلف دون الشارع، ولو كان المراد من عمل سنة ثابتة في الشرع لما قال: ﴿ من سن ﴾ [6].

ويدل على ذلك قوله ﷺ ﴿ ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول

(١) مسلم الزكاة (١٠١٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٥) ، النسائي الزكاة (٢٥٥٤) ، ابن ماجه المقدمة (٢٠٣) ، أحمد (٣٥٩/٤) ، الدارمي المقدمة (٥١٤) .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الزكاة . باب الحث على الصدقة ، ٧٠٤/٢ - ٧٠٥ .

(٣) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣١١/٣) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

(٤) سبق تخريجه ص ١٢١ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٠٤/٧ .

(٦) مسلم الزكاة (١٠١٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٥) ، النسائي الزكاة (٢٥٥٤) ، ابن ماجه المقدمة (٢٠٣) ، أحمد (٣٥٩/٤) ، الدارمي المقدمة (٥١٤) .

كفل منها -من دمها- لأنه أول من سن القتل ﴿ [1] [2] فقوله ﷺ ﴿ سن ﴾ [3] بمعنى اخترع. لأنه أول من اخترع القتل بين الناس ولم يكن موجودا. ومثله قوله ﷺ ﴿ من سن في الإسلام سنة حسنة ﴾ [4]. أي اخترعها من نفسه وأحدثها. لكن بشرط أن تكون حسنة حتى يكون له الأجر.

إذا فليس المراد: من عمل سنة ثابتة، ولو كان المراد كذلك لقال من عمل بسنتي، أو بسنة من سنتي، أو من أحيا سنة من سنتي [5].

ومن الأدلة ما أخرجه الترمذي بسنده عن بلال بن الحارث: ﴿ أن النبي ﷺ قال لبلال بن الحارث: (اعلم: قلت: ما أعلم يا رسول الله؟ قال: إنه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا) ﴾ [6] [7].

قال الشاطبي:

فقوله ﴿ من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدى ﴾، واضح في العمل بما ثبت أنه

---

(١) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٩٠) ، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٣) ، النسائي تحريم الدم (٣٩٨٥) ، ابن ماجه الديات (٢٦١٦) ، أحمد (٤٣٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام . باب إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة ، ١٢٧/٩ .

(٣) مسلم الزكاة (١٠١٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٥) ، النسائي الزكاة (٢٥٥٤) ، ابن ماجه المقدمة (٢٠٣) ، أحمد (٣٥٩/٤) ، الدارمي المقدمة (٥١٤) .

(٤) مسلم الزكاة (١٠١٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٥) ، النسائي الزكاة (٢٥٥٤) ، ابن ماجه المقدمة (٢٠٣) ، أحمد (٣٥٩/٤) ، الدارمي المقدمة (٥١٤) .

(٥) انظر : الاعتصام ، ١٧٨/١ - ١٧٩ .

(٦) الترمذي العلم (٢٦٧٧) ، ابن ماجه المقدمة (٢١٠) .

(٧) سنن الترمذي ، كتاب العلم . باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتاب البدعة ١٥٠/٤ - ١٥١ ، وسيأتي الكلام عليه .

سنة...، بخلاف قوله: من سن كذا، فإنه ظاهر في الاختراع أولا من غير أن يكون ثابتا في السنة. وأما قوله ﷺ لبلال بن الحارث ﴿ ومن ابتدع بدعة ضلالة ﴾ [١] فظاهر أن البدعة لا تذم بإطلاق. بل بشرط أن تكون ضلالة، وأن تكون لا يرضاها الله ورسوله، فاقتضى هذا كله أن البدعة إذا لم تكن كذلك لم يلحقها ذم، ولا تبع صاحبها وزر، فعادت إلى أنا سنة حسنة، ودخلت تحت الوعد بالأجر [٢].

ومما استدلوا به أيضا:

أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. قد استحسنوا أشياء لم يرد با نص معين في كتاب ولا سنة مما رأوه حسنا وأجمعوا عليه، ولا تجتمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، وإنما يجتمعون على هدى وعلى ما هو حسن. مثال ذلك. أنم أجمعوا على جمع القرآن وكتابته في المصحف وعلى جمع الناس على المصاحف العثمانية واطراح ما سواها.

ثم اقتفى الناس أثرهم في ذلك الرأي الحسن، فجمعوا العلم ودونوه وكتبوه. ومثل ذلك قتل عمر الجماعة بالواحد، وتضمين الصناع، وكل هذه محدثات لم تكن في عهد رسول الله ﷺ وقد استحسنها الصحابة ومن بعدهم.

فدل ذلك على أن البدع تنقسم إلى حسنة وقبيحة [٣] وربما استدلوا [٤] بالحديث الموقوف على ابن مسعود رضي الله عنه وهو قوله: ﴿ ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ﴾ [٥] [٦].

قال الشيخ علي محفوظ:

---

(١) الترمذي العلم (٢٦٧٧) ، ابن ماجه المقدمة (٢١٠) .

(٢) الاعتصام ، ١٧٩/١ .

(٣) انظر : الاعتصام ، ١٧٩/١ - ١٨١ .

(٤) انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، ملا على القاري . بمباي الهند ، أبناء غلام رسول السرتي ، ١/ ١٧٩ .

(٥) أحمد (٣٧٩/١) .

(٦) سبق تخريجه ، ص٩٤ .

(ووجه الشبهة فيه ظاهر وهو أنه قال: " ما رآه المسلمون والظاهر ما رأوه بعقولهم فرجع التحسين إليهم فهم المخترعون، ولو كان التحسين بالدليل لما نسب الرؤية إلى المسلمين، فدل على أن البدعة فيها الحسن والقبيح ") [1].

وبناء على ما تقدم فإن هذا الفريق يرى:

- أن البدعة تطلق على كل ما أحدث في الدين بعد رسول الله ﷺ سواء كان محمودا أو مذموما.

- أن كل ما ورد في ذم البدع، مثل قوله ﷺ ﴿ كل بدعة ضلالة ﴾ [2] عام مخصوص.

- أن البدعة تدور عليها الأحكام الخمسة.

أدلة القائلين بذم البدعة:

تتركز أدلة هذا الفريق حول إثبات أن البدعة سيئة ومذمومة مطلقا، وقد استدلوا على ذلك بأدلة من القرآن والسنة، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [3] فهذه الآية تدل على أن الشريعة قد جاءت كاملة فلا تحتاج إلى زيادة ولا نقصان. وحاصل كلام المبتدع وحاله، أن الشريعة لم تتم وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها في زعمه، ولو كان معتقدا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولم يستدرك عليها، ولاشك أن من اعتقد هذا فهو ضال عن الصراط المستقيم [4].

قال الإمام مالك:

(١) الإبداع في مضار الابتداع ، ص١٢٨ .

(٢) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣١١/٣) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

(٣) سورة المائدة آية : ٣ .

(٤) الاعتصام ، ٤٨/١-٤٩ .

(من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [1] فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا) [2].

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [3] .

فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع.

وليس المراد بالسبل: المعاصي، لأن المعاصي - من حيث هي - لم يضعها أحد طريقا تسلك دائما للتعبد. وإنما هذا الوصف خاص بالبدع والمحدثات.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿ (خط لنا رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيما قال ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ [4] ﴾ [5].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ [6] قال: البدع والشبهات [7] ومن الآيات التي استدلوا با قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [8] فالسبيل القصد هو طريق الحق، وما سواه جائر عن الحق،

---

(١) سورة المائدة آية : ٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص٤٩ .
(٣) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .
(٥) المسند ، ٤٦٥/١ ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ٢٣٩/٢ .
(٦) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .
(٧) تفسير الطبري ، ٢٢٩/١٢ .
(٨) سورة النحل آية : ٩ .

أي منحرف عنه إلى طرق البدع والضلالات والمعاصي.

وعن مجاهد: ﴿ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [(١)] أي المقتصد منها بين الغلو والتقصير وذلك يفيد أن الجائر هو الغالي أو المقصر، وكلاهما من أوصاف البدع.

ومن الأدلة الواردة في القرآن مما يدل على ذم المبتدعين قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ [(٢)] فهذه الآية تبين حال الزائغين عن اتباع الحق، وذلك باتباعهم لما تشابه من الكتاب. بقصد الفتنة في الدين وما ذاك إلا بسبب زيغ في قلوبم وفساد في أفهامهم.

وهذا صنيع أهل البدع لأنم يتركون محكم الكتاب ويتمسكون بمتشابه، وقد ورد في الحديث ما يفسر الآية ويحذر من المبتدعة وأشباههم فقد أخرج البخاري بسنده ﴿ عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ ﴾ [(٣)] إلى قوله: ﴿ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٧ ﴾ [(٤)] قالت: قال رسول الله ﷺ فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) ﴾ [(٥)].

وأخرج الآجري بسنده عن طاووس قال: (ذكر لابن عباس - رضي الله عنهما

---

(١) سورة النحل آية : ٩ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٧ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٧ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٧ .
(٥) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ) ٤٢/٦ .

الخوارج - وما يصيبهم عند قراءة القرآن؟ (١) فقال - رضي الله تعالى عنه: " يؤمنون بمحكمه ويضلون عن متشابه. وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون: آمنا به ") (٢) ولا شك أن الخوارج كانوا أوائل المبتدعة، وكانت تلك سمتهم وسمة من أتى بعدهم من أهل البدع على اختلاف بدعهم (٣) وهي التمسك بالمتشابه وترك المحكم لزيغ في القلب.

وهذه الآيات قد تضمنت ذم الابتداع وأهله بطريق الإجمال ولم تخصص نوعا من البدع أو المحدثات دون نوع أو قسما دون قسم بل هي عامة، يستفاد منها ذم البدع مطلقا.

وبعد أن استعرضنا بعض الآيات التي تشير إلى ذم البدعة وأهلها ننتقل إلى السنة لاستعراض الأحاديث التي استدل بها القائلون بذم البدع مطلقا. فمن ذلك ما أخرجه أحمد وغيره عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: ﴿ صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. فقال: " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ﴾ (٤) (٥) فهذا الحديث نص في أن البدع كلها ضلالة بلا استثناء في ذلك ولا يحتمل تخصيصا يخرج بعض البدع عن هذا الوصف، وذلك لورود التعميم في أحاديث أخرى، ولم يرد في حديث منها ما يخصص ذلك العموم.

---

(١) أي ما يعتريهم من غلبة البكاء عند قراءة القرآن . والله أعلم .
(٢) الشريعة ص٢٧ .
(٣) انظر الاعتصام ، ١/٥٦ - ٥٧ .
(٤) أبو داود السنة (٤٦٠٧) ، الدارمي المقدمة (٩٥) .
(٥) سبق تخريجه ، ص ١٢١ .

ومن الأدلة ما أخرجه مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله قال: ﴿ كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم. ويقول: " بعثت أنا والساعة كهاتين " ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد. فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتا وكل بدعة ضلالة ﴾ (١) (٢).

قال الحافظ ابن حجر:

(قوله: ﴿ كل بدعة ضلالة ﴾ (٣) قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها، أما منطوقها، فكأن يقال: حكم كذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، فلا تكون من الشرع لأن الشرع كله هدى. فإن ثبت أن الحكم المذكور بدعة، صحت المقدمتان وأنتجتا المطلوب) (٤).

ومن الأدلة أيضا ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله تعالى عنها: قالت: قال رسول الله ﷺ ﴿ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ﴾ (٥). وفي رواية لمسلم: ﴿ من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ﴾ (٦) (٧) فهذا الحديث يدل على

---

(١) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣/٣١١) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الجمعة . باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/٥٩٢ .

(٣) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣/٣١١) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

(٤) فتح الباري ، ١٣/٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٥) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (٦/٢٧٠) .

(٦) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (٦/٢٥٦) .

(٧) سبق تخريجه ، ص ٧٠ .

أن من أحدث في الدين شيئا وليس أصل في الشرع يدل عليه فهو باطل ومردود على صاحبه.

قال النووي عند شرحه لهذا الحديث بروايتيه:

(... وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات. وفي الرواية الثانية زيادة، وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئا فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات، سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها.. وهذا الحديث مما ينبغي حفظه، واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به) [(١)].

ومع ما سبق. فالحديث يعتبر ميزانا توزن به الأعمال هل هي موافقة للشرع أم لا؟

قال الحافظ ابن رجب:

(وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، كما أن حديث: « إنما الأعمال بالنيات » [(٢)] ميزان للأعمال في باطنها، فهذا ميزان للأعمال في ظاهرها فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله - تعالى -فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء، ثم قال: " فهذا الحديث بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود، والمراد بأمره هاهنا: دينه وشرعه كالمراد بقوله في الرواية الأخرى « من أحدث

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٦/١٢ .

(٢) البخاري بدء الوحي (١) مسلم الإمارة (١٩٠٧) الترمذي فضائل الجهاد (١٦٤٧) ، النسائي الطهارة (٧٥) ، أبو داود الطلاق (٢٢٠١) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٢٧) ، أحمد (٤٣/١) .

في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ﴾ [1]. فالمعنى إذا أن كل من كان عمله خارجا عن الشرع، ليس متقيدا بالشرع فهو مردود.

وقوله: ﴿ ليس عليه أمرنا ﴾ [2] إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونيها، فمن كان عمله جاريا تحت أحكام الشريعة موافقا لها فهو مقبول، ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود ") [3].

ومنها قوله ﷺ (.... ﴿ فمن رغب عن سنتي فليس مني ﴾ [4] [5] فهذا الحديث فيه تحذير ووعيد شديد لمن رغب عن السنة وعدل عنها إلى غيرها من الأهواء والبدع.

وبناء على ما سبق فإن هذا الفريق من العلماء يرى:

- أن جميع ما ورد في ذم البدع من نحو قوله ﷺ ﴿ كل بدعة ضلالة ﴾ [6] عام باق على عمومه.
- أن البدعة لا تكون إلا مذمومة، وإن استحسنها صاحبها.
- إن البدعة تطلق على ما أحدث في الدين بعد رسول الله ﷺ مما لا دليل عليه في الشرع بطريق خاص ولا عام.
- أن البدعة المقصودة بالذم شرعا لا تقبل التقسيم. أما التي قسمها العلماء فهي

---

(١) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (٢٧٠/٦) .

(٢) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (١٤٦/٦) .

(٣) جامع العلوم والحكم ، ص٥٢ .

(٤) البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٢٨٥/٣) .

(٥) سبق تخريجه ، ص ١٢٢ .

(٦) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣١١/٣) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

البدعة اللغوية وهي أعم وأشمل من البدعة الشرعية.

وبناء على ذلك فقد ناقشوا القائلين بالتقسيم في دعواهم.

مناقشة القائلين بالتقسيم:

سبق أن ذكرنا أن أصحاب هذا الاتجاه قد انقسموا إلى فريقين:

- ففريق يرى أن البدعة تنقسم إلى محمودة ومذمومة واكتفى بذلك. ويمثله الإمام الشافعي ومن تابعه.

- والفريق الثاني زاد على ذلك بالقول بتقسيمها إلى خمسة أقسام وكان هذا الفريق أكثر تفصيلا وتوضيحا. ويمثله العز بن عبد السلام وتلميذه القرافي ومن تابعهما.

أما الإمام الشافعي فقد ورد عنه قولان يفسر أحدهما الآخر. وحاصلهما أنه يرى أن البدعة المذمومة ما ليس لها أصل في الشريعة، وأن البدعة المحمودة ما أحدثت ولها أصل في الشريعة.

وقد نبه الحافظ ابن رجب على ذلك فقال: (وقد روى الحافظ أبو نعيم بإسناده عن إبراهيم بن الجنيد قال: سمعت الشافعي يقول: البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم، واحتج بقول عمر رضي الله عنه " نعمت البدعة هي ". ومراد الشافعي -رحمه الله- ما ذكرناه من قبل أن أصل البدعة المذمومة ما ليس لها أصل في الشريعة ترجع إليه وهي البدعة في إطلاق الشرع. وأما البدعة المحمودة فما وافق السنة: يعني ما كان لها أصل من السنة ترجع إليه، وإنما هي بدعة لغة لا شرعا لموافقتها السنة.

وقد روى عن الشافعي كلام آخر يفسر هذا، أنه قال: المحدثات ضربان:

ما أحدث مما يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهذه البدعة الضلالة، وما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا [١] فهذه محدثة غير مذمومة) [٢].

---

(١) مقصوده والله أعلم : ألا يخالف ذلك المحدث الكتاب أو السنة والأثر أو الإجماع .

(٢) جامع العلوم والحكم ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

أما القائلون بالتقسيم فقد سبق إيراد أدلتهم والآن أبدأ بمناقشتها.

- أولا: استدلالهم بقول عمر ﷺ " نعمت البدعة هذه " وأن عمر قد سمى جمع الناس على قيام رمضان بدعة واستحسنها.

ليس فيه دليل على ما ذهبوا إليه من وجود البدعة الحسنة شرعا. ذلك أن عمر ﷺ لم يرد ذلك وإنما أراد المفهوم اللغوي لها وهو أوسع من المفهوم الشرعي. لأنا تطلق في اللغة على الحادث محمودا كان أو مذموما بخلاف الشرع فلا تطلق إلا على الحادث المذموم.

أما ما فعله عمر ﷺ فقد كان سنة من كل وجه، ويوضح ذلك: أن قيام رمضان سنة وأنه ﷺ قد حث عليه ورغب فيه فقال: ﴿ من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ﴾ [1] [2] ثم إنه ﷺ صلى القيام في المسجد جماعة بأصحابه عدة ليال فلما كثر الناس في المسجد امتنع من الخروج إليهم خشية أن تفرض عليهم. فظل الأمر على ذلك حتى توفاه الله.

ويبين ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة - رضي الله عنها - أخبرته ﴿ أن رسول الله ﷺ خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم، فصلى فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال: أما بعد، فإنه لم يخف علي مكانكم، ولكن خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها. فتوفى رسول الله ﷺ والأمر ذلك ﴾ [3] [1].

---

(١) البـخاري الإيمان (٣٧) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٠) ، الترمذي الصوم (٦٨٣) ، النسائي الصيام (٢٢٠٦) ، أبو داود الصلاة (١٣٧١) ، أحمد (٤٢٣/٢) ، الدارمي الصوم (١٧٧٦) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب صلاة التراويح . باب فضل من قام رمضان ، ٥٨/٣ .

(٣) البخاري الجمعة (٨٨٢) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٦١) النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٠٤) ، أبو داود الصلاة (١٣٧٣) ، أحمد (١٦٩/٦) ، مالك النداء للصلاة (٢٥٠) .

وعلى ذلك فالجماعة في القيام سنة وليست بدعة، فلما توفى رسول الله ﷺ وزال المانع بانقطاع الوحي بقيت على سنيتها وظل الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وصدرا من خلافة عمر، رضي الله عنه حتى رأى عمر أن يجمع الناس على القيام وراء إمام واحد بدلا من صلاتم في المسجد أوزاعا متفرقين.

فعن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: (خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلى الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلى بصلاته الرهط. فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل. ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال: نعم البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون، يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله) [٢].

ثم أجمع الصحابة على صحة ما فعله عمر وأقروه فصار إجماعهم حجة. هذا بالإضافة إلى أنه سنة خليفة راشد أمرنا باتباعها لما روى الترمذي بسنده عن العرباض بن سارية أنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة. الحديث، وفيه: ﴿ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ﴾ [٣] [٤].

وعلى ذلك فالجماعة في قيام رمضان سنة وليست بدعة، وإنما سماها عمر رضي الله عنه بذلك إرادة منه للمفهوم اللغوي، لا الشرعي. ولأن رسول الله ﷺ قد تركها لمانع - وهو خوف الافتراض - قد زال بوفاته واتفق أنا لم تصل جماعة في زمان أبي بكر، رضي الله عنه إما لأنه رأى أن قيام الناس آخر الليل أفضل من جمعهم على إمام أول الليل، وإما لضيق زمانه عن النظر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب صلاة التراويح . باب فضل من قام رمضان ، ٥٨/٣ - ٥٩ . ومسلم في كتاب صلاة المسافرين . باب الترغيب في قيام رمضان ، ٥٢٤/١

(٢) سبق تخريجه ، ص ٢٢٠ .

(٣) الترمذي العلم (٢٦٧٦) ، ابن ماجه المقدمة (٤٢) ، أحمد (١٢٦/٤) ، الدارمي المقدمة (٩٥) .

(٤) سبق تخريجه ، ص ١٢١ .

في هذه الفروع لاشتغاله بحروب الردة وغير ذلك [1].

فلما تمهد الإسلام في زمان عمر ﷺ رأى جمعهم على إمام واحد وكان له الفضل في إحياء هذه السنة. وعلى ذلك فاستدلال القائلين بالتقسيم بهذا القول لا يؤدى إلى ما ذهبوا إليه من وجود البدعة الحسنة شرعا. ولو افترضنا صحة استدلالهم بهذا فليس قول الصحابي حجة إذا خالف الحديث.

كيف وقد أتت الأحاديث تشهد بالضلالة لكل بدعة.

يقول ابن تيمية:

(وأما قول عمر: " نعمت البدعة هذه " فأكثر المحتجين بهذا لو أردنا أن نثبت حكما بقول عمر الذي لم يخالف فيه، لقالوا: " قول الصاحب ليس بحجة " فكيف يكون حجة لهم في خلاف قول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم؟ ومن اعتقد أن قول الصاحب حجة فلا يعتقده إذا خالف الحديث فعلى التقديرين: لا تصلح معارضة الحديث بقول الصاحب.

.... ثم نقول: أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك بدعة مع حسنها، وهذه تسمية لغوية لا تسمية شرعية، وذلك أن البدعة في اللغة تعم كل ما فعل ابتداء من غير مثال سابق، وأما البدعة الشرعية فكل ما لم يدل عليه دليل شرعي) [2] وأما استدلالهم بحديث: ﴿ من سن في الإسلام سنة حسنة ﴾ [3] - وأن سن بمعنى اخترع وابتدع - على وجود البدعة الحسنة شرعا.

فالجواب: أنه ليس المراد بالاستنان هنا الاختراع، وإنما المراد به العمل بما ثبت في السنة النبوية، أو إحياء أمر مشروع غفل عنه الناس أو تركوه، وبيان ذلك من وجهين:

(١) انظر : كتاب الحوادث والبدع لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي تحقيق محمد الطالبي ، تونس ، ١٩٥٩ م .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ، ٥٨٩/٢ - ٥٩٠ .

(٣) مسلم الزكاة (١٠١٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٥) ، النسائي الزكاة (٢٥٥٤) ، ابن ماجه المقدمة (٢٠٣) ، أحمد (٣٥٩/٤) ، الدارمي المقدمة (٥١٤) .

- الأول: أن سبب ورود الحديث يفسر المراد بذلك.

ففي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: « كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار. قال فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار [(١)] أو العباء، متقلدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج. فأمر بلالا فأذن وأقام. فصلى ثم خطب فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [(٢)] إلى آخر الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ [(٣)] والآية التي في الحشر: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ [(٤)] تصدق رجل من ديناره من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة، قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس. حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة [(٥)] فقال رسول الله ﷺ من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده. من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده. من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » [(٦)].

فهذا الحديث يدل على أن المراد بالسنة الحسنة هو مثل ما فعله ذلك الصحابي، حيث أتى بتلك الصرة فانفتح بسببه باب الصدقة وتتابع الناس بعده فكان فاتحة الخير في هذا الإحسان. وإذا نظرنا إلى ما فعله هذا الصحابي نجد أن هذه الصدقة أمر مشروع وأنه لم

---

(١) النمار : جمع نمرة : وهي كساء من صوف مخطط ، ومعنى (مجتابيها) أي لابسيها قد خرقوها في رؤوسهم . والجواب : القطع تمعر : أي تغير . انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ، ١٠٢/٧ .
(٢) سورة النساء آية : ١ .
(٣) سورة النساء ، آية (١) .
(٤) سورة الحشر آية : ١٨ .
(٥) مذهبة : أي فضة مذهبة ، والمراد به الصفاء والاستنارة . انظر : المصدر نفسه ، ١٠٣/٧ .
(٦) رواه مسلم . كتاب الزكاة . باب الحث على الصدقة ، ٧٠٥/٢ .

يخترع شيئا جديدا.

غاية الأمر أنه كان له الفضل في تنبيه الصحابة وتشجيعهم - بفعله - على الصدقة وعلى ذلك فالمراد بالسنة الحسنة في الحديث: هو العمل بالسنة، خاصة إذا غفل عنها الناس أو تركوها.

ويتسع معنى السنة الحسنة ليشمل كل ما كان من أبواب الخير مما نبه إليه الشرع وحث عليه بشرط أن يكون على مقصود الشرع من الاتباع.

- الوجه الثاني:

أن قوله ﷺ ﴿ من سن في الإسلام سنة حسنة ﴾ [١] لا يمكن حمله على الاختراع، لأن كون السنة حسنة أو سيئة لا يعرف إلا بموافقة الشرع أو بمخالفته فما وافق الشرع وأوامره فهو من السنة الحسنة، ويدل على ذلك معنى الحديث.

وتطلق السنة السيئة على أمرين:

- أحدهما: إحداث المعاصي واختراع الفجور كما في حديث ابن آدم الأول ولفظه: ﴿ ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها - وربما قال سفيان: من دمها - لأنه سن القتل أولا ﴾ [٢] [٣].

- والثاني: هو الإحداث في الدين والابتداع فيه.

وأيضا لو صح حمل هذا الحديث على وجود البدعة الحسنة شرعا لكان معارضا بالأحاديث الدالة على عموم ذم البدعة، وإذا تعارضت أدلة العموم والتخصيص، لم يقبل

(١) مسلم الزكاة (١٠١٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٥) ، النسائي الزكاة (٢٥٥٤) ، ابن ماجه المقدمة (٢٠٣) ، أحمد (٣٥٩/٤) ، الدارمي المقدمة (٥١٤) .

(٢) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٩٠) ، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٣) ، النسائي تحريم الدم (٣٩٨٥) ، ابن ماجه الديات (٢٦١٦) ، أحمد (٤٣٣/١) .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٢٧ .

ذلك التخصيص [١].

وأما حديث بلال بن الحارث وفيه ﴿ ومن ابتدع بدعة ضلالة ﴾ [٢] فهذا الحديث لا يحتج به ولا يصلح للاستدلال لأنه ضعيف. وسبب ضعفه أنه من رواية كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، وهو أحد المتروكين المجروحين ممن لا يعتد بحديثه [٣].

وأما استدلالهم بقول ابن مسعود: (ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن) فقد اعتاد كثير من الناس - المنتسبين للعلم منهم والجهال - الاحتجاج بهذا الأثر على أن في الدين بدعة حسنة، وأن الدليل على حسنها اعتياد الناس عليها - ويروون هذا الأثر على أنه مرفوع إلى النبي ﷺ هذا مع أن الحديث موقوف على ابن مسعود لا يصح رفعه بحال من الأحوال.

وقبل الجواب أورده بنصه. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجلعهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوه سيئا فهو عند الله سيئ) [٤].

وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذهبوا إليه وذلك:

- لأن الحديث موقوف فلا يجوز أن يحتج به في معارضة النصوص القاطعة في أن:

---

(١) انظر الاعتصام ، ١/١٨١ وما بعدها .

(٢) الترمذي العلم (٢٦٧٧) ، ابن ماجه المقدمة (٢١٠) .

(٣) قال عنه أحمد بن حنبل : منكر الحديث ليس بشيء ، وقال الآجري : سئل عنه أبو داود فقال : كان أحد الكذابين ، ومثل ذاك قال الشافعي : وقال ابن حبان : روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا في الرواية عنه إلا على جهة التعجب ، وقال ابن عبد البر : مجمع على ضعفه . قال الحافظ الذهبي : وأما الترمذي فقد صحح له بعض الأحاديث ولذلك لا يعتمد العلماء على تصحيحه . انظر الضعفاء والمجروحين لابن حبان ، ٢/٢٢١ - ٢٢٢ ، وميزان الاعتدال للذهبي ، ٣/٤٠٦ - ٤٠٨ ، وتذيب التهذيب ، ٨/٤٢١ - ٤٢٣ .

(٤) سبق تخريجه ، ص ٩٤ .

﴿ كل بدعة ضلالة ﴾ [1] كما صح عن النبي ﷺ في أكثر من حديث.

- وعلى التسليم بأنه حجة، فإنه لا يعارض تلك النصوص القاطعة في ذم البدعة لأمور:

١ - أن المراد بهذا الأثر إجماع الصحابة وعلى ذلك فاللام في " المسلمون " ليست للاستغراق، بل هي للعهد لأن سياق الأثر يدل على ذلك. كما وضحته زيادة الحاكم على هذا الأثر [2].

٢ - وعلى التسليم بأن المراد به غير الصحابة فلا يعني أن المقصود به عموم المسلمين عالمهم وجاهلهم بل المقصود به أهل الإجماع.

ولو كان المقصود به عموم المسلمين عالمهم وجاهلهم لاستلزم الباطل لأمرين:

- أحدهما: أنه سيناقض قوله ﷺ ﴿ ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة ﴾ [3] [4].

ووجه التناقض - أن الحديث الأول يفيد - في نظر المستدلين به - أن كل مسلم مصيب لأن الحديث قد حكم بالحسن على مذهبه.

- الثاني: أنه يقتضي أن يكون العمل حسنا عند بعض الناس قبيحا عند البعض الآخر وهذا باطل [5] ولو كان المراد منه استحسان عامة المسلمين لكان هذا فتحا لباب الابتداع في الدين.

وبعد هذا أرى أنه لا يمكن الاحتجاج بقول ابن مسعود على وجود البدعة الحسنة أو

---

(١) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣١١/٣) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

(٢) ونص هذه الزيادة : " وقد رأى الصحابة أن يستخلفوا أبا بكر " .

(٣) أبو داود السنة (٤٥٩٧) ، أحمد (١٠٢/٤) ، الدارمي السير (٢٥١٨) .

(٤) سبق تخريجه ، ص١٢١ .

(٥) انظر : الإبداع ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

جوازها، وأما الاحتجاج به من المبتدعة وأشباههم إنما يكون لهوى في نفوسهم، وإلا فابن مسعود ﷺ كان من أشد الصحابة تحذيرا من الابتداع ومقاومة للبدع.

وأما استدلالهم بما فعله السلف وعملوا به مما لم يرد فيه نص صريح أو خاص من كتاب أو سنة ومثلوا لذلك بجمع القرآن وتصنيف العلوم وغير ذلك - على وجود البدعة الحسنة.

والجواب عن ذلك: أن ما ذكروه واستدلوا به من فعل الصحابة ليس دليلا على ما ذهبوا إليه.

لأن ما فعله الصحابة كان من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أو من قبيل المصلحة المرسلة عند من يأخذ با.

وأما جمع أبي بكر رضي الله عنه للقرآن وجمع عثمان رضي الله عنه الناس على مصحف واحد فقد كان سببه الخوف من تفلت القرآن من الصدور وضياعه، فقام أبو بكر رضي الله عنه بجمعه بين الدفتين، ثم جاء عثمان رضي الله عنه فجمع الناس على مصحف واحد، وأمر بإحراق ما عداه من المصاحف خشية الاختلاف في القرآن ووقوع الفتنة بسبب ذلك.

فهذا الأمر - أعني جمع القرآن - لم يرد فيه نص عن النبي ﷺ بفعله على وجه الخصوص. لكن نصوص الشرع العامة تؤيده.

فقد كان النبي ﷺ يأمر بكتابة القرآن، ولا فرق بين أن يكتب مفرقا أو مجموعا بل صار جمعه أصلح [(١)] وأيضا فجمع القرآن راجع إلى حفظ الشريعة، والأمر بحفظها معلوم، وراجع إلى سد الذريعة إلى وقوع الاختلاف في القرآن، وقد علم النهي عن الاختلاف في القرآن، بنصوص الشرع المستفيضة [(٢)].

ويرى ابن تيمية أن جمع القرآن لم يخرج عن كونه سنة، لأن السنة - بمعناها الواسع - هي ما قام الدليل الشرعي على أنه طاعة لله ورسوله، سواء فعله الرسول ﷺ أو فعل في

---

(١) انظر : جامع العلوم والحكم ، ص ٢٣٤ .

(٢) انظر : الاعتصام ، ١١٧/٢ .

زمانه أو لم يفعله في زمانه لعدم المقتضى حينئذ لفعله، أو وجود المانع منه، وإذا ثبت أنه أمر به أو استحبه فهو سنة، كما أمر بإجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب، وكما جمع الصحابة القرآن في المصحف، وداوموا على قيام رمضان في المسجد جماعة. وقد قال ﷺ ﴿ لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ﴾ [(١) (٢)] فشرع كتابة القرآن، وعلى ذلك فكتابة القرآن مشروعة لكن لم يجمعه الرسول ﷺ في مصحف واحد لاحتمال نزول آيات أو سور أو احتمال نسخ لبعض آياته.

فلأجل هذا الاحتمال لم يمكن جمعه في مصحف واحد حتى مات رسول الله ﷺ [(٣)] فقام أبو بكر رضي الله عنه بجمعه وقام عثمان رضي الله عنه بجمع الناس على مصحف واحد، وأجمع الصحابة على ذلك فصار إجماعهم دليلا شرعيا. وأما تدوين السنة والعلوم الشرعية فهو من باب تبليغ الشريعة. وقد ورد الأمر بذلك والحث عليه. فقال ﷺ ﴿ ليبلغ الشاهد منكم الغائب ﴾ [(٤) (٥)] وقال: ﴿ بلغوا عني ولو آية ﴾ [(٦) (٧)].

وثبت في السنة الأمر بكتابة العلم كقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ اكتبوا لأبي شاة ﴾ [(٨) (٩)] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ﴿ ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثا مني عن رسول الله ﷺ إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا

---

(١) مسلم الزهد والرقائق (٣٠٠٤) ، الترمذي العلم (٢٦٦٥) ، الدارمي المقدمة (٤٥٠) .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الزهد . باب التثبت في الحديث ، وحكم كتابة العلم ٢٢٩٨/٤ - ٢٢٩٩ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى ، ٣١٧/٢١ - ٣١٨ .

(٤) البخاري العلم (١٠٥) ، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٩) ، ابن ماجه المقدمة (٢٣٣) ، أحمد (٣٧/٥) ، الدارمي المناسك (١٩١٦) .

(٥) صحيح البخاري . كتاب العلم . باب ليبلغ الشاهد الغائب ، ٣٧/١ .

(٦) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٧٤) ، الترمذي العلم (٢٦٦٩) ، أحمد (١٥٩/٢) ، الدارمي المقدمة (٥٤٢) .

(٧) سبق تخريجه ، ص ١٣٠ .

(٨) البخاري العلم (١١٢) ، مسلم الحج (١٣٥٥) ، أبو داود العلم (٣٦٤٩) ، أحمد (٢٣٨/٢) .

(٩) صحيح البخاري . كتاب العلم . باب كتابة العلم ، ٣٩/١ .

أكتب ﴾ [(١) (٢)].

فهذه الأحاديث تدل على أن كتابة العلم وتدوينه أمر مشروع. ويتأكد هذا إذا خيف عليه الضياع والدروس. وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: " أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم. وذهاب العلماء، ولا يقبل إلا حديث النبي ﷺ وليفشوا العلم، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا " [(٣)].

أما قتل عمر رضي الله عنه الجماعة بالواحد حينما اشتركوا في قتله، فإنه وإن لم يرد في الشرع دليل على خصوصه إلا أنه مستند إلى المصلحة التي أيدتا نصوص الشرع الدالة على وجوب حفظ الدماء والنفوس. ويبين وجه المصلحة في ذلك، أن القتيل معصوم الدم، وقد قتل عمدا، فإهدار دمه داع إلى هدم أصل القصاص، واتخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة إلى السعي بالقتل إذا علم أنه لا قصاص فيه، فإيقاع القصاص عليهم أمر تدعو إليه المصلحة الشرعية المعتبرة على وجه العموم وهي حفظ الدماء والنفوس، فلا يعد ذلك من قبيل الابتداع لموافقته مقاصد الشرع وأصوله المعتبرة [(٤)].

ثم هو بعد ذلك فعل خليفة راشد أجمع عليه الصحابة.

أما تضمين الصناع فقد قضى الخلفاء الراشدون بتضمينهم، وقال علي رضي الله عنه (لا يصلح الناس إلا ذاك).

ووجه المصلحة في ذلك: أن الناس لهم حاجة إلى الصناع والغالب عليهم التفريط في عين الأمتعة، فلو لم يضمنوا مع شدة الحاجة إليهم لأفضى ذلك إلى أحد أمرين:

- إما ترك الاستصناع بالكلية، وذلك شاق على الخلق.

---

(١) البخاري العلم (١١٣) ، الترمذي العلم (٢٦٦٨) ، أحمد (٤٠٣/٢) ، الدارمي المقدمة (٤٨٣) .
(٢) صحيح البخاري . كتاب العلم . باب كتابة العلم ، ٣٩/١ .
(٣) سبق تخريجه ، ص ١٣٠ .
(٤) انظر الاعتصام ، ١٢٥/٢ - ١٢٦ .

- وإما أن يعملوا ولا يضمنوا بدعواهم الهلاك، فتضيع الأموال، وتتطرق الخيانة، فكانت المصلحة في التضمين، وهذا معنى قول علي: " لا يصلح الناس إلا ذاك " [1].

وبعد عرض أدلة الفريقين ومناقشة القائلين بالتقسيم تبين أن أدلة القائلين بذم البدع مطلقا أقوى وأسلم من المعارضة لأنه لم يرد في نصوص الشرع ما يعارضها وينقلها من العموم إلى الخصوص، ومن الإطلاق إلى التقييد، وأما ما ذكره الفريق الأول من أدلة فلا يتعارض مع أحاديث العموم الواردة في ذم البدعة. وذلك لأن البدعة هي ما أحدث في الدين وليس عليه دليل صحيح من الشرع لا خاص ولا عام.

وما ذكروه من أمثلة فإما أن يكون داخلا في السنة بمعناها العام. وإما أن يكون وسيلة لتحقيق أمر مشروع كبناء المدارس لنشر العلم الشرعي، وتصنيف العلوم النافعة واستخدام وسائل العصر النافعة في نشر الدين والعلم وهذا كله يندرج تحت معنى السنة الحسنة.

ثم إنه لا خلاف بين الفريقين في ذم البدع المذمومة وإنما الخلاف في تسمية السنة الحسنة بالبدعة الحسنة والاستدلال بما لا ينهض من الأدلة على وجود البدعة الحسنة. ولهذا الأمر خطورته لأن المبتدعة وأهل الأهواء يتذرعون بالخلاف في هذه المسألة ويعدون بدعهم المذمومة من قبيل البدعة الحسنة ويحاولون تخريجها على أصول الشرع.

لأجل هذا كان تحرير محل الـ اع في هذه المسألة مهما جدا. فالجميع متفقون على أن البدع المذمومة ضلالة.

ومتفقون أيضا على أنه قد أحدثت بعد رسول الله ﷺ أشياء حسنة، ولكنهم اختلفوا في تسميتها.

فالفريق الأول سماها بدعة حسنة وحاول أن يثبت بالأدلة وجود البدعة الحسنة شرعا ليندرج تحتها كل ما أحدث من أمور الخير. وليس مقصدهم إلا ذلك.

والفريق الثاني: قال بأنـا ليست من البدع في شيء - لأن البدع كلها ضلالة لا حسن فيها - وإنما هي من قبيل السنة الحسنة. طالما أنـا مندرجة تحت نصوص الشرع وقواعده

(١) انظر الاعتصام ١١٩/٢ .

العامة.

فالخلاف لفظي، ومآل القولين واحد بين أهل العلم في هذه المسألة وإن كان الصحيح الذي لا مرية فيه هو أن البدعة كلها ضلالة، وأن ما سمي بدعة مما ثبت حسنه فاطلاق اسم البدعة عليه شرعا لا ينطبق ولا يسوغ، أما الخلاف الحقيقي فهو بين أهل العلم وأهل الأهواء حينما يريد المبتدعة تسويغ بدعهم المذمومة ونشرها استنادا إلى أنا بدعة حسنة، وأن فريقا من العلماء قالوا بوجود البدعة الحسنة فهنا يكون الخلاف الحقيقي، وتظهر خطورته في انتشار البدع الكثيرة بسبب الاعتماد على وجود مسمى البدعة الحسنة شرعا.

فيجب المحافظة - والحالة هذه - على عموم قوله ﷺ ﴿ كل بدعة ضلالة ﴾ [1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(.... إن المحافظة على عموم قول النبي ﷺ ﴿ كل بدعة ضلالة ﴾ [2] متعين، وأنه يجب العمل بعمومه، وأن من أخذ يصنف " البدع " إلى حسن وقبيح، ويجعل ذلك ذريعة إلى أن لا يحتج بالبدعة إلا على النهي فقد أخطأ، كما يفعل طائفة من المتفقهة، والمتكلمة والمتصوفة. والمتعبدة إذا نوا عن " العبادات المبتدعة " " والكلام في التدين المبتدع "، ادعوا أن لا بدعة مكروهة إلا ما ني، عنه، فيعود الحديث إلى أن يقال: " كل ما ني عنه " أو " كل ما حرم " أو " كل ما خالف نص النبوة فهو ضلالة " وهذا أوضح من أن يحتاج (في رده) إلى بيان، بل كل ما لم يشرع من الدين فهو ضلالة) [3].

وقال أيضا:

(... ومعلوم أن كل ما لم يسنه ولا استحبه رسول الله ﷺ ولا أحد من هؤلاء الذين

---

(١) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣/٣١١) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

(٢) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣/٣١١) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

(٣) مجموع الفتاوى ابن تيمية ، ١٠/٣٧٠ - ٣٧١ .

يقتدي بهم المسلمون في دينهم، فإنه يكون من البدع المنكرات ولا يقول أحد في مثل هذا إنه بدعة حسنة. إذ البدعة الحسنة - عند من يقسم البدع إلى حسنة وسيئة - لا بد أن يستحبها أحد من أهل العلم الذين يقتدي بهم، ويقوم عليها دليل شرعي على استحبابها، وكذلك من يقول البدعة الشرعية كلها مذمومة لقوله ﷺ في الحديث ﴿ كل بدعة ضلالة ﴾ [(١)] ويقول: قول عمر في التراويح إن أسماها بدعة: باعتبار وضع اللغة. فالبدعة في الشرع عند هؤلاء ما لم يقم دليل شرعي على استحبابه. ومآل القولين واحد، إذ هم متفقون على أن ما لم يستحب أو يجب من الشرع فليس بواجب ولا مستحب، فمن اتخذ عملا من الأعمال عبادة ودينا وليس ذلك في الشريعة واجبا ولا مستحبا فهو ضال باتفاق المسلمين [(٢)].

وعلى ذلك فالبدعة المنصوص على ضلالتها في الشرع هي:

- كل ما عارض السنة من الأقوال أو الأفعال أو العقائد.
- كل أمر يتقرب به إلى الله، وقد نهى عنه الشرع.
- كل أمر لا دليل عليه من الشرع، مما يلحق بالعبادات أو العقائد.
- كل عبادة لم تأت كيفيتها إلا في حديث ضعيف أو موضوع.
- كل عبادة أطلقها الشارع وقيدها الناس ببعض القيود مثل المكان والزمان أو الهيئة أو العدد.
- كل أمر لا يمكن أن يشرع إلا بنص أو توقيف ولا نص عليه فهو بدعة، إلا ما كان عن صحابي.
- ما نص على استحبابه بعض العلماء سيما المتأخرين منهم ولا دليل عليه.

---

(١) مسلم الجمعة (٨٦٧) ، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨) ، ابن ماجه المقدمة (٤٥) ، أحمد (٣١١/٣) ، الدارمي المقدمة (٢٠٦) .

(٢) المصدر نفسه ، ١٥٢/٢٧ .

- الغلو في العبادة [1].

(١) انظر أحكام الجنائز للشيخ الألباني ، ص ٢٤٢ .

المبحث الثاني

البدع التي ظهرت بدعوى محبة الرسول ﷺ

لقد كان من أكبر آثار الغلو في الرسول ﷺ ظهور البدع في العقائد والعبادات والتي أظهرها المبتدعة بدعوى حبهم للرسول ﷺ فجعلوا المحبة مبررا لهم في صنيعهم، كما حاولوا أن يلتمسوا لها من الشبه الباطلة ما يقوي بنيانها.

وتنوعت ضروب البدع وتعددت، وكلما مضى الزمان ازدادت البدع حتى أصبحت عقيدة راسخة في النفوس.

وسأتحدث في هذا المبحث عن نماذج من هذه البدع:

أولا - ادعاء الصوفية أنهم يرون الرسول ﷺ يقظة:

أشرت في مبحث آثار الغلو في الرسول ﷺ إلى بعض البدع الاعتقادية في الرسول ﷺ وذلك كالاعتقاد بالحقيقة المحمدية وتوابعها، وبينت بطلانها.

ومما يعتقده الصوفية في هذا الباب إيمانهم بحياة النبي ﷺ بعد موته حياة تامة لها كل خصائص الأحياء، ولذلك قالوا بأنهم يرونه يقظة ويجتمعون به فيرشدهم في طريقتهم، وأنه يحضر حضراتهم التي يقيمونها والموالد التي يعملونها.

وقد أشار الغزالي إلى هذه الخرافة وجعلها من فضائل الصوفية وإن لم يصرح بها تصريحا واضحا فقال عنهم:

(.... حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتهم ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق) [(١)].

ولكن هذه الخرافة لم يصرح بها إلا المتأخرون استغلالا منهم لظروف الجهل التي ضربت عقول المسلمين فصاروا أسرى الخرافات والأساطير.

---

(١) المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي ، مع أبحاث في التصوف للدكتور عبد الحليم محمود ، ط ٨ ، طبع دار الكتب الحديثة ، مصر ، ١٣٩٤ هـ ، ص ١٤٣ .

وقد ذكر عمر بن سعيد [1] الفوتي في كتاب الرماح:

(أن الأولياء يرون رسول الله ﷺ يقظة، وأنه يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء، وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم، فإذا أراد الله أن يراه عبد رفع عنه الحجاب فيراه على هيئته التي كان هو عليها) [2].

وعلى هذه البدعة أسست طرق صوفية كثيرة سميت بالطرق المحمدية لأنها كما يزعمون أخذت من الرسول ﷺ مباشرة في اليقظة وذلك كالطريقة التيجانية [3] والطريقة الأحمدية الإدريسية [4] وغيرها من الطرق. كما بنوا عليها حضراتهم وموالدهم. إذ تزعم الصوفية أن الحضرة التي يقيمونها سميت بذلك لأن النبي ﷺ يحضرها إما بروحه وإما يقظة بجسده وروحه.

وكذلك المولد الذي يقرأونه يزعمون أن النبي ﷺ يحضره. خاصة عند ذكر ولادته ﷺ ولذلك يقومون إليه.

ويقول قائلهم: جاء الرسول. حضر الرسول. وحتى يمعنوا في تضليل الناس بهذه البدعة يقولون بأن الرسول لا يراه إلا الكمل من العباد، أما القاصرون والمنكرون فهم محجوبون

---

(١) عمر بن سعيد بن عثمان الفوتي السنغالي الأزهري التيجاني ، ولد ١٧٩٧ م ، في بلاد (ديمار) الواقعة في السنغال . درس في الأزهر ، وعاد إلى أفريقيا ليجاهد الوثنيين وينشر الإسلام ، وتوفي ١٨٦٤ م . من تصانيفه : كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم ، وكتاب سيوف السعادة وغيرها . انظر التيجانية ، على بن محمد الدخيل الله ، ط ١ ، دار طيبة ، الرياض ، ص ٦٩ - ٧١ .

(٢) مجلة البحوث الإسلامية ، العدد ١٤ ، بحث التيجانية ، ص ٦٩ - ٩٧ نقلا عن رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد الفوتي ، ١٩٨/١ - ١٩٩ .

(٣) التيجانية : نسبة إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار التيجاني المغربي ، (١١٥٠ - ١٢٣٠هـ) ، شيخ الطريقة التيجانية . كان فقيها مالكيا عالما بالأصول والفروع ، ملما بالأدب ، صوفيا . طريقته منتشرة في المغرب ، والسودان ، ومصر ، وغيرها . انظر : الأعلام ، ٢٤٥/١ .

(٤) نسبة إلى أحمد بن إدريس ، وقد مرت ترجمته .

عن رؤيته ﷺ واعتقادهم في هذا يشبه اعتقادهم في القطب الصوفي المغيب عن الأبصار الذي لا يجتمع به إلا كبار الأولياء على زعمهم، مثلما يعتقد الشيعة في الإمام الغائب المنتظر.

يقول صاحب جواهر المعاني عن شيخه أحمد التيجاني:

(قال رضي الله عنه أخبرني سيد الوجود يقظة لا مناما. قال لي أنت من الآمنين، ومن رآك من الآمنين إن مات على الإيمان) [1].

وقال عنه أيضا: (... ثم أمرني بالرجوع ﷺ إلى صلاة الفاتح لما أغلق، فلما أمرني بالرجوع إليها، سألته ﷺ عن فضلها فأخبرني أولا بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانيا أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر ومن كل دعاء كبير أو صغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار) [2].

ويقول أحمد بن إدريس في إحدى صلواته:

(... واجمع بيني وبينه، كما جمعت بين الروح والجسد ظاهرا وباطنا يقظة ومناما، واجعله يا رب روحا لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة) [3].

ويستدلون على ادعائهم رؤية النبي ﷺ يقظة بالحديث الذي رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي ﴾ [4] [5].

---

(١) التيجانية ، ص ١٢٧ ، نقلا عن جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني ، لعلي بن حرازم الفاسي ، ١٢٩/١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٦ ، نقلا عن أحزاب وأوراد التيجاني ، ص١٢ .

(٣) مجموعة أحزاب وأوراد ورسائل . لأحمد بن إدريس ، ص١٨٧ .

(٤) البخاري التعبير (٦٥٩٢) مسلم الرؤيا (٢٢٦٦) الترمذي الرؤيا (٢٢٨٠) ، ابن ماجه تعبير الرؤيا (٣٩٠١) ، أحمد (٢٣٢/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التعبير . باب من رأى النبي في المنام ، ٤٢/٩ .

قالوا فالحديث صريح في رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا قبل الآخرة.

قال ابن أبي جمرة [(١)] (اللفظ - أي لفظ الحديث - يعطي العموم، ومن يدعي الخصوص بغير مخصص منه ﷺ فمتعسف).

وقال السيوطي بعد أن ذكر هذا الحديث وأيده ببعض النقول عن بعض العلماء: (فحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبي ﷺ حي بجسده وروحه وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض.... فإذا أراد الله رفع الحجاب عمن أراد إكراما برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها لا مانع من ذلك ولا داعي للتخصيص برؤية المثال) [(٢)].

وهذا الحديث لا يدل على ما ذهبوا إليه لأن الحديث يحتمل عدة معان ولذلك اختلف العلماء في معناه وحملوه على عدة محامل منها:

- أن المراد به من آمن به في حياته ولم يره - لكونه حينئذ غائبا عنه فيكون بذا مبشرا لكل من آمن به ولم يره. أنه لا بد أن يراه في اليقظة قبل موته ﷺ.

- أو أن معناه أنه سيرى تأويل تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها وخروجها على الوجه الحق.

- وقيل أنه على التشبيه والتمثيل ويدل على ذلك الرواية الأخرى ولفظها: ﴿ فكأنما رآني في اليقظة ﴾ [(٣)].

- وقيل معناه أن يراه يقظة في الآخرة، وهذا بشارة لرائيه في النوم بأنه سيموت

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المالكي ، (. . . - ٦٩٩ هـ) مقريء - محدث . من تصانيفه : بجة النفوس وتحليها بذكر مالها وما عليها ، ومختصر صحيح البخاري . انظر : نيل الابتهاج بتطريز الديباج . لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عمر المعروف ببابا التنبكتي . مطبوع بامش الديباج المذهب لابن فرحون المالكي ، طبع دار الكتب العلمية بيروت ، ١٩٧٩ ، ٢٣٧/٤ .

(٢) الحاوي للفتاوي للسيوطي . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٣ ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٩ م ، ٤٥٣/٢ .

(٣) ابن ماجه تعبير الرؤيا (٣٩٠٤) .

مسلما، لأنه لا يراه تلك الرؤيا الخاصة باعتبار القرب إلا من تحقق موته على الإسلام. ومعنى ذلك أنا رؤية خاصة في الآخرة على سبيل القرب منه ﷺ وهذا الوجه والذي قبله أقرب الوجوه إلى الصواب.

- وقيل معناه أنه يراه في المرآة التي كانت له ﷺ إن أمكنه ذلك، وهو قول ابن أبي جمرة [1] قال ابن حجر في الفتح [2] (وهذا من أبعد المحامل).

- وقيل معناه أنه يراه حقيقة في الدنيا ويخاطبه [3].

وهذا الاحتمال الأخير باطل من وجهين:

١ - أنه مستحيل شرعا؛ لمعارضته النصوص. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ﴾ [4] [5] وهو أيضا مخالف لإجماع الأمة التي أجمعت على وفاته ﷺ. ولا يرد على ذلك أن الأنبياء أحياء في قبورهم، وما ورد عنه ﷺ من أنه ترد عليه روحه حتى يرد السلام على من سلم عليه. فإن هذه الحياة حياة برزخية تختلف عن الحياة الدنيا في خصائصها وصفاتا ولذلك يقتصر في شأنا على ما ورد في النصوص، ولا تقاس على الحياة الدنيا بأي حال من الأحوال.

ثم إن حمل هذا الحديث على رؤيته يقظة في الدنيا بعد وفاته يلزم منه ادعاء الكذب على رسول الله ﷺ وهذا مستحيل لأنه معصوم عن الكذب. وبيان ذلك: أن النبي ﷺ قال: « من رآني في المنام فسيراني في اليقظة » [6] فعلق الجواب على الشرط، ومن المعلوم أن جمعا كثيرا من سلف الأمة وخلفها قد رأوه في المنام ولم يذكر أحد منهم أنه

---

(١) انظر بجة النفوس ، ٢٣٨/٤ .

(٢) انظر فتح الباري ، ٣٨٥/١٢ .

(٣) انظر فتح الباري ، ٣٨٥/١٢ .

(٤) سورة الزمر آية : ٣٠ .

(٥) سورة الزمر ، آية (٣٠) .

(٦) البخاري التعبير (٦٥٩٢) ، مسلم الرؤيا (٢٢٦٦) ، الترمذي الرؤيا (٢٢٨٠) ، ابن ماجه تعبير الرؤيا (٣٩٠١) ، أحمد (٢٣٢/٢) .

رآه في اليقظة. وخبر الصادق ﷺ لا يتخلف [(١)].

٢ - أنه مستحيل عقلا لأنه يلزم منه لوازم باطلة مثل أن يخرج ويراه الناس وأن يقود أمته في كل المواطن كما كان في حياته ﷺ وأن يجاهد في سبيل الله وأن يفصل بين الأمة في المسائل المتنازع عليها والحوادث التي وقعت لأمته من بعده طالما أنه حي حياة تامة.

إذ لو صح ذلك لكان حل النبي ﷺ لمشاكل أمته التي حدثت من بعده وجمع كلمتهم أولى من أن يظهر لأناس في مجالس بدعية جمعوا فيها من فنون الشرك والبدع ما نهي عنه وحذر منه.

فكيف يحضر مجالسهم التي بهذه الصفة ويترك الصحابة والأمة من بعدهم يواجهون الفتن بأنفسهم وهم أحوج ما يكونون إليه لو كان حيا.

قال القرطبي [(٢)] فيما نقله الحافظ ابن حجر:

(وهذا القول يدرك فساده بأوائل العقول ويلزم عليه ألا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها، وأن لا يراه رائيان في آن واحد في مكانين وأن يحيا الآن، ويخرج من قبره ويمشى في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده فلا يبقى في قبره منه شيء فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب، لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته في غير قبره، وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل) [(٣)].

ثم إن هذا الحديث لو صح دليلا على دعواهم لتطرقت إليه الاحتمالات السابقة والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، وأيضا فإن رؤية النبي ﷺ بعد موته في اليقظة هي من الأمور الاعتقادية التي لا تثبت إلا بدليل صحيح سالم من المعارضة.

(١) انظر : فتح الباري ، ٣٨٥/١٢ ، والتيجانية ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي المالكي ويعرف بابن المزين (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ) . فقيه . محدث لغوي . وهو شيخ القرطبي المفسر . من تصانيفه : المفهم لما أشكل من شرح صحيح مسلم ، واختصار صحيح البخاري ، وغيرها . انظر : نفح الطيب ٦١٥/٢ ، والديباج المذهب ، ص ٦٨ - ٧٠ .

(٣) فتح الباري ، ٣٨٤/١٢ .

وهذا الدليل محتمل لوجوه متعددة ومعارض بنصوص صريحة قطعية من القرآن والسنة تثبت موته ﷺ [1].

قال ابن تيمية:

(والضلال من أهل القبلة يرون من يعظمونه: " إما النبي ﷺ وإما غيره من الأنبياء يقظة، ويخاطبهم ويخاطبونه. وقد يستفتونه ويسألونه عن أحاديث فيجيبهم. ومنهم من يخيل إليه أن الحجرة قد انشقت وخرج منها النبي ﷺ وعانقه وصاحباه. ومنهم من يخيل إليه أنه رفع صوته بالسلام حتى وصل مسيرة أيام وإلى مكان بعيد.... وهذا موجود عند خلق كثير كما هو موجود عند النصارى والمشركين، لكن كثير من الناس يكذب بهذا، وكثير منهم إذا صدق به يظنه أنه من الآيات الإلهية، وأن الذي رأى ذلك رآه لصلاحه ودينه. ولم يعلم أنه من الشيطان، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضله الشيطان.

ومن كان أقل علما قال له ما يعلم أنه مخالف للشريعة خلافا ظاهرا. ومن عنده علم منها لا يقول له ما يعلم أنه مخالف للشريعة ولا مفيدا فائدة في دينه، بل يضله عن بعض ما كان يعرفه، فإن هذا فعل الشياطين، وهو إن ظن أنه قد استفاد شيئا فالذي خسره من دينه أكثر. ولهذا لم يقل قط أحد من الصحابة: إن الخضر أتاه، ولا موسى ولا عيسى، ولا أنه سمع رد النبي ﷺ. وابن عمر كان يسلم إذا قدم من سفر ولم يقل قط أنه يسمع الرد. وكذلك التابعون وتابعوهم، وإنما حدث هذا من بعض المتأخرين... ممن قل علمه بالتوحيد والسنة، فأضله الشيطان كما أضل النصارى في أمور لقلة علمهم بما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم) [2].

إذا تبين لنا هذا علمنا أن ما يدعيه الصوفية من حياة النبي ﷺ ورؤيتهم له يقظة هو محض خرافة يكذبها العقل والواقع والتاريخ وأن ما بنوه على أساس هذه الخرافة باطل، وأن هذا من تلاعب الشياطين بهم لأنهم ليسوا على الطريقة الشرعية في عقائدهم وعباداتهم،

(١) انظر : التيجانية ، ص١٣١ .

(٢) مجموع الفتاوى ٣٩١/٢٧ - ٣٩٣ .

وإلا لو كان هذا صحيحا لحصل لأفضل الخلق بعده ﷺ وهم صحابته، لكنهم لما كانوا على الصراط المستقيم لم تطمع الشياطين في إضلالهم بمثل هذه الخرافات والبدع [1].

وكما لبس الشيطان عليهم في ادعائهم لرؤية النبي ﷺ في اليقظة، فقد لبس على كثير منهم في الرؤيا المنامية مع تعمد كثير منهم الكذب على رسول الله ﷺ في المنام.

فها هو ابن عربي إمام ملاحدة الصوفية المسمى عندهم بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر يزعم بأنه رأى رسول الله ﷺ في المنام وقد أعطاه كتاب فصوص الحكم ليخرج به على الناس، وهو كتاب مشحون بالكفر والكذب على الله ورسوله من أوله إلى آخره.

فلم يكتف بالكذب في يقظته حتى كذب في منامه على رسول الله ﷺ وغالب الصوفية يعتمدون على الرؤيا المنامية في إثبات بدعهم وخرافاتم، فالصادق منهم لبس عليه الشيطان بأنه رأى الرسول ﷺ وهو في الحقيقة لم يره، وأما الكذوب فأمره بين.

وقد ذكر العلماء أن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام لا يثبت بها حكم شرعي أو يُنفَى، لأن الشريعة ثابتة بالأدلة الشرعية المعروفة الظاهرة، وليست الرؤيا دليلا من هذه الأدلة. ثم قالوا إن من رأى رؤيا فليعرض رؤياه على الشرع، فإن وافقت مقتضى الشرع فالحكم به، وتكون الرؤيا من قبيل الاستئناس.

وإن كانت مخالفة لأمر شرعي فمحال وباطلة؛ لأن النبي ﷺ لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته، لأن الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرائي المنامية، فمن رأى شيئا من ذلك فرؤياه غير صحيحة، إذ لو رأى النبي ﷺ في المنام حقا لم يخبره بما يخالف الشرع، فمن أخبر بما يخالف الشرع واستند إلى رؤيا النبي ﷺ وإجازته له فهو أحد رجلين:

إما كذوب دجال كابن عربي وأمثاله، وإما صادق ولكن لبّس الشيطان عليه لقلة

---

(١) انظر في الرد على هذه الخرافة فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ، الـلد الخامس ص ١٨٤٥ ، وما بعدها ، جمع وتحقيق د . صلاح الدين المنجد . ويوسف خوري ط ١ ، دار الكتاب الجديد ، ببيروت ، ١٩٧١م .

علمه فأوهمه أنه رأى النبي ﷺ ولم يره [1].

ثانيا: - **التوسل غير المشروع بالنبي ﷺ:**

ومن البدع التي أحدثها الصوفية التوسل بالنبي ﷺ بذاته وبجاهه أو الإقسام على الله به. ويدخلون في هذا التوسل الاستغاثة به وطلب الحاجات منه. وهذه البدعة أخذت شكلًا علميا لدى الصوفية لكثرة ما كتب فيها من مؤلفات ورسائل. لكن جوهر الحقيقة هو أنهم يريدون أن يظهروا أمام الناس بمظهر المتمسك بأدلة الشرع، لذا نراهم يحرصون على جلب الأدلة وسوقها حتى يتسنى لهم إثبات مشروعية هذا النوع من التوسل بالنبي ﷺ ومن ثم يدخلون فيه كل ألوان الشرك كالاستغاثات والتضرع وطلب الحاجات وغير ذلك.

ثم إن لهم من وراء ذلك مقصدا آخر وهو أنهم يجوزون الشرك بالأولياء والصالحين تحت اسم التوسل بهم، طالما ثبت التوسل بالنبي ﷺ فلا مانع أن يتعدى ذلك إلى الأولياء من بعده. وإذا سألتهم عن الدافع إلى ذلك قالوا ما هو إلا محبة النبي ﷺ وأولياء الله الصالحين وتعظيمهم ومعرفة حقوقهم إلخ.

وقبل الكلام على التوسل المبتدع بالرسول ﷺ أود أن أبين أن التوسل بالنبي ﷺ ينقسم إلى قسمين:

١ - توسل مشروع.

٢ - توسل غير مشروع.

أما التوسل المشروع فينقسم إلى نوعين:

- أحدهما التوسل بالإيمان برسول الله ﷺ وطاعته. وهذا فرض عين على كل مسلم في كل حال، ولا يسقط عن أحد من الخلق بعد قيام الحجة عليه، ولا يعذر فيه بأي عذر. وقد جعل الله الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته وسيلة إلى كل خير ورحمة في الدنيا والآخرة.

ويقع التوسل بهذا النوع على وجهين:

---

(١) انظر : المدخل لابن الحاج ٢٨٦/٤ وما بعدها .

- فتارة يتوسل المسلم بالإيمان بالرسول وطاعته ومحبته إلى ثواب الله وجنته.

- وتارة يتوسل بذلك في الدعاء فيقول مثلا: اللهم بإيماني بنبيك وطاعتي له وحبي إياه اغفر لي.

- ثانيهما: التوسل بدعائه ﷺ وشفاعته، وذلك في حياته. كما كان الصحابة يفعلونه مع النبي ﷺ من طلب الدعاء منه، والاستغفار لهم، وطلب السقيا لهم.

كما يكون في الآخرة بطلب الخلق منه أن يشفع لهم عند ربهم للقضاء بين العباد وهذا هو المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون. وعليه فهذا النوع من التوسل إما أن يكون في حياته ﷺ وهو نافع لمن دعا له الرسول أو شفع له. وإما أن يكون في يوم القيامة حيث يتوسل الناس به ليشفع لهم عند ربهم. أما بعد مماته فلم يكن أحد يطلب منه الدعاء لا عند قبره، ولا في أي مكان آخر. ولم يفعل ذلك الصحابة والتابعون ولا من بعدهم. ولم ينقل عنهم بوجه صحيح أن ذلك جائز. وهذا النوع من التوسل يقع على وجهين أيضا:

الأول: أن يطلب من الرسول ﷺ الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع كما كان الصحابة يطلبون منه فيدعو لهم. وكما يطلب الخلق منه ذلك في يوم القيامة. وأحاديث الاستسقاء وغيرها توضح ذلك أتم توضيح.

- الثاني: أن يضيف إلى ذلك سؤال الله تعالى بشفاعة نبيه ودعائه وذلك كما في حديث الأعمى فإنه طلب من الرسول ﷺ الدعاء والشفاعة، فدعا له الرسول وشفع فيه وأمره أن يدعو الله فيقول: ﴿ اللهم إني أسألك وأتوجه إليه بنبيك محمد نبي الرحمة ﴾ [1] الحديث. وفيه: ﴿ اللهم فشفعه في ﴾ [2] فأمره أن يسأل الله قبول شفاعة نبيه فيه. وسيأتي مزيد شرح لهذا الحديث.

---

(١) الترمذي الدعوات (٣٥٧٨) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) .

(٢) الترمذي الدعوات (٣٥٧٨) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) .

وهذا النوع من التوسل لا يجوز إلا في حياته ﷺ أما بعد وفاته فلا يجوز بحال من الأحوال. إذ ليس على ذلك دليل صحيح كما سيأتي بيانه.

التوسل غير المشروع

٢ - التوسل غير المشروع:

ويقصد به التوسل بذات النبي ﷺ وسؤال الله بجاه نبيه، والإقسام على الله به. وهذا النوع غير مشروع لفقدان الدليل على مشروعيته، فلم ترد به سنة صحيحة ولم يكن الصحابة يفعلونه لا في حياته ﷺ ولا بعد موته، لا عند قبره ولا في أي مكان آخر. ولم ينقل ذلك عنهم بوجه صحيح يعتمد عليه عند أهل العلم. بل الثابت عنهم أنم عدلوا عنه إلى غيره، كما فعل عمر مع العباس رضي الله عنهما.

وهذا التوسل غير المشروع هو مقصود غالب المتأخرين بالتوسل بالنبي ﷺ ويعتقدون أنه من أفضل القربات، وأنه دليل على حب النبي ﷺ والصالحين. وهو أول ما يعولون على إثباته والمنافحة عنه، والرد على ما نعيه، والتشنيع عليهم، حتى يسلم لهم ما أرادوا من تعميم التوسل بالأنبياء والصالحين. وهذا النوع هو ما سأتناوله بشيء من العرض والتفصيل.

يقول السبكي [(١)]

(إن التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل حال. قبل خلقه وبعد خلقه في مدة حياته في الدنيا، وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة والجنة) [(٢)] ويقسمه إلى

---

(١) هو تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي (٦٨٣- ٧٥٦ هـ) ، فقيه . أصولي . محدث . مفسر . لغوي . من تصانيفه : الدر النظيم في تفسير القرآن العظيم . تكملة المجموع للنووي في خمسة مجلدات ، شفاء السقام في زيارة خير الأنام ، عارض به شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة شد الرحال إلى زيارة القبر النبوي الشريف . وغيرها . انظر . طبقات الشافعية الكبرى ، ١٣٩/١٠ - ٣٣٨ . والدرر الكامنة ٣/ ١٣٤ ، وما بعدها .

(٢) شفاء السقام في زيارة خير الأنام ، تقي الدين السبكي . طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن ، ١٣١٥ هـ ، ص ١٦٠ .

ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: أن يتوسل به بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به أو بجاهه أو ببركته. فيجوز ذلك في الأحوال الثلاثة وقد ورد في كل منها خبر صحيح. وساق تحت هذا النوع حديث توسل آدم بالنبي ﷺ (١) وغيره من الأحاديث.

- النوع الثاني: التوسل به بمعنى طلب الدعاء منه. وقال: إن ذلك كما كان في حياته يجوز بعد موته.

ثم ساق حديثا بسنده عن مالك الدار قال: (أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا. فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له: عليك الكيس الكيس. فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه).

قال. ومحل الاستشهاد من هذا الأثر طلبه الاستسقاء من النبي ﷺ بعد موته في مدة البرزخ. ولا مانع من ذلك فإن دعاء النبي ﷺ لربه تعالى في هذه الحالة غير ممتنع.

- النوع الثالث: أن يطلب منه ذلك الأمر المقصود. بمعنى أنه ﷺ قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته إليه. فيعود إلى المعنى الثاني وإن كانت العبارة مختلفة (٢)

وبعبارة أصرح من ذلك أن يطلب منه الحاجات رأسا فيقول السائل يا رسول الله فرج كربتي أو أغثني... إلخ.

ولم يجد السبكي ما يستدل به على هذا النوع الثالث سوى أنه عائد إلى النوع الثاني. لكن غيره وجدوا ما يستدلون به على مثل هذا النوع، وهي الحكايات والمنامات وعليها غالب اعتمادهم.

شبهات المجيزين لهذا النوع من التوسل:

---

(١) انظر : ص ٢٧٣ ، من هذا البحث .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٦١ ، وما بعدها .

يورد الصوفية شبهات كثيرة على جواز التوسل بالنبي ﷺ توسلا بدعيا وشركيا ليوهموا أتباعهم أنم بذلك على الحق وأنم أحب إلى رسول الله ﷺ وأقرب من غيرهم. وشبههم متنوعة لكني سأقتصر على أقواها في نظرهم.

أولا- من القرآن:

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [1]. وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [2].

قال صاحب كتاب حقيقة التوسل والوسيلة:

(ولفظ الوسيلة عام في الآيتين فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من الأنبياء والصالحين في الحياة وبعد الممات، وبإتيان الأعمال الصالحة على الوجه المأمور به، وللتوسل با بعد وقوعها) [3].

واستدلالهم باتين الآيتين باطل لأنه مخالف لتفسير الصحابة والتابعين وما عليه أئمة التفسير من أن المراد بالوسيلة في الآيتين التقرب إلى الله بصالح الأعمال ولم يؤثر عن واحد من هؤلاء أنه فسرها بجواز التوسل بذوات الأنبياء والصالحين كما فسره هؤلاء.

ثم إن الاستدلال بالآية الثانية بالذات على مدعاهم من أبطل الباطل وأكذب الكذب لأنا تدل على نقيض ما ادعوه وترد عليهم دعواهم، ويبين هذا سبب نزولها كما قال ابن مسعود ﷺ فيما رواه البخاري عنه: (كان ناس من الأنس يعبدون ناسا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم) [4]

---

(١) سورة المائدة آية : ٣٥ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٥٧ .

(٣) حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة، موسى محمد علي ، طبع دار التراث ، القاهرة ، ١٩٨١م ، ص٢٩ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب قول الله تعالى : قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، ١٠٧/٦ .

ومعنى ذلك أن الله يرد على هؤلاء الذين عبدوا الجن ودعوهم من دون الله بأن الذين تدعونهم قد أسلموا فصاروا يتقربون إلى الله بصالح الأعمال، وفي هذا تحريض لهؤلاء المشركين على الإيمان بالله وحده وسلوك مسلك الجن الذين آمنوا، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (١)

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٢) عند تفسير قوله تعالـى: ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ (٣) (اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا هو القربة إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه على وفق ما جاء به محمد ﷺ بإخلاص في ذلك لله تعالى، لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالى ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة.

.... وبذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون واسطة بينه وبين ربه، أنه تخبط في الجهل والعمى وضلال مبين وتلاعب بكتاب الله تعالى، واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار، كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (٤) وقوله

(١) سورة الإسراء ، آية (٥٦ - ٥٧) .

(٢) هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي ثم المدني . (١٣٠٥- ١٣٩٣هـ) درس القرآن وعلومه ، والعربية وفنونا ، والفقه ومسائله في بلاده موريتانيا ، ثم قدم إلى الحج فكتب الله له المقام بالمدينة فسكنها فدرس في المسجد النبوي وأفاد . من تصانيفه : أضواء البيان في تفسير القرآن . ومذكرة في أصول الفقه ، آداب البحث والمناظرة وغيرها . انظر : ترجمته في نهاية تفسير أضواء البيان لتلميذه الشيخ عطية سالم ، الجزء التاسع . وانظر : الأعلام ، ٤٥/٦ .

(٣) سورة المائدة آية : ٣٥ .

(٤) سورة الزمر آية : ٣ .

تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [1] فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضى الله وجنته ورحمته هي اتباع رسول الله ﷺ ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل [2].

وبما استدلوا به من الأحاديث ما أخرجه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون) [3].

ويستدلون بهذا الحديث على جواز التوسل بذوات المخلوقين وجاههم فقالوا إن توسل عمر إنما كان بجاه العباس ومكانته عند الله سبحانه وتعالى، وإن توسله إنما كان مجرد ذكر منه للعباس في دعائه وطلب من الله أن يسقيه من أجله وقد أقره الصحابة على ذلك فدل هذا بزعمهم على جواز التوسل بذات المخلوق وجاهه. ولكن ما سبب عدول عمر عن التوسل بالرسول ﷺ طالما أن ذلك جائز في نظرهم. أجابوا عن ذلك بأن عدوله كان لبيان جواز التوسل بغير النبي ﷺ وأن ذلك مما لا حرج فيه.

يقول الشيخ أحمد زيني دحلان [4]

(وإنما استسقى عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه ولم يستسق بالنبي ﷺ ليبين للناس جواز الاستسقاء بغير النبي ﷺ وأن ذلك لا حرج فيه، وأما الاستسقاء بالنبي ﷺ فكان معلوما عندهم فلربما أن بعض الناس يتوهم أنه لا يجوز الاستسقاء بغير النبي ﷺ فبين لهم عمر

---

(١) سورة يونس آية : ١٨ .

(٢) أصول البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ٢/٩٧-٩٨ .

(٣) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء . باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ، ٢/٣٤ .

(٤) هو أحمد بن زيني دحلان المكي (١٢٣٢ - ١٣٠٤هـ) . فقيه . مؤرخ . من تصانيفه . الفتوحات الإسلامية ، والسيرة النبوية ، والدرر السنية في الرد على الوهابية ، رد فيه على الشيخ محمد بن عبد الوهاب متعصبا للصوفية ، وقد رد عليه الشيخ محمد بشير السهسواني في كتاب سماه " صيانة الإنسان من وسوسة الشيخ دحلان " . انظر : الأعلام ، ١٢/١٢٩ - ١٣٠ .

باستسقائه بالعباس الجواز [(١)].

واستدلالهم بذا الحديث على ما يدّعونه استدلال باطل لأمور:

أولا: أن الحديث قد ذكر أن الصحابة كانوا يتوسلون بدعاء النبي ﷺ في حال حياته للسقيا فيستسقي لهم، وقد بينت الأحاديث الواردة في الاستسقاء ذلك، وليس هناك حديث صحيح يؤيد ما ذهبوا إليه من أن الصحابة كانوا يتوسلون بذات النبي ﷺ أو جاهه.

بل الأحاديث الواردة تؤكد أن التوسل إنما كان بدعاء النبي ﷺ. أخرج الشيخان بسنديهما عن أنس رضي الله عنه ﴿ أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائما، فقال يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله أن يغثنا، قال، فرفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا قال أنس ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزَعَة، ولا شيئا، وما بيننا وبين سَلْع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء، انتشرت ثم أمطرت، قال: والله ما رأينا الشمس ستا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائما، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والجبال والظراب والأودية ومنابت الشجر. قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس ﴾ [(٢)] [(٣)].

وأخرج البخاري بسنده عن عباد بن تميم عن عمه: ﴿ أن النبي ﷺ خرج بالناس

(١) الدرر السنية في الدر على الوهابية ، أحمد زيني دحلان ، ص ٨- ٩ .

(٢) البـخاري الجمعة (٩٦٧) ، مسلم صلاة الاستسقاء (٨٩٧) ، النسائي الاستسقاء (١٥١٨) ، أبو داود الصلاة (١١٧٤) ، أحمد (١٩٤/٣) .

(٣) صحيح البخاري . كتاب الاستسقاء ، باب الاستسقاء في المسجد الجامع ٣٤/٢ - ٣٥ ، وصحيح مسلم كتاب صلاة الاستسقاء . باب الدعاء في الاستسقاء ، ٦١٢/٢ ، وما بعدها .

يستسقي لهم، فقام فدعا الله قائما ثم توجه قِبَل القبلة وحوّل رداءه فسقوا ﴾ [1] [2]

فهذان الحديثان وأمثالهما كثير في كتب السنة، وكلها تؤكد أن الصحابة كانوا إذا انقطع عنهم المطر ذهبوا إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم ليسقيهم، أو أن الرسول ﷺ كان يخرج بم فيصلي صلاة الاستسقاء ويدعو الله لهم كما هي السنة في هذا الأمر.

وهذا هو الذي قصده عمر بقوله " اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ".

ثانيا: لما توفي رسول الله ﷺ توسل عمر بدعاء العباس رضي الله عنهما، وذلك لعلمه بأن التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته غير ممكن ولا جائز. وتكرر هذا منه بحضور الصحابة رضي الله عنهم. فلو كان التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته جائزا لما عدل عنه عمر رضي الله عنه ولما أقره الصحابة على ذلك، فلما تكرر ذلك منه دل على عدم جواز التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته.

ثالثا: إن تكرر هذا الفعل من عمر رضي الله عنه يدحض شبهة الذين قالوا بأنه قد فعل ذلك لبيان جواز التوسل بغير النبي وأن التوسل بالنبي بعد وفاته أمرا معلوما لدى الصحابة. وهذا ليس بصحيح، إذ لو كان كذلك لما تكرر ذلك الفعل من عمر رضي الله عنه ولبين أن مقصده من ذلك هو بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل كما يزعمون. ثم إن فيه كذبا على عمر وجمهور الصحابة رضي الله عنهم. لأن اليزين ادعوا أن التوسل بذات النبي ﷺ كان أمرا معلوما لدى الصحابة. مع أنه لم ينقل عنهم بوجه صحيح ما يؤيد دعواهم. بل المنقول عنهم خلاف ذلك.

رابعا: أن عمر قد صرح بأنم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ في حياته، وأنه بعد وفاته

---

(١) البخاري الجمعة (٩٧٧) مسلم صلاة الاستسقاء (٨٩٤) الترمذي الجمعة (٥٥٦) النسائي الاستسقاء (١٥١٩) ، أبو داود الصلاة (١١٦٢) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٦٧) ، أحمد (٤/ ٤١) ، مالك النداء للصلاة (٤٤٨) ، الدارمي الصلاة (١٥٣٣) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الاستقساء ، باب الدعاء في الاستسقاء قائما ، ٣٨/٢ .

توسل بعمه العباس. ومما لا شك فيه أن التوسلين من نوع واحد، وهو التوسل بدعاء الصالحين ورسول الله ﷺ إمامهم (١)

خامسًا: أن بعض روايات الحديث الصحيحة قد فسرت كلام عمر المذكور وقصده إذ نقلت دعاء العباس رضي الله عنه استجابة لطلب عمر رضي الله عنه. فمن ذلك ما نقله الحافظ ابن حجر في الفتح حيث قال: (وقد بين الزبير بن بكار (٢) في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال " اللهم أنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث " قال فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس) (٣) فهذا الحديث قد بين أن التوسل إنما كان بدعاء العباس رضي الله عنه لا بذاته أو شيبته كما يزعمون، وإلا فما الداعي إلى أن يقوم العباس فيدعو دعاء جديدا؟ وما فائدة مجيء العباس إلى مكان الاستسقاء للدعاء؟ ! ولم يكن عمر رضي الله عنه وحده هو الذي عدل عن التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته إلى التوسل بغيره من الأحياء، بل تابعه على ذلك معاوية بن أبي سفيان والضحاك بن قيس رضي الله عنهما إذ توسلا بدعاء يزيد بن الأسود (٤) الجرشي (٥) وعلى هذا جرى عمل الصحابة والتابعين (٦)

فتبين من هذا أن حديث عمر بن الخطاب في توسله بالعباس رضي الله عنهما ليس فيه

(١) انظر التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ، ص٦٠-٦٩ .
(٢) هو أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب من ولد الزبير بن العوام(١٧٢- ٢٥٦ هـ) . كان ثقة ثبتا عالما بالأنساب . شاعرا ولي قضاء مكة . من تصانيفه : جمهرة نسب قريش وأخبارها ، أخبار العرب وأيامها ، مزاح النبي انظر : تاريخ بغداد ، ٤٦٧/٨ ، وسير أعلام النبلاء ، ٣١١/١٢ .
(٣) فتح الباري ، ١٥٠/٣ .
(٤) أخرج هذا الأثر ابن سعد في الطبقات ، دار صادر ، بيروت ، ٤٤٤/٧ .
(٥) هو يزيد بن الأسود الجرشي من سادات التابعين بالشام ، أسلم في حياة النبي ولم يره . انظر سير أعلام النبلاء ، ١٣٦/٤ - ١٣٧ .
(٦) انظر : التوسل ، ص ٧٠ .

دليل على جواز التوسل بالنبي ﷺ بعد موته بل هو دليل على عدم جوازه.

ومن الأحاديث التي استدلوا بها ما أخرجه أحمد وغيره بسنده عن عثمان بن حنيف:

﴿ أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني. قال: " إن شئت دعوت لك وإن شئت أخرت ذلك فهو خير " فقال: ادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: " اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم فشفعه في وشفعني فيه، قال: ففعل الرجل فبرأ ﴾ (١) (٢)

ووجه استدلالهم بهذا الحديث أن النبي ﷺ علم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وأن الأعمى فعل ذلك فعاد بصيرا، وأن توسله إنما كان بذات النبي ﷺ لا بدعائه، وإذا كان كذلك فمن الجائز لكل أحد أن يدعو بهذا الدعاء الوارد في هذا الحديث.

قال ابن حجر الهيتمي (٣) :

(وإنما علمه النبي ﷺ ذلك ولم يدع له، لأنه أراد أن يحصل منه التوجه وبذل الافتقار والانكسار والاضطرار مستغيثا به ﷺ ليحصل له كمال مقصوده.

وهذا المعنى حاصل في حياته وبعد وفاته ومن ثم استعمل السلف هذا الدعاء في حاجاتهم بعد موته) (٤).

واستدل بقصة الرجل مع عثمان بن حنيف رضي الله عنه وسيأتي ذكرها. وعلى ذلك فهم يرون أن الحديث حجة لهم في جواز التوسل بذات النبي ﷺ وأن هذا الحديث ليس خاصا بالأعمى بل هو جائز لكل أحد أن يدعو به. لكن هذا الحديث لا يدل على ما ذهبوا إليه.

---

(١) الترمذي الدعوات (٣٥٧٨) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) .

(٢) المسند ، ١٣٨/٤ ، وسنن ابن ماجه ، ٤٨١/١ ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ٥١٩/١ .

(٣) شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي المكي (٩٠٩-٩٧٤هـ) . فقيه . باحث . من تصانيفه : مبلغ الأرب في فضائل العرب . الصواعق المحرقة على أهل البدعة والضلال والزندقة وغيرها . انظر الأعلام ٢٣٤/١ .

(٤) الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم ، ص ٧٦- ٧٧ .

بل هو دليل على نوع من أنواع التوسل المشروع لأن الأعمى إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وهذا أمر مشروع كما سبقت الإشارة إليه، ويوضح هذا من الحديث عدة أمور [(١)]:

أولا: أن الأعمى إنما جاء إلى رسول الله ﷺ ليدعو له، وهذا معنى قوله: " ادع الله أن يعافيني " فهو قد توسل بدعائه ﷺ لما يعلمه من استجابة دعائه دون غيره، ولذلك طلب من الدعاء ولو كان مقصوده التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه كما يزعمون، لما كانت هناك حاجة في أن يأتي إلى النبي ويسأله الدعاء له، بل كان يكفيه أن يجلس في بيته ويدعو ربه متوسلا بذات النبي أو جاهه ولكنه لم يفعل ذلك لأنه كان يفهم جيدا معنى التوسل، وأنه لا بد أن يذهب إلى المتوسل به ليطلب منه ما يريد.

ثانيا: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء بعد أن خيره بين الدعاء وبين الصبر إذا شاء.

ثالثا: إصرار الأعمى على الدعاء وهذا يقتضي أن الرسول قد دعا له لأنه وعده بالدعاء إذا أراد، وقد أراد ذلك وأكده بقوله: " ادعه " ومع ذلك لم يكتف رسول الله ﷺ بالدعاء له بل وجهه إلى عمل صالح حتى يجمع له أطراف الخير، وهو أمره له بالصلاة وتعليمه الدعاء الذي يدعو به في صلاته.

رابعا: أن قول الأعمى في آخر هذا الدعاء: « اللهم فشفعه في » [(٢)] يستحيل حمله على التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه كما يزعمون، لأن معناه: اللهم اقبل شفاعته ﷺ فيّ، أي اقبل دعاءه في أن ترد علي بصري. وهذا معنى الشفاعة. ولا تتم الشفاعة إلا إذا كان اثنان يطلبان أمرا يكون أحدهما شفيعا للآخر والشفاعة من رسول الله ﷺ لا تكون إلا بدعاء الرسول للمشفوع له.

خامسا: أن مما علمه النبي ﷺ للأعمى أن يقوله في دعائه: « وشفعني فيه » أي اقبل دعائي في قبول شفاعته ودعائه لي. وهذه الجملة وحدها كافية في الرد على من يزعمون

---

(١) انظر في بيان هذه الأمور . القاعدة الجليلة ، ص٩٠ - ١٠٩ ، ١٣٥ - ١٣٦ . والتوسل ، ص٧٦ - ٨٣ .
(٢) الترمذي الدعوات (٣٥٧٨) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) .

أن توصل الأعمى كان بذاته ﷺ أو بجاهه، إذ كيف تكون شفاعة الأعمى في الرسول. إلا إذا دعا له الرسول فدعا الأعمى ربه في أن يستجيب دعاء نبيه له.

سادسا: إن هذا الحديث قد ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه ببركة دعائه ﷺ لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره. ولذلك ذكره المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره [1]. وهذا يدل على أن السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي ﷺ له [2].

سابعا: أن هذا الدعاء خاص بالأعمى لأنه متضمن دعاء النبي ﷺ وشفاعته له وليس من لم يدع له الرسول ويشفع له بم لة ذلك الضرير الذي دعا له الرسول وشفع له. ولو كان هذا عاما كما يفهمه ا ليزون لكان لعميان الصحابة أو بعضهم أن يدعوا بذا الدعاء فيحصل لهم الشفاء، فعدولهم عن هذا الدعاء إلى غيره دليل على أنه خاص بذلك الأعمى، كما أنه لو كان السبب في شفاء الأعمى هر توسله بذات النبي ﷺ وجاهه كما يفهم عامة المتأخرين لكان من الممكن أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان الذي يتوسلون بجاهه ﷺ ويضمون إلى ذلك جاه جميع الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين!!

وبعد بيان هذه الوجوه تأكد لنا أن هذا الحديث يدور حول التوسل بدعائه ﷺ وأنه لا علاقة له بالتوسل بذاته أو بجاهه، ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد نقل عن العز بن عبد السلام القول بجواز التوسل بالنبي ﷺ بعد مماته خاصة استنادا إلى حديث الأعمى [3].

وقد تبين لنا معنى الحديث وما يدل عليه وأنه لا حجة فيه لمن ذهب إلى جواز التوسل بالذات وإن كان العز بن عبد السلام قد ذهب إلى جواز ذلك فقد خالفه في ذلك جمع كثير من أهل العلم. وعلى فرض صحة ما ذهب إليه العز بن عبد السلام فينبغي أن يكون هذا حكما خاصا بالنبي ﷺ لا يشاركه فيه أحد غيره من الأنبياء والصالحين ويكون هذا

---

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقي ، تحقيق د . عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٦٦/٦ .
(٢) انظر : قاعدة جليلة ، ص ٩٥ .
(٣) انظر : القاعدة الجليلة ، ص ١٥١ .

من باب الخصوصيات التي لا يدخلها القياس [1]

تنبيه:

وقع في بعض طرق حديث الأعمى زيادتان استدل بما اليزون للتوسل غير المشروع:

- الزيادة الأولى: زيادة حماد بن سلمة إذ زاد في آخر الحديث (... وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك).

أي معناه أن الرسول ﷺ قال له إذا عرضت لك حاجة فافعل مثل ذلك الدعاء دون أن تأتيني. وعلى ذلك فيمكن للإنسان أن يقول هذا الدعاء دون أن يكون قد أتى إلى الرسول ﷺ في حياته ودعا له. وقد أعل ابن تيمية هذه الزيادة بالشذوذ لتفرد حماد بن سلمة بها ومخالفته من هو أوثق منه [2]

- الزيادة الثانية: وهي قصة الرجل مع عثمان بن عفان رضي الله عنه وتوسله به ﷺ حتى قضيت حاجته من عثمان بن عفان. وقد أخرج هذه القصة الطبراني في معجميه الصغير والكبير، من طريق عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف: أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه. فقال له: ائت الميضأة، فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك عز وجل فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك، ورح إلي حتى أروح معك، فانطلق الرجل، فصنع ما قال، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله عليه، فأجلسه معه على الطنفسة، وقال حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال:

---

(١) انظر : التوسل ، ص ٨٣ .

(٢) انظر : القاعدة الجليلة ، ص ١٠٢ ، والتوسل ، ص ٩٠- ٩٢ .

ما كانت لك من حاجة فأتنا. ثم إن الرجل خرج من عنده، فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيرا، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير، فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ فتصبر، فقال: يا رسول الله: إنه ليس لي قائد، وقد شق علي، فقال النبي ﷺ ﴿ ائت الميضأة، فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات ﴾ قال عثمان بن حنيف، فوالله ما تفرقنا، وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط) [١]

هذه القصة ضعيفة الإسناد منكرة لا يجوز الاحتجاج بها [٢] أما من ناحية المتن فليس فيه حجة على جواز التوسل بالنبي ﷺ بعد موته لأن عثمان بن حنيف - لو صحت هذه القصة عنه - لم يعلم ذلك الرجل دعاء الضرير بتمامه، فإنه أسقط منه جملة: ﴿ اللهم فشفعه في، وشفعني فيه ﴾ [٣]، لأنه يعلم أن ذلك القول يستلزم أن يكون الرسول ﷺ داعيا لذلك الرجل، كما كان داعيا للأعمى، ولما كان هذا غير ممكن شرعا ولا قدرا لم يذكر هذه الجملة.

وأيضا لو قدر ثبوت هذه القصة عن عثمان بن حنيف لكان هذا مما تفرد به ذلك الصحابي عن غيره، إذ لم يوافقه غيره من الصحابة على ذلك، ومثل هذا لا تثبت به سنة يمكن العمل بها.

والثابت عن أكابر الصحابة عدولهم عن التوسل بالنبي ﷺ بعد موته إلى التوسل بدعاء

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ، ٩/١٧- ١٨ . حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، مطبعة الوطن العربي ، بغداد ، ١٤٠٠ هـ . وانظر دلائل النبوة للبيهقي ، ١٦/١٦٧- ١٦٨ .

(٢) لضعف حفظ راويها ، وتفرده بها ، ومخالفته للثقات الذين رووا الحديث بدون ذكر هذه القصة . انظر : القاعدة الجليلة ، ص ٩٧- ١٠٣ ، والتوسل ، ص ٩٢- ٩٤ .

(٣) الترمذي الدعوات (٣٥٧٨) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) .

غيره. كما قد صح ذلك من فعل عمر ومعاوية وغيرهما [(١)]

وفي هذه القصة جملة إذا تأملها العارف بفضائل الصحابة وأحوالهم وجدها دليلا على نكارتا وضعفها، وهي أن عثمان بن عفان ﷺ كان لا ينظر في حاجة ذلك الرجل ولا يلتفت إليه! فهذه الجملة منافية لما عرف من خلق عثمان ﷺ الذي كانت تستحي منه الملائكة لشدة حيائه، هذا مع ما عرف عنه من رفق ولين وتواضع ﷺ وعن الصحابة أجمعين [(٢)] وبذا يتبين لنا أن الاستدلال بذه القصة على جواز التوسل بالنبي ﷺ بعد موته استدلال باطل.

وإذا كان الحديثان السابقان صحيحين من حيث الإسناد. لكنهما لا يدلان على ما ذهبوا إليه من جواز التوسل بذات النبي ﷺ بعد موته، فإنم قد استدلوا بأحاديث وآثار واهية لا تصلح للاحتجاج با منها على سبيل المثال:

حديث توسل آدم بالنبي ﷺ الذي أخرجه الحاكم بسنده عن عمر بن الخطاب مرفوعا ﴿ لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال يا رب لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك، رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبا، لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم. إنه لأحب الخلق إلي. ادعني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك ﴾ [(٣)].

هذا الحديث مما يستدل به المخالفون على إثبات التوسل بالنبي ﷺ قبل خلقه.

قال صاحـب كتاب وفاء الوفا:

(اعلم أن الاستغاثة والتشفع بالنبي ﷺ وبجاهه وبركته إلى ربه تعالى من فعل الأنبياء

---

(١) انظر : قاعدة جليلة ، ص١٠٤ - ١٠٨ .

(٢) انظر : التوسل ، ص ٩٩ .

(٣) المستدرك على الصحيحين ، وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي بقوله : بل موضوع ، ٢/ ٦١٥ .

والمرسلين وسير السلف الصالحين، واقع في كل حال، قبل خلقه ﷺ وبعد خلقه في حياته الدنيوية، ومدة البرزخ وعرصات القيامة) [١] ثم ساق حديث توسل آدم السابق مستدلا به، وكذا استدل به السبكي وغيره [٢]

ولكن هذا الحديث موضوع لا يجوز الاستدلال به، لوجود عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في سنده وهو متهم بالوضع.

لذا فقد حكم ببطلان هذا الحديث ابن تيمية [٣] والذهبي [٤] وابنُ عبد الهادي [٥] وابن حجر [٦]. فلا يجوز لأحد أن يستدل بذا الحديث لأجل تصحيح الحاكم له.

هذا وقد استدلوا بأحاديث وآثار كلها واهية وموضوعة ومثلها الحكايات. لكن بقي أن أنبه إلى أثر مالك الدار الذي استدل به السبكي على جواز طلب الدعاء من الرسول ﷺ بعد وفاته [٧]

فهذا الأثر لا يجوز الاستدلال به لعدم صحته [٨] ثم إنه مخالف لما ثبت شرعا من استحباب صلاة الاستسقاء ودعاء الله تعالى والتضرع إليه حتى يغيث العباد بإنزال الغيث عليهم. كما جرت بذلك السنة وعمل با جماهير الأئمة ولم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنه التجأ إلى قبر النبي ﷺ وطلب منه الدعاء للسقيا أو لغير ذلك، ولو كان هذا مشروعا لفعلوه ولنقل عنهم بوجه صحيح يعتمد عليه. فلما لم يحدث ذلك دل على عدم

---

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . نور الدين علي بن أحمد السمهودي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ١ ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٧٤ هـ ، ١٣٧١/٤ .

(٢) انظر شفاء السقام ، ص ٦١ ، وما بعدها .

(٣) انظر : القاعدة الجليلة ، ص ٨٦- ٩٠ .

(٤) انظر : ميزان الاعتدال ، ٥٠٤/٢ .

(٥) انظر : الصارم المنكي ، ص ٣٧ .

(٦) انظر : لسان الميزان ، ٣٥٩/٣ - ٣٦٠ .

(٧) انظر : ص٢٦٠ ، من هذا البحث .

(٨) لأن مداره على مالك الدار وهو مجهول الحال غير معروف العدالة والضبط وهما شرطان أساسيان لصحة السند . انظر التوسل ، ص١٣٠ - ١٣٤ .

مشروعيته وعلى بطلان هذا الأثر، وأيضا فهذا الأثر ليس فيه التوسل بالنبي ﷺ لا بذاته ولا بجاهه ولا بالإقسام به على الله والتي وقع فيها الـ اع.

وإنما فيه طلب الدعاء من الرسول ﷺ بعد موته، وهذه مسألة خارجة عن محل الـ اع ولم يقل بجوازها أحد من علماء السلف بل هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، ولأجل هذا توسع الصوفية في معنى التوسل فأدخلوا فيه كثيرا من ألوان الشرك كالاستغاثة والاستجارة وبث الشكوى وطلب الدعاء والشفاعة والمغفرة وكافة الحاجات وإنزال الرغبات وسموا كل هذا توسلًا فإذا ثبت لهم التوسل المبتدع أدخلوا فيه التوسل الشركي، وسموا الجميع توسلًا بالنبي ﷺ وإظهارا لحبه.

وبعد بيان بطلان الشبه التي استدل بـا الـيزون للتوسل غير المشروع نريد أن نعرف حكم هذا النوع من التوسل.

أقسام التوسل غير المشروع من حيث الحكم عليه

إن هذا التوسل ينقسم من حيث الحكم عليه إلى قسمين:

القسم الأول: توسل بدعي:

وذلك كالتوسل بذات النبي ﷺ وبجاهه، أو الإقسام على الله به.

وذلك كأن يقول القائل مثلا: اللهم أتوسل إليك بنبيك، أو اللهم بجاه نبيك اغفر لي.

وأما القسم فمثل قول القائل: اللهم بنبيك أو بحق نبيك اشفني أو اقض حوائجي.

ووجه كونه بدعة: أن الرسول ﷺ لم يأمر به، ولم يدع الناس إليه، ولم يعده من القربات، كما جعله المتأخرون من الصوفية ومن تابعهم من أعظم القربات. كما أن الصحابة لم يتوسلوا إلى الله بذا النوع من التوسل ولا التابعين ولا تابعيهم... بل الثابت عنهم هو عدولهم عنه إلى التوسل المشروع، فلما لم يرد له ذكر في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا عمل الصحابة والتابعون به. دل على عدم مشروعيته وابتداعه.

هذا من حيث الإجمال. أما من حيث التفصيل، فإن السؤال بالنبي ﷺ والتوسل بذاته وجاهه غير جائز. لأنه وإن كان مبنيا على أن للأنبياء جاها ومكانة عند الله- وهذا

صحيح- إلا أن الله لم يجعل ذلك الجاه سببا مناسبًا لإجابة دعاء من توسل به. وإنما جعل الله الإيمان بهم وحبهم واتباعهم سببا لإجابة الدعاء، بخلاف السؤال والتوسل بذواتهم وجاههم.

وأما القسم على الله بالرسول ﷺ أو بحقه فهذا مما لا يجوز شرعا. لأنه قسم بالمخلوق على الخالق سبحانه وتعالى.

والقسم على المخلوق بمخلوق مثله لا يجوز. فكيف يجوز ذلك في حق الخالق سبحانه (١).

وإذا تبين هذا فلا يجوز التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه أو الإقسام على الله به لما يفضي القول بجوازه إلى الغلو الذي نهى الله ورسوله عنه، وسدا لذريعة الشرك المترتب عليه. ذلك أن عامة من جوزوه لم يقفوا عند التوسل به ﷺ بل تعدوا ذلك إلى الاستغاثة به وطلبوا منه ما لا يجوز طلبه إلا من الله إلى غير ذلك من الأمور التي تؤدي إلى الشرك. ويسمون كل هذا توسلا !! ومما ينبغي التنبيه إليه أننا حين نوضح بطلان هذا النوع من التوسل لا يعني أننا ننفي الجاه والمكانة السامية لرسول الله ﷺ. كلا. إن جاهه عليه الصلاة والسلام أعظم من جاه الأنبياء والمرسلين، وحديث الشفاعة يبين هذا ويوضحه (٢).

القسم الثاني: التوسل الشركي:

وذلك كطلب الحاجات منه ﷺ ودعائه لكشف الضر أو رفع الشدة وبث الشكوى إليه، إلى غير ذلك من ألوان الشرك الذي حرمه الله ورسوله. وكون هذا النوع شركا أمر واضح، فإنه لو طلب من الرسول ﷺ في حياته ما لا يقدر عليه إلا الله لكان هذا شركا، فكيف وهم يطلبون منه ذلك بعد موته، وينشدون في ذلك الأشعار ويسوقون الحكايات والأخبار، وينعتون كل موحد بالجفاء للنبي ﷺ وآله الأخيار.

---

(١) انظر القاعدة الجليلة ، ص ١٠٩- ١١٠ .

(٢) انظر حديث الشفاعة في : صحيح البخاري . كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ ، ٩/١٦٠- ١٦١ . ومسلم . كتاب الأيمان . باب أدنى أهل الجنة م لة فيها ، ١/١٨٠ - ١٨١ .

وتسمية هذا النوع بالتوسل هو من باب الإيهام والخداع فإنه لا يسمى إلا شركا أكبر.

يقول البرعي [1] مخاطبا الرسول ﷺ

يـا صـاحب القـبر المـنير بيـثرب … يـا منـتهى أمـلي وغايـة مطلـبي

يـا مـن بـه النائـبات توسـلي … وإلـيه مـن كـل الحـوادث مهربي

يـا مـن نرجّـيه لكشـف عظـيمة … ولحـل عقـد مـاتو متعصـب

يـا مـن يجـود عـلى الوجود بأنعم … خضـر تعـم عمـوم صوب الصيّب

يـا غـوث مـن في الخافقين وغيثهم … وربـيعهم في كـل عـام مجـدب

يـا مـن نـناديه فيسـمعنا عـلى … بعـد المسـافة سمـع أقرب أقرب [2]

ويقول أيضًا:

مـولاي مـولاي فـرج كـل معضلة … عـني فقـد أثقلـت ظهري الخطيئات

وعـد عـليّ بمـا عودتـني كـرما … فكـم جـرت لي بخـير منك عادات

وامـنع حمـاي وهب لي منك مكرمة … يـا مـن مواهـبه خير وخيرات

واعطـف عـليّ وخذ يا سيدي بيدي … إذا دهتـني المـلمات المهمـات

فقـد وقفـت بـباب الجـود معتذرا … والعفـو متسـع والعـذر أبيـات

وقـل غـدا أنـت من أهل اليمين إذا … مـا زخرفـت لدخـول الخلد جنات

وإن مدحـتك بالتقصـير معـترفا … فمدحـك الوحي والسبع القراءات [3]

---

(١) هو عبد الرحيم بن أحمد بن عبد الرحيم البرعي (. . . - ٨٣٠ هـ) ، شاعر متصوف . انظر ترجمته في الأعلام ٣/٣٤٣ .

(٢) شرح ديوان البرعي في المدائح الربانية والنبوية والصوفية للشاعر الشيخ عبد الرحيم البرعي ، ط ١ ، مكتبة المعارف ، محمد سعيد كمال ، الطائف ، ١٤٠٤ ، ص٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٩٢ .

ثالثا البدع المتعلقة بزيارة قبره ﷺ

ثالثا- البدع المتعلقة بزيارة قبره ﷺ:

المشروع في زيارة قبره ﷺ هو أن يأتي المسلم إلى المسجد النبوي فيقول دعاء دخول المسجد، ثم يقصد الروضة الشريفة فيصلي بها ركعتين تحية المسجد إن تحن في الروضة وإلا ففي أي موضع من المسجد ثم يسلم على رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما قائلا: السلام عليك يا رسول الله. السلام عليك يا أبا بكر. السلام عليك يا عمر. كما كان يفعل ذلك ابن عمر رضي الله عنهما إذا قدم من سفر [(1)] والزيارة بهذه الكيفية مستحبة لمن قدم إلى المدينة قاصدا مسجد رسول الله ﷺ أو لمن كان يريد السفر من أهل المدينة وهذا الاستحباب مأخوذ من الأحاديث العامة الواردة في فضل زيارة القبور ولم يثبت بخصوص زيارة قبره ﷺ حديث يحتج به عند أهل العلم [(2)] ولكن الناس ابتدعوا في باب زيارته ﷺ بدعا كثيرة خرجت بالزيارة عن أصلها المشروع. فمن هذه البدع:

١ - اعتقاد أن زيارة قبره ﷺ واجبة:

سرى في أذهان كثير من الناس أن زيارة القبر النبوي واجبة، ويعتقد كثير منهم أنها مكملة لمناسك الحج، لا يتم الحج بدونها، والذي دفعهم إلى ذلك أمور منها:

- الجهل بأحكام الذين ومراتب العبادات حتى اختلط على كثير من الناس الواجب بالمندوب، والحرام بالمكروه، فاختل فهمهم للشرع بسبب الابتعاد عن علمه وفقهه.

- الاستدلال بعدة أحاديث ضعيفة وموضوعة في فضل زيارة قبر النبي ﷺ ذكرها بعض الفقهاء والمؤلفين في المناسك واشتهر ذكرها بين الناس دون تمييز بين الصحيح والضعيف، فكان لهذه الأحاديث أثرها في اعتقاد كثير من الناس وجوب الزيارة فمن هذه

---

(١) أخرج ذلك الأثر . البيهقي في السنن الكبرى . كتاب الحج . باب زيارة قبر النبي ط١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن الهند ، ١٣٥٢هـ . وأخرجه مالك بنحو من هذا في الموطأ . رواية محمد بن الحسن الشيباني تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف . طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ص ٣٣٤ .

(٢) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٣٨٣/٢٧ .

الأحاديث:

(أ) ﴿ من زار قبري وجبت له شفاعتي ﴾ [(١)] هذا حديث منكر لا يصح الاحتجاج به.

(ب) ﴿ من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي ﴾ [(٢)] وهذا حديث منكر المتن ساقط الإسناد. ومما يدل على ضعفه ونكارته أن من زار قبره ﷺ بعد موته ليس كمن زاره في حياته فإن من زاره في حياته وكان مؤمنا كان من أصحابه المشهود لهم بالدرجة العالية في هذه الأمة، وأما من بعدهم فلن يبلغ رتبتهم ولو شاركهم في فعل الواجبات، فكيف يستوي معهم بفعل ما ليس واجبا كزيارة القبر النبوي مثلا؟ [(٣)]

(ج) ﴿ من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني ﴾ وهذا حديث موضوع [(٤)] ومما يدل على وضعه أن جفاء النبي ﷺ من الكبائر إن لم يكن كفرا، وهذا الحديث يدل على أن زيارة قبره ﷺ واجبة، مع أن الزيارة المشروعة لا تتجاوز عند العلماء حدود المستحبات.

---

(١) رواه الدارقطني من طريق موسى بن هلال العبدي عن عبد الله أو عبيد الله العمري ، وهذا الحديث ضعيف لضعف موسى بن هلال وجهالته واضطرابه . فمرة يرويه عن عبيد الله ومرة عن عبد الله ، وسواء هذا أو ذاك فهو منكر الحديث لا يحتج به . انظر : سنن الدارقطني ، ٢٧٨/٢ ، والصارم المنكي ، ص١٨ - ٢٣ .

(٢) أخرجه الدارقطني والبيهقي وغيرهما من طريق حفص بن سليمان عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عمر مرفوعا . وهذا الحديث ضعيف لتفرد حفص بن سليمان به . وهو متروك الحديث وشيخه ليث بن أبي سليم ضعيف لاختلاطه . انظر سنن الدارقطني ، ٢٧٨/٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي ، ٢٤٦/٥ . وانظر في بيان ضعف الحديث الصارم المنكي ، ص ٥٥ وما بعدها ، والسلسلة الضعيفة للألباني ، ٦٢/١ - ٦٣ .

(٣) انظر : قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، ص ٥٧ .

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل من طريق علي بن إسحاق عن محمد بن محمد بن النعمان عن جده النعمان بن شبل عن مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعا . وهذا الحديث آفته النعمان بن شبل البصري لأنه متهم بالوضع . لأجل هذا حكم الذهبي على هذا الحديث بالوضع وكذا الزركشي وابن الجوزي كما في الفوائد المجموعة للشوكاني . انظر : الكامل في أسماء الرجال لابن عدي ، ٢٤٨٠/٧ . وانظر في بيان ضعف الحديث لسان الميزان ، ١٦٧/٦ ، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني ، ص ١١٨ ، والصارم المنكي ، ص ٧٨ ، وما بعدها .

فكيف يكون تاركها مجافيا للنبي ﷺ ومعرضا عنه [1].

فاعتقاد وجوب زيارة قبره ﷺ اعتقاد باطل ليس له ما يؤيده من السنة الصحيحة، ولا من أقوال أهل العلم الذين يقتدى بهم. فمن اعتقد أن الزيارة واجبة، أو متممة للحج، أو أنها المقصود الأكبر من الحج فاعتقاده باطل. على أنه لا يعني القول بعدم وجوب الزيارة أنها ليست مستحبة كلا بل هي مستحبة لمن قدم المدينة من سفر أو خرج منها قاصدا سفرا. كما دل على ذلك فعل ابن عمر رضي الله عنهما.

٢ - الدخول إلى المسجد النبوي كهيئة المستأذن من الرسول ﷺ للدخول عليه:

جاء في كتاب أبي الحسن الشاذلي [2] أنه (لما قدم المدينة زادها الله تشريفا وتعظيما وقف على باب الحرم من أول النهار إلى نصفه عريان الرأس حافي القدمين، يستأذن على رسول الله ﷺ تسليما. فسئل عن ذلك فقال حتى يؤذن لي، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ ﴾ [3] فسمع النداء من داخل الروضة الشريفة على ساكنه أفضل الصلاة والسلام يا علي ادخل) [4]. وهذه بدعة منكرة لم يقل بها أحد من أهل العلم سلفا وخلفا، وقياس الدخول عليه ﷺ بعد موته بدخول بيته في حياته قياس باطل، فإن الداخل إنما يدخل المسجد أصلا سواء في حياته أو بعد موته، ودخول المسجد لا يحتاج إلى استئذان. ولو كان مشروعا لفعله الصحابة رضي الله عنهم.

٣ - التزام كيفية معينة في زيارة قبره ﷺ من حيث الوقوف والسلام والدعاء:

فبعض الناس يقف أمام القبر الشريف كهيئة المصلي واضعا يده اليمنى على اليسرى وهذا أمر تعبدي لا يجوز فعله إلا في الصلاة.

---

(١) انظر : السلسلة الضعيفة ، ٦١/١ .

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي ، رأس الطريقة الشاذلية وإليه تنتسب . انظر : ترجمته في معجم المؤلفين ، ١٣٧/٧ .

(٣) سورة الأحزاب آية : ٥٣ .

(٤) أبو الحسن الشاذلي - الصوفي الزاهد والعارف بالله ، بقلم عبد الحليم محمود ، ص ٧٩- ٨٠ ، ط دار الكتاب العربي مصر ، ١٩٦٧ م .

وأما السلام فكثير من الناس يتجاوز السلام إلى الدعاء مستقبلا القبر وهذا أمر غير جائز شرعا، فإذا أراد الإنسان الدعاء فليستقبل القبلة. وقد اعتاد (المزوّرون) أن يلقنوا الناس صيغا من السلام والدعاء يرددونا بصوت مرتفع. وفي هذا من الإيذاء والجفاء ما لا يجوز أن يحدث في أي مسجد فضلا عن مسجد رسول الله ﷺ.

وأما الدعاء فكثير من الناس تجاوز حد الشرع في الدعاء فيطلبون من الرسول ﷺ ما لا يطلب إلا من الله وفي هذا من الشرك ما فيه وذلك كقولهم: (يا رسول الله نحن وفدك جئناك من بلاد بعيدة، قاصدين قضاء حقك، والنظر إلى مآثرك، وأن نستشفع بك إلى ربنا، فإن الخطايا قد قصمت ظهورنا، والأوزار قد أثقلت كواهلنا، أنت الشافع المشفع، الموعود بالشفاعة والمقام المحمود، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [1] وقد جئناك مستغفرين لذنوبنا فاشفع لنا إلى ربك، واسأله أن يميتنا على سنتك، وأن يحشرنا في زمرتك، وأن يوردنا حوضك، وأن يسقينا بكأسك غير خزايا ولا نادمين، الشفاعة، الشفاعة يا رسول الله) [2].

وهذا من البدع المفضية إلى الشرك لأن طلب الشفاعة، والموت على السنة، وغير ذلك من الحوائج، لا يجوز طلبها إلا من الله وحده، فلا يجوز سؤالها وطلبها من النبي ﷺ بعد موته. وأما طلب الدعاء فإنما يكون في حياته لا بعد مماته.

٤ - التمسح بالحجرة وتقبيل شباكها واستلامه والطواف بها:

وهذه أمور من العبادة لا تجوز إلا في الكعبة. ففعلها في المسجد النبوي محرم شرعا.

٥ - اعتقاد الزائر أن الرسول ﷺ يعلم خواطره ونياته:

---

(١) سورة النساء آية : ٦٤ .

(٢) الحج والعمرة في الفقه الإسلامي ، د . نور الدين عتر ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ص٢٦٠ .

قال ابن الحاج [1] (وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم أن الزائر يشعر نفسه بأنه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو في حياته. إذ لا فرق بين موته وحياته، أعني في مشاهدته لأمته ومعرفته بأحوالهم ونياتم وعزائمهم وخواطرهم. وهذا عنده جلي لا خفاء فيه) [2]. وقال: (وقد لا يحتاج الزائر في طلب حوائجه ومغفرة ذنوبه أن يذكرها بلسانه بل يحضر ذلك في قلبه وهو حاضر بين يديه ﷺ لأنه عليه الصلاة والسلام أعلم منه بحوائجه ومصالحه وأرحم به منه لنفسه، وأشفق عليه من أقاربه) [3]

وهذا الأمر لا يجوز أن يوصف به الرسول ﷺ في حياته فكيف يوصف به بعد مماته، لأن علم الغيب ومكنونات الصدور خاص بالله ﷻ لا يطلع عليه أحد غيره ولا يليق وصف أحد به سوى الله ﷻ قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [4] وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [5] .

فمن اعتقد أن الرسول ﷺ يعلم الغيب، وما تكنّه الصدور في حياته أو بعد مماته فقد أشرك. إلا أن يطلع الله نبيه على بعض أمور الغيب فذلك من خصوصيات النبوة. لا أنه يعلم الغيب مطلقا.

٦ - اتخاذ قبره ﷺ عيدا:

ومعنى اتخاذه عيدا، أن يعتاد التردد عليه والازدحام عنده كما يحصل في أمكنة الأعياد وأزمنتها. أو أن يجعل لها وقت معين سواء كان كل أسبوع أو شهر أو سنة. وقد نهى

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحاج العبدري المالكي الفاسي (. . . - ٧٣٧هـ) . فقيه مالكي ، من تصانيفه : مدخل الشرع الشريف ، شموس الأنوار وكنوز الأسرار . انظر : الدرر الكامنة لابن حجر ، ٤/ ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(٢) المدخل ، ١/٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ١/٢٦٤ .

(٤) سورة النمل آية : ٦٥ .

(٥) سورة الأعراف آية : ١٨٨ .

رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: فيما أخرجه أحمد وأبو داود واللفظ له بسنديهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبرى عيدا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ﴾ [١] [٢] ولأجل هذا كره الإمام مالك رحمه الله التردد على القبر فقال فيما نقله عنه القاضي عياض:

(.... وليس يلزم من دخل المسجد أو خرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر وإنما ذلك للغرباء... ولا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقدم على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو لأبي بكر وعمر. فقيل له: إن ناسا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر فيسلمون ويدعون ساعة. فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل العلم ببلدنا وتركه واسع. ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنم كانوا يفعلون ذلك) [٣].

٧ - التزام الزائر الإقامة بالمدينة ثمانية أيام والصلاة في المسجد النبوي أربعين صلاة حتى تكتب له البراءة من النار:

وذلك استنادا إلى الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد بسنده عن أنس عن النبي ﷺ قال: ﴿ من صلى في مسجدي هذا أربعين صلاة كتبت له براءة من النار، ونجاة من العذاب، وبرئ من النفاق ﴾ [٤] [٥] وهذا الحديث ضعيف لا يصلح للاحتجاج به.

ووجه البدعة في هذا أنه تخصيص لعدد من الأيام أو الصلوات بثواب معين ومثل هذا لا يثبت إلا بدليل صحيح وهذا الدليل ضعيف. فيكون هذا التخصيص من قبيل البدعة.

---

(١) أبو داود المناسك (٢٠٤٢) ، أحمد (٣٦٧/٢) .

(٢) سبق تخريجه ، ص٨٣ .

(٣) الشفا ، ٨٨/٢ .

(٤) أحمد (١٥٥/٣) .

(٥) المسند ، ١٥٥/٣ ، وهذا الحديث ضعيف لأن في سنده مجهولا ، وهو نبيط بن عمرو الذي روى هذا الحديث عن أنس ، ولم يعرف عند المحدثين إلا بذا الحديث . انظر : السلسلة الضعيفة ، ٣٦٦/١ .

أما مجرد الصلاة في المسجد النبوي- بدون تحديد وقت معين- فهو أمر مرغب فيه شرعا، لما أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: ﴿ صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ﴾ (١) (٢)

٨ - ومنها ما قاله صاحب وفاء الوفا:

(أن يقدم " أي الزائر " صدقة بين يدي نجواه للرسول ﷺ) (٣) أخذا من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ﴾ (٤) وهذه الآية منسوخة عند جماهير العلماء بالآية التي تليها (٥) وهي قوله تعالى: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَـٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (٦)

ثم إن قياس زيارة قبره ﷺ بنجواه في حياته قياس باطل لأن المقصود من الزيارة هو السلام عليه ﷺ وليس هذا من قبيل النجوى لأنه يسمعه كل أحد، ثم إن النجوى إن كانت مشروعة فللرسول في حياته فكيف وهي منسوخة؟.

٩ - ومنها ما قاله أيضا: (إدامة النظر إلى الحجرة الشريفة فإنه عبادة قياسا على الكعبة المعظمة) (٧) وهذا باطل لأنه لم يثبت بدليل صحيح أن النظر إلى الكعبة عبادة. ولو سلم هذا فالعبادات لا تثبت بالقياس وإنما بالنص والتوقيف. ثم إن قياس الحجرة الشريفة بالكعبة قياس باطل. لأن البيت الحرام يختص بأنواع من العبادات لا يجوز

---

(١) البخاري الجمعة (١١٣٣) ، مسلم الحج (١٣٩٤) ، الترمذي الصلاة (٣٢٥) ، النسائي المساجد (٦٩٤) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤٠٤) ، أحمد (٢٥٦/٢) ، مالك النداء للصلاة (٤٦١) .

(٢) صحيح البخاري . كتاب المساجد ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٧٦/٢ .

(٣) وفاء الوفا ، ١٣٩٣/٤ .

(٤) سورة المجادلة آية : ١٢ .

(٥) انظر تفسير الطبري ، ٢٠/٢٨ - ٢٢ ، وتفسير القرطبي ، ٣٠١/١٧ - ٣٠٣ .

(٦) سورة المجادلة ، آية (١٣) .

(٧) وفاء الوفا ، ١٤١٠/٤ .

فعلها في غيره.

١٠ - الاستغاثة بالرسول ﷺ وبث الشكوى إليه:

ولهم في ذلك حكايات وأشعار يطول ذكرها، وقد أورد صاحب وفاء الوفا عدة حكايات فيمن استغاث به ﷺ (١) منها أن رجلا من أهل غرناطة نزلت به علة عجز الأطباء عنها وأيسوا من برئه، فكتب عنه أحد الشعراء كتابا إلى النبي ﷺ يسأله فيه الشفاء لدائه والبرء مما نزل به وضمنه شعرا قال فيه:

كتاب وقيذ من زمانه مستشف ... بقبر رسول الله أحمد يستشفي
له قدم قد قيد الدهر خطوها ... فلم يستطع إلا الإشارة بالكف
ولما رأى الزوار يبتدرونه ... وقد عاقه عن ظعنه عائق الضعف
بكى أسفا واستودع الركب إذ غدا ... تحية صدق تفعم الركب بالعرف
فيا خاتم الرسل الشفيع لربه ... دعاء مهيض خاشع القلب والطرف
عتيقك عبد الله ناداك ضارعا ... وقد أخلص النجوى وأيقن بالعطف
رجاك لضر أعجز الناس كشفه ... ليصدر داعيه بما جاء من كشف
لرجل رمى فيها الزمان فقصرت ... خطاه عن الصف المقدم في الزحف
وإني لأرجو أن تعود سوية ... بقدرة من يحيي العظام ومن يشفي
فأنت الذي نرجوه حيا وميتا ... لصرف خطوب لا تريم إلى صرف
عليك سلام الله عدة خلقه ... وما يقتضيه من مزيد ومن ضعف (٢)

رابعا - بدعة المولد:

مولد النبي ﷺ هو الذي يقيمه الصوفية في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من كل عام إظهارا للسرور بمولده، وتوسع بعضهم فأجازه في أي وقت من أوقات السنة طالما أنه

---

(١) المصدر نفسه ، ١٣٧٩/٤ - ١٣٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤ / ١٣٨٧ .

مظهر سرور بالنبي ﷺ. ويرجع تاريخ ظهور هذه البدعة إلى الدولة العبيدية التي تسمت بالدولة الفاطمية. حيث أحدثت هذه البدعة لجذب قلوب الناس إليها، والظهور بمظهر من يحب رسول الله ﷺ. مع أنها من أكثر الدول التي فشا فيها الإلحاد والزندقة تحت شعار التشيع وحب آل البيت.

فأحدثوا ستة موالد: المولد النبوي، مولد علي رضي الله عنه ومولد فاطمة رضي الله عنها، ومولد الحسن والحسين رضي الله عنهما، ومولد الخليفة الحاضر في ذاك الزمان. وعن طريقهم انتشرت الموالد وراجت رواجا كثيرا لدى الصوفية [1] فصارت كل طريقة تعمل لشيخها مولدا يتناسب ومقام الطريقة وشيخها!! هذا مع حرصهم على مولد النبي ﷺ في كل عام وتسيير المواكب في الطرقات، وإنشاد القصائد، وإقامة الحفلات إلى غير ذلك من مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي.

ولا نزاع في أن الاحتفال بالمولد النبوي هو من البدع الحادثة بين المسلمين حتى باعتراف الذين يفعلونه. ولكنهم قالوا: إن خلا عمل المولد من المفاسد فهو بدعة حسنة لما فيه من إطعام الطعام وقراءة شيء من السيرة وإظهار السرور بمولد الرسول ﷺ [2]

ولكن هذا لا يخرج عن كونه بدعة مذمومة شرعا لأمور:

- اتخاذه عيدا شرعيا، والأعياد الشرعية يومان الفطر والأضحى كما جاء بذلك النص.

- جعله عبادة شرعية وقربة إلى الله. حتى إنهم في بعض البلدان يتهمون من لم يحضر المولد بالجفاء والمروق من الدين أحيانا [3]

- عدم فعل السلف له مع أنهم أشد الناس حبا له صلوات الله وسلامه عليه، وهم أعرف الناس بحقوقه، ولو كان خيرا لسبقونا إليه.

---

(١) انظر : الإبداع في مضار الابتداع ، ص٢٥٠ وما بعدها .

(٢) انظر : الحاوي للفتاوي للسيوطي ، ٢٩٢/١ - ٣٠٥ .

(٣) انظر مجموعة رسائل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود ، ٤٩٣/١ .

- إن عمل المولد يتضمن أمورا منهيا عنها شرعا كإنشاء القصائد الشركية والغلو فيه ﷺ وتشويه صورة الدين بأعمال الخرافيين والمشعوذين والدجالين على ما يجري عمله في أكثر البلاد.

هذا وقد استغلت الصوفية وسائل الدعاية لترويج هذه البدعة بدعوى أنا من أكبر مظاهر حبه ﷺ فألفوا فيها الرسائل والكتب وسودوا با صحائف كانت بيضاء، ونعتوا كل ناقد وموجه بعدم الحب والولاء لرسول الله ﷺ.

ولنا أن نقول إن الاحتفال بالمولد بدعة فيها مشابهة للنصارى في احتفالهم بمولد المسيح عليه السلام لأن دينهم المحرف قام على الغلو في الأشخاص، وديننا ينهانا عن الغلو.

ثم إن فرح المسلم ينبغي أن يكون ببعثته ونزول الوحي عليه، وتلك هي المنة الحقيقية التي امتن الله با على عباده فلولا الوحي والبعثة ما كانت لنبينا هذه الم لة العظمى بين رسل الله أجمعين. كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ ﴾ [2].

فهذا هو السرور الحقيقي الذي لا يحتاج من المسلم إلى تحديد وقت له طالما أنه يتلو آيات القرآن صباحا ومساء فينشرح صدره وتطمئن نفسه، وطالما كان متذكرا للنبي ﷺ عند كل عمل يقتدي به فيه، مكثرا من ذكره وتذكره مصليا عليه.

خامسا- الصلوات المبتدعة على رسول الله ﷺ :

لقد ابتدع الصوفية فيما ابتدعوا صيغا للصلاة على النبي ﷺ زاعمين لها من الفضل والثواب وتكفير الذنوب والسيئات شيئا كثيرا ويتعاظم إفكهم حينما يقولون إن رسول الله ﷺ علمها لشيخ الطريقة يقظة أو مناما وأمره أن يعلمها أصحابه. مثل صلاة

(١) سورة يونس آية : ١٦ .
(٢) سورة العنكبوت آية : ٤٨ .

الفاتح (اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم) [(١)]

يزعم التيجانيون إفكا وبتانا أن هذه الصلاة أفضل من القرآن ومن كل ذكر وقع في الكون ستة آلاف مرة.

يقول التيجاني:

(.... ثم أمرني بالرجوع ﷺ إلى صلاة الفاتح لما أغلق. فلما أمرني بالرجوع إليها سألته ﷺ عن فضلها، فأخبرني أولا بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانيا بأن المرة الواحدة منها تعدل من في تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر، ومن كل دعاء كبير وصغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار) [(٢)].

وهذا كفر صريح لأنه تفضيل لكلام البشر على كلام الله رب العالمين وتحقير من شأن القرآن وصد الناس عنه كما كان يفعل كفار قريش قائلين فيما حكاه الله عنهم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [(٣)] .

ومن هذه الصيغ تلك الصلوات التي تصف الرسول ﷺ بأوصاف الألوهية، وذلك مثل قولهم: (اللهم صل على الكمال المطلق والجمال المحقق عين أعيان الخلق ونور تجليات الحق. فصل اللهم بك منك فيه عليه وسلم) [(٤)] ومنها قولهم: (اللهم صل على محمد نور الذات وسر الساري في جميع الأسماء والصفات ﷺ) [(٥)] ومنها الصلاة المنسوبة لعبد السلام بن مشيش [(٦)] ولفظها (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق فتضاءلت الفهوم، فلم يدركه منا سابق

---

(١) انظر : التيجانية ، ص١١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١١٦ ، نقلا عن أحزاب وأوراد التيجاني ، ص ١٢ .

(٣) سورة فصلت آية : ٢٦ .

(٤) مجموعة أحزاب وأوراد أحمد بن إدريس ، ص٦٣ .

(٥) دلائل الخيرات ص٦٣ .

(٦) انظر ترجمته في معجم المؤلفين ، ٢٣٢/٥ .

ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، صلاة تليق بك منك عليه، كما هو أهله. اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم، القائم لك بين يديك. اللهم ألحقني بنسبه، وحققني بحسبه، وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها من موارد الفضل واحملني على سبيله إلى حضرتك، حملا محفوفا بنصرتك، واقذف بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحار الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد، ولا أحس، إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي.... إلخ) [١].

وواضح من هذه الصلاة غلو قائلها في الرسول ﷺ ثم كفره بدين الإسلام وعقيدته وهي التوحيد، حيث وصفها بالأوحال !! لماذا؟ لأنها تفرق بين الخالق والمخلوق، وبين الرب والعبد. لكنه لا يريد ذلك يريد أن يكون ربا وعبدا، حقا وخلقا!! ومن العجيب أن يقول النبهاني [٢] عقب هذه الصلاة إنها: (من أفضل الصيغ المشهورة ذات الفضل العظيم) ثم نقل أقوال من استحسنوها من سلفه الصرفية ومنها: (... وفي قراءتها من الأسرار ومن الأنوار ما لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، وبقراءتها (يـ ل) المدد الإلهي والفتح الرباني..) [٣] إلخ.

ومنها صيغ كثيرة تضمنت أنواعا من الغلو المذموم الذي نهى الله ورسوله عنه مثله: (اللهم جدد وجرد في هذا الوقت وفي هذه الساعة من صلواتك التامة وتحياتك الزاكيات ورضوانك الأكبر الأتم على أكمل عبد لك في هذا العالم من بني آدم، الذي أقمته لك ظلا، وجعلته لحوائج خلقك قبلة ومحلا واصطفيته لنفسك وأقمته بحجتك وأظهرته بصورتك، واخترته مستوى لتجلياتك وم لا لتنفيذ أوامرك ونواهيك في أرضك

(١) أفضل الصلوات ص١١١- ١١٢ .

(٢) يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني ، (١٢٦٥- ١٣٥٠هـ) . انظر : ترجمته في الأعلام ، ٢١٨/٨ .

(٣) انظر : أفضل الصلوات ، ص١١٢ - ١١٣ .

وسماواتك وواسطة بينك وبين مكوناتك...) [1]. ومنها: (اللهم صلي على الذات المحمدية، واللطيفة الأحمدية شمس سماء الأسرار ومظهر الأنوار، ومركز مدار الجلال، وقطب فلك الجمال)... إلخ [2].

ومنها صيغ كثيرة زعموا لها ثوابا وفضلا كثيرا من عند أنفسهم. منها صلاة السعادة ولفظها: (اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما في علم الله صلاة دائمة بدوام ملك الله).

قال النبهاني بعد إيرادها نقلا عن الشيخ أحمد دحلان: (أن ثوابا بستمائة ألف صلاة، ومن داوم على قرائتها كل جمعة ألف مرة. كان من سعداء الدارين) [3] ومنها صلاة الإنعام ولفظها: (اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد إنعام الله وإفضاله) [4]

قال النبهاني نقلا عن الشيخ أحمد الصاوي [5] (هذه صلاة الإنعام وهي من أبواب نعيم الدنيا والآخرة لتاليها، وثوابا لا يحصى) [6].

وهذه الصيغ كثيرة لدى الصوفية. بل إنا مجال تنافس بين الطرق الصوفية، إذ كل طريقة تدعي أن لديها من الأوراد (الأدعية، والأذكار والصلوات) ما يقدر بكذا وكذا من الثواب، وإن فيها من الفضل لقارئيها ما يجعلهم من الأولياء الواصلين بسرعة أو إن من فضيلة هذه الأوراد أن شيخ الطريقة قد أخذها من النبي ﷺ مباشرة يقظة أو مناما وأن الرسول ﷺ قد وعد من يقرؤها بالقرب منه، ودخول الجنة، وغير ذلك من الدعاوى العريضة التي لا تساوي في ميزان الشرع- المأخوذ من الكتاب والسنة- شيئا، لأن الشرع

---

(١) دلائل الخيرات ، ص٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٩- ١٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

(٥) أحمد بن محمد الخلوتي ، الشهير بالصاوي (١١٧٥- ١٢٤١ هـ) . فقيه مالكي . مصري . انظر ترجمته في الأعلام ، ٢٤٦/١ .

(٦) أفضل الصلوات ، ص١٥١ .

لا يؤخذ من الرؤى والمنامات. ولأن الرسول ﷺ لم يأمرنا بذلك في حياته، فلو علم فيه خيرا لنا لدعانا إليه. فكيف وهو مضاد لما جاء به؟ صاد عن دينه وسنته، ويبين هذا أن هذه الأوراد المبتدعة قد حرمت كثيرا من المسلمين من التقرب إلى الله بالعبادات الشرعية التي جعلها الله سبيلا للتقرب إليه والفوز بمرضاته. فكم صدت هذه الأوراد المبتدعة أناسا عن قراءة القرآن وتدبره، وكم شغلت كثيرين عن قيام الليل بالسهر على قراءة الأوراد ثم النوم عن صلاة الفجر، وكم صرفت كثيرا من الناس عن التعبد بالعبادات الشرعية، وكم شغلت كثيرا عن معرفة الواجبات الشرعية، والعمل بـا، فصار أكثر الناس جهلة بسبب اشتغالهم بذه الأوراد. فأي حرمان أكبر من هذا؟ وما ذلك إلا بسبب انصرافهم عن الشرع إلى الهوى، وعن السنة إلى البدعة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

المبحث الثالث

آثار الابتداع

المقصود بآثار الابتداع هو بيان المفاسد والمضار الناتجة عن البدعة بوجه عام وفي هذا المبحث سنتكلم عن أهم المفاسد والمضار المترتبة على البدعة وكيفية مقاومتها. ومما يسترعي الانتباه أن آثار الابتداع غير مقتصرة على شخص المبتدع أو من يتعبد بالبدعة بل أن لها آثارا تتعدى ذلك إلى الدين نفسه بالزيادة أو النقصان أو التغيير، وإلى ا لتمع المسلم بالتفرق والاختلاف.

ومن المؤسف حقا أن نرى كثيرا من المنتسبين إلى العلم فضلا عن عامة الناس يهونون من أخطار البدعة وربما رأوا أن الاشتغال بذلك غير مجد أو أنه يؤدي إلى تفرقة الأمة. وهذا مما يقلل من خطورة البدعة ويعطي المبتدعة ذريعة للبقاء على بدعهم ونشرها وما علم هؤلاء أن المسلمين ما وصلوا إلى هذا الحد من الانحلال والهزيمة، إلا بسبب انحرافهم عن فهم الإسلام وتطبيقه، وأن الابتداع كان له أكبر الأثر في هذا الانحراف بالإضافة إلى عوامل أخرى ولنأخذ على سبيل المثال الصوفية وهي من أكبر طوائف المبتدعة على نطاق العالم الإسلامي.

- ماذا كان أثرها على المسلمين؟

باختصار شديد. قتلت فيهم روح الجهاد، بدعوى التفرغ لجهاد النفس وعطلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدعوى الانشغال بعيوب النفس عن عيوب الآخرين، وأظهرت في الناس الغلو في الرسول ﷺ والصالحين بدعوى حبهم والقيام بحقوقهم إلى غير ذلك من المفاسد.

ولنعد إلى بيان آثار الابتداع فنقول: إن آثار الابتداع كثيرة وذلك لكثرة البدع وشيوعها ولكنني سأقتصر هنا على بيان الأمور المهمة في هذا الجانب.

آثار البدع على المبتدع:

- أما آثارها على المبتدع فهو وقوعه تحت طائلة الوعيد ووصف مسلكه بالضلال،

ورد عمله الذي ابتدعه عليه، وبقاء إثمها وإثم من عمل بها عليه إلى غير ذلك من الآثار.

يقول الشاطبي رحمه الله عارضا لآثار الابتداع:

(فاعلموا أن البدعة لا يقبل معها عبادة من صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا غيرها من القربات ومجالس صاحبها ينزع منه العصمة ويوكل إلى نفسه، والماشي إليه وموقره معين على هدم الإسلام، فما الظن بصاحبها! وهو ملعون على لسان الشريعة، ويزداد من الله بعبادته بعدا، وهي مظنة إلقاء العداوة ومانعة من الشفاعة المحمدية، ورافعة للسنن التي تقابلها، وعلى مبتدعها إثم من عمل بها، وليس له من توبة، وتلقي عليه الذلة والغضب من الله، ويبعد عن حوض رسول الله ﷺ ويخاف عليه أن يكون معدودا في الكفار الخارجين عن الملة [(١)] وسوء الخاتمة عند الخروج من الدنيا ويسود وجهه في الآخرة، ويعذب بنار جهنم، وقد تبرأ منه رسول الله ﷺ وتبرأ منه المسلمون، ويخاف عليه الفتنة في الدنيا زيادة إلى عذاب الآخرة) [(٢)] وسأعرض لبعض هذه الآثار بشيء من التفصيل.

١- عدم قبول عمل المبتدع:

لما كان المبتدع قد تعبد الله بما لم يشرعه من الأقوال أو الأفعال أو الاعتقادات وكان قبول الأعمال متوقفا على شرطين الإخلاص لله رب العالمين والاتباع لرسول الله ﷺ والمبتدع قد أخل بشرط الاتباع فحرم بسبب بدعته قبول عمله، ويراد بعدم القبول أمران:

- إما أن يراد به عدم قبول أعمال المبتدع مطلقا سواء منها ما خالف السنة أو وافقها.

- إما أن يراد به عدم قبول ما ابتدعه خاصة دون غيره.

- أما الأول: فيدل عليه ما ورد في السنة من أحاديث في هذا الباب منها: حديث رسول الله ﷺ في الخوارج وقد روي بروايات متعددة منها ما رواه مسلم بسنده عن زيد بن وهب الجهني (أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه. الذين ساروا إلى

---

(١) بحسب بدعته .

(٢) الاعتصام ، ١٠٦/١ - ١٠٧ .

الخوارج فقال علي ﷺ " أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن. ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ﴾ [١] [٢].

فهذا الحديث يدل على عدم قبول أعمالهم مع اجتهادهم في العبادة وما ذاك إلا بسبب اعتقادهم الفاسد وبدعتهم الضالة.

ومنها حديث ابن عمر في القدرية: حيث قال لمن سأله عنهم: (فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني. والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر) ثم استشهد بحديث جبريل [٣].

ومنها ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ﴿ المدينة حرم فمن أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف ﴾ [٤] [٥] والإحداث المذكور في الحديث يشمل الابتداع وغيره. وقد اختلف في معنى الصرف والعدل فعند الجمهور الصرف: الفريضة والعدل: النافلة وعن الأصمعي. الصرف التوبة والعدل: الفدية [٦].

فهذه الأحاديث وإن وردت في أصناف من المبتدعة بأوصافهم إلا أنه يخشى أن تشمل

---

(١) البخاري فضائل القرآن (٤٧٧١) ، مسلم الزكاة (١٠٦٤) ، النسائي الزكاة (٢٥٧٨) ، أبو داود السنة (٤٧٦٤) ، أحمد (٣/٥) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج ، ٧٤٨/٢ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ، ٣٦/١- ٣٨ .

(٤) مسلم الحج (١٣٧١) ، الترمذي المناقب (٣٩٢١) ، أحمد (٣٧٦/٢) .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب فضل المدينة ، ٩٩٩/٢ .

(٦) انظر : فتح الباري ، ٨٦/٤ .

بقية أهل البدع.

ومما يوضح هذا أنه إذا كانت البدعة أصلا يتفرع عنه سائر الأعمال فكل ما يبنى على هذا الأصل فهو بدعة مردودة على صاحبها.

مثال ذلك: إنكار العمل بخبر الآحاد بإطلاق وجعل العقل حاكما والشرع تابعا إلى غير ذلك من البدع. فهذه البدع لا تختص بجانب واحد بل تتعداه إلى غيره فكل ما انبنى على هذه البدع- التي جعلها المبتدعة أصولا- فهو بدعة مردودة على صاحبها.

ويتعمق الشاطبي في التحليل فيرى أن من أسباب عدم قبول أعمال المبتدع هو ضعف اعتماده على الشرع، واعتقاده أنه بدون بدعته لا يتم له التقرب إلى الله. فلا يكون لقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ [1] معنى يعتبر به عند هؤلاء. وإنما جرهم إلى ذلك هو أن أهل البدع سلكوا مع نصوص الشرع مسلك التأويل زعما منهم بأن هذه النصوص لا تفيد اليقين وأن أمر دينهم لا يستقيم إلا بتأويلهم فلأجل هذا ضعف اعتمادهم ويقينهم في الشرع في الوقت الذي حسنوا فيه الظن بآرائهم وعقولهم وأذواقهم [2]

قال ابن تيميـة:

(والمقصود هنا أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف، صار أهل التفرق والاختلاف، عمدتم في الباطن ليست على القرآن والإيمان، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم، عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به، وما خالفها تأولوه، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر على غير ذلك، والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيفما أمكن،

---

(١) سورة المائدة ، آية (٣) .

(٢) انظر : الاعتصام ، ١١١/١ - ١١٢ .

ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج با) [(١)].

والذي يظهر لي والله أعلم أن المقصودين بذلك هم أهل الأهواء والفرق ممن كانت بدعهم أصولا تفرعت عنها غيرها. بخلاف أصحاب البدع الجزئية.

- الأمر الثاني: أن يكون المراد بعدم القبول لأعمالهم. ما ابتدعوه خاصة دون غيره، ويدل على ذلك قوله ﷺ ﴿ من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ﴾ [(٢)] [(٣)].

فهذا الحديث يبين أن العمل المخالف للشرع مردود لكونه مخالفا، أما سائر الأعمال إن جاءت موافقة للشرع كانت أقرب إلى القبول. ولا يلزم من رد هذا العمل المبتدع رد سائر الأعمال التي تكون موافقة للشرع ما لم تكن البدعة بدعة شركية.

٢- خذلان المبتدع:

ويقصد بذلك: أن المبتدع تـ ع منه العصمة ويوكل إلى نفسه، ويوضح هذا أن الله قد جعل فيما أنزله على نبيه من القرآن والسنة العصمة والنجاة، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ ﴾ [(٤)]. وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [(٥)] وحبل الله هو القرآن والسنة والجماعة فأوجب الله في هذه الآية التمسك بكتابه وسنة نبيه ﷺ والرجوع إليهما عند الاختلاف ولزوم جماعة المسلمين، فمن تمسك بذلك واعتصم به نجا ومن أعرض عنه هلك.

ولما كان المبتدع قد قدم هواه وبدعته على الشرع الذي ضمن الله العصمة في اتباعه

---

(١) الفتاوى ، ١٣/٥٨- ٥٩ .

(٢) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (٢٥٦/٦) .

(٣) سبق تخريجه ص ٧٠ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٠١ .

(٥) سورة آل عمران آية : ١٠٣ .

كان جزاؤه أن تـ ع العصمة منه ويوكل إلى نفسه [1] وهذا غاية الخذلان وسلم الحرمان إلا من يتداركه الله برحمته، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [2].

فهذه الفتنة في الدنيا وذلك العذاب الأليم في الآخرة جزاء لكل مخالف لأمر رسول الله ﷺ وهديه. والمبتدع قد خالف السنة برأيه وهواه، فكان جزاؤه جزاء المخالفين إلا أن يتوب. ولا تزال البدع والأهواء بأصحابا حتى توقعهم في المهالك وتوردهم المعاطب وتلقي بم في أودية الشبهات والشهوات، وذلك جزاء وفاقا لهم لأنم التمسوا الهدى في غير ما أنزله الله ولم يسلموا لله في خبره وأمره ونيه.

فأهل الكلام منهم أكثر الناس شبها. ما فروا من شيء إلا وقعوا فيما هو أسوأ منه. وأهل الزهد والتصوف منهم أكثر الناس جهلا بمقاصد الشرع وأكثرهم اتباعا للهوى. وأهل التشيع والرفض من أقل الناس عقلا وأكذبم في النقل. فعامتهم في خلط وتلبيس، ولأجل هذا نى السلف أتباعهم عن الجلوس إلى المبتدعة أو مصاحبتهم حتى لا يفتتن بم الناس ويكون في ذلك ردعا لأصحاب الأهواء والبدع.

فعن سفيان الثوري قال: (من جالس صاحب بدعة لم يسلم من إحدى ثلاث: إما أن يكون فتنة لغيره، وإما أن يقع بقلبه شيء يزل به فيدخله النار، وإما أن يقول: والله لا أبالي ما تكلموا به، وإني واثق بنفسي. فمن يأمن بغير الله طرفة عين على دينه سلبه إياه) [3] .

٣ - البعد عن الله:

ومن آثار الابتداع: أن المبتدع كلما ازداد اجتهادا في بدعته ازداد من الله بعدا. ويبين هذا أن الله قد جعل ما شرعه من الواجبات والمستحبات وسيلة للتقرب إليه، وعلى قدر اجتهاد العبد في فعل الطاعات واجتناب المنهيات على قدر ما يكون قربه من ربه.

---

(١) انظر : الاعتصام ، ١/١١٢ - ١١٣ .

(٢) سورة النور ، آية (٦٣) .

(٣) رواه عنه صاحب الاعتصام ، ١/١٣٠ .

والمبتدع قد تعبد الله بما لم يشرعه من أنواع البدع التي نهى عنها الشرع، وهو يعتقد أنه يتقرب إلى الله بهذه البدع فكلما ازداد اجتهادا في بدعته كلما ازداد بعدا من الله. وذلك كمن يريد الذهاب إلى مكة فسلك في طريق معاكس. فكلما اجتهد في السير كلما ازداد بعدا عن مكة حتى ولو ظن أنه قد اقترب منها.

قال أيوب السختياني [(١)] :

(ما ازداد صاحب بدعة اجتهادا إلا ازداد من الله بعدا) [(٢)] وفي الأحاديث الصحيحة عن الخوارج ما يؤيد ذلك، إذ كانوا أهل اجتهاد وعبادة وصلاة وصيام ومع ذلك مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية [(٣)] وما ذلك إلا بسبب بدعتهم.

٤- **أن المبتدع يلقى عليه الذل في الدنيا والغضب من الله في الآخرة:**

ذلك أن الله قد جعل العزة له ولرسوله وللمؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(٤)] وعلى قدر تمسك المسلم بدينه وعدم تعديه حدود الشريعة على قدر ما تكون له العزة. والمبتدع قد زاد في دينه أو نقص منه فتعدى حدود ما شرعه الله، وهذا يوجب له الذل والغضب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [(٥)] .

وكل من ابتدع في دين الله فهو ذليل بحسب بدعته، وإن أظهر للناس خلاف ذلك. ويتأكد هذا حينما تكون السنة معلنة، وأهلها مستمسكين بها، داعين إليها، ذائدين عن

---

(١) هو أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني من أعلام التابعين رأى أنس بن مالك وروى عن عمرو بن سلمة الجرمي . قال عنه مالك كان من العاملين الخاشعين وقال : كتبت عنه لما رأيت من إجلاله للنبي . انظر : تذيب التهذيب ، ٣٩٧/١ .

(٢) رواه ابن وضاح في كتاب البدع والنهي عنها ، ص ٢٧ .

(٣) سبق تخريجه ، ص ٢٩٥ .

(٤) سورة المنافقون ، آية (٨) .

(٥) سورة النساء آية : ١١٥ .

حياضها. صابرين على الأذى في سبيلها.

ومن تأمل أحوال المبتدعة في الزمان الأول تحقق له ما كانوا عليه من ذلة وصغار حتى لجئوا إلى السلطان، ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يستطع ذلك هرب واستخفى. أما في زماننا هذا فقد استأسد أهل البدع بسبب قلة العلم، وتشجيع الاستعمار لهم في حالة ضعف البلاد الإسلامية. وعدم مبالاة حكام المسلمين بإقامة شرع الله والذود عنه والدعوة إليه والالتزام به قولا وعملا إلا من رحم الله. لأجل هذا استعلن المبتدعة ببدعهم ولّبسوا على الناس دينهم وادعوا أنم على الحق والحقيقة حتى إذا رفعت راية السنة وسرت في المسلمين روح الصحوة الإسلامية عادوا إلى التخفي والاستتار. فبحسب ظهور الحق يكون خفاؤهم، والعكس صحيح.

٥- تبرؤ الرسول ﷺ من المبتدعة:

ومن آثار الابتداع وشؤمه على المبتدع أن رسول الله ﷺ قد تبرأ من الراغب عن سنته الحائد عن هديه، فقال: « ومن رغب عن سنتي فليس مني » [(١)] [(٢)]

والمبتدع قد رغب عن السنة ومال عنها إلى ما زينه له هواه وشيطانه من البدع. فهو داخل تحت هذا الوعيد. وقد تبرأ ابن عمر من القدرية حيث قال لمن سأله عنهم: (فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنم برآء مني) [(٣)].

أن من ابتدع بدعة كان عليه إثمها وإثم من عمل با إلى يوم القيامة

٦- أن من ابتدع بدعة كان عليه إثمها وإثم من عمل با إلى يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ ﴾ [(٤)] الآية.

---

(١) البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٢٨٥/٣) .

(٢) سبق تخريجه ، ص١٢٢ .

(٣) سبق تخريجه ، ص٢٩٥ .

(٤) سورة النحل آية : ٢٥ .

وقال رسول الله ﷺ... ﴿ ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ﴾ (١) (٢).

وقال: ﴿ ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل ﴾ (٣) (٤) وقال: ﴿ من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ﴾ (٥) (٦) .

٧- عدم توفيق المبتدع للتوبة:

إن من شؤم البدعة على صاحبها أنه ليس له توبة بمعنى أنه قلما يتوب لأن الشيطان زين له بدعته فنظر إليها على أنها طاعة وقربة، ولم ينظر إليها على أنها معصية. ومن كانت هذه حاله فقل أن يتوب إلا من يتداركه الله برحمته. وعلى هذا المعنى تحمل الأحاديث والآثار الواردة في هذا الباب. من ذلك ما أخرجه ابن أبي عاصم بسنده عن أنس رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ ﴿ إن الله حجز- أو قال حجب- التوبة عن كل صاحب

---

(١) مسلم الزكاة (١٠١٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٥) ، النسائي الزكاة (٢٥٥٤) ، ابن ماجه المقدمة (٢٠٣) ، أحمد (٣٥٩/٤) ، الدارمي المقدمة (٥١٤) .

(٢) سبق تخريجه ، ص ٢٦٦ .

(٣) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٩٠) ، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٣) ، النسائي تحريم الدم (٣٩٨٥) ، ابن ماجه الديات (٢٦١٦) ، أحمد (٤٣٣/١) .

(٤) سبق تخريجه ، ص ٢٢٧ .

(٥) مسلم العلم (٢٦٧٤) ، الترمذي العلم (٢٦٧٤) ، أبو داود السنة (٤٦٠٩) ، أحمد (٣٩٧/٢) ، الدارمي المقدمة (٥١٣) .

(٦) صحيح مسلم . كتاب العلم . باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ٢٠٦٠/٤ .

بدعة ﴾ [1].

وأخرج أبو داود بسنده عن معاوية بن أبي سفيان قال: ﴿ ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: " ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وأن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة ﴾ [2]. زاد ابن يحيى وعمرو في حديثهما: ﴿ وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجاري بم الأهواء كما يتجارى الكَلب لصاحبه ﴾ [3]، وقال عمرو: ﴿ الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ﴾ [4] [5].

ففي هذا الحديث تشبيه الأهواء بداء الكلب الذي يصيب المريض فلا يترك فيه عرقا ولا مفصلا إلا ودخله ومن كان هذا حاله فقلما يبرأ من هذا المرض. وهكذا الأهواء إذا أشربا قلب صاحبها صارت كالداء المهلك الذي لا ينجو منه إلا القليل. ومن كانت هذه حاله فقل أن يـ ع أو يتوب.

ولهذا قال سفيان الثوري: (إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها) [6]

ويفصل ابن تيمية هذا الكلام فيقول: (ومعنى قوله إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ دينا لم يشرعه الله ولا رسوله، قد زُين له سوء عمله فرآه حسنا فهو لا يتوب

---

(١) كتاب السنة للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة . محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٢/١ . قال الشيخ الألباني : حديث صحيح بشواهده .

(٢) الترمذي الإيمان (٢٦٤١) .

(٣) أبو داود السنة (٤٥٩٧) ، أحمد (١٠٢/٤) .

(٤) أبو داود السنة (٤٥٩٧) ، أحمد (١٠٢/٤) .

(٥) سبق تخريجه ص١٢١ .

(٦) الفتاوى ، ٩/١٠ .

مادام يراه حسنا، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسنا وهو سيئ في نفس الأمر فإنه لا يتوب) [1].

وقد روي عن بعض السلف آثار بهذا المعنى ولكنها محمولة على ما سبق بيانه. أما توبة المبتدع فهي جائزة الوقوع وممكنة، وذلك بأن يهديه الله ويرشده إلى الحق فإن تاب تاب الله عليه، لأن باب التوبة مفتوح لكل مذنب وعاص أو ضال. قال تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [2]

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ ﴾ [3] فهاتان الآيتان وغيرهما من آيات التوبة في القرآن تدلان دلالة واضحة على أن باب التوبة مفتوح لكل من أسرف على نفسه أو ظلم، إذا عاد وتاب واتبع الحق.

ولا شك أن المبتدع داخل ضمن المسرفين على أنفسهم والظالمين لها. فتشمله آيات التوبة، وقد ورد في السنة ما يؤكد ذلك وهو شمول التوبة.

فقد أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه ﴾ [4] [5] إلى غير ذلك من الأحاديث، ومن هنا يتبين لنا أن توبة المبتدع جائزة وممكنة وأن باب التوبة مفتوح.

وقد رجع كثير من المبتدعة عن بدعهم واتبعوا السنة فهداهم الله، وناقش ابن عباس الخوارج فرجع منهم عدد كبير.

(١) الفتاوى ، ٩/١٠ .
(٢) سورة الزمر آية : ٥٣ .
(٣) سورة الرعد آية : ٦ .
(٤) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٣) ، أحمد (٣٩٥/٢) .
(٥) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، ٢٠٧٦/٤ .

على أنه ينبغي لنا أن نلاحظ أن هناك فرقا بين الرءوس والأتباع، وبين الداعي إلى البدعة والمقلد فليسوا في تيسير التوبة سواء. وذلك بحسب تمكن البدعة من القلب. ومع ذلك فمن تاب منهم تاب الله عليه. ولكن كيف تكون توبة المبتدع؟

إنما تتحقق توبة المبتدع باتباع السنة علما وعملا واعتقادا والوقوف عندها، ولا يكتفي منه بذلك حتى يبين فساد ما كان عليه من البدعة بحاله ومقاله، إذ التوبة من ذنب تكون بفعل ضده.. وقد شرط الله تعالى في توبة الكاتمين لما أنزله من البينات والهدى- بيان ما كتموه وإصلاح ما أفسدوه لأن ذنبهم لما كان بالكتمان، كانت توبتهم منه بالبيان.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (١) .

وذنب المبتدع غير ذنب الكاتم لأن هذا كتم الحق، وذاك كتمه ودعا إلى خلافه، إذا فلا بد للمبتدع أولا أن يعلم أن ما يفعله بدعة، وأن عليه أن يعلم المسنة ويعمل با، ثم عليه أن يبين للناس فساد ما كان عليه من بدعة حسب الاستطاعة. وأن يستقيم على ملازمة السنة ومتابعة الرسول ﷺ وهديه حتى تزول عنه حجب البدعة وتشرق عليه شمس السنة (٢)

يقول ابن القيـم:

(فإن السنة -بالذات- تمحق البدعة ولا تقوم لها وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس. ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها

(١) سورة البقرة ، آية (١٥٩ - ١٦٠) .

(٢) انظر : مدارج السالكين ، ٣٦٣/١ .

إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله، بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللجأ إلى الله. والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته، ﴿ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ﴾ [1] ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة والله المستعان) [2]

٨ - الخوف على المبتدع من سوء الخاتمة:

إن من شؤم البدعة أنه يخاف على صاحبها من سوء الخاتمة، وسوء الخاتمة- والعياذ بالله- هو أن يعتري الإنسان عند الموت شك أو جحود أو اعتراض على الله. فيسخط العبد حينئذ لقاء الله فيسخط الله لقاءه، ويختم للعبد حينئذ بما يوجب له دخول النار إما فترة وإما خلودا فيها.

وسبب ذلك مرض في قلبه وخلل في أمره وإن بدا للناس غير ذلك. وفي البخاري بسنده عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ ما يوضح ذلك حيث قال: ﴿ التقى النبي ﷺ والمشركون في بعض مغازيه فاقتتلوا، فمال كل قوم إلى عسكرهم، وفي المسلمين رجلا لا يدع شاذة، ولا فاذة إلا أتبعها فضربا بسيفه، فقيل يا رسول الله، ما أجزأ أحد ما أجزأ فلان فقال إنه من أهل النار. فقالوا. أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار؟ فقال رجل من القوم لأتبعنه، فإذا أسرع وأبطأ كنت معه حتى جرح فاستعجل الموت، فوضع نصاب السيف بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله. فقال: وما ذاك؟ فأخبره. فقال: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وأنه من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة ﴾ [3] [1].

---

(١) البخاري الإيمان (٥٤) ، مسلم الإمارة (١٩٠٧) ، الترمذي فضائل الجهاد (١٦٤٧) ، النسائي الطلاق (٣٤٣٧) ، أبو داود الطلاق (٢٢٠١) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٢٧) ، أحمد (٤٣/١) .

(٢) مدارج السالكين ، ٣٧٤/١ .

(٣) البخاري المغازي (٣٩٧٠) ، مسلم الإيمان (١١٢) ، أحمد (٣٣٢/٥) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له فإن العامل يعمل زمانا من دهره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملا سيئا، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملا صالحا، وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله قبل موته، قالوا: يا رسول الله. وكيف يستعمله؟ قال يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه ﴾ (٢) (٣).

فهذان الحديثان -وما في معناهما- يدلان على أن أمر العبد موقوف على خاتمته والتي لا يعلمها إلا الله. لأجل هذا عظم خوف الصالحين من سوء الخاتمة، وجرت دموعهم مغزارة، خوفا من أن تزل قلوبهم ساعة الاحتضار فيختم لهم بسوء أو أن تنقلب أحوالهم بعد الطاعة عصيانا فيموتون على ذلك إن لم يتداركهم الله بتثبيته.

فهذا الذي جعلهم يخافون لعلمهم أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن فمن شاء أقامه ومن شاء أزاغه. فكانوا في كل وقت وحين يسألون الله التثبيت والثبات على الإيمان وحسن الخاتمة. ونسأل الله ذلك بمنه وكرمه.

وبعد.. فإن لسوء الخاتمة أسبابا تتقدم عليها منها الشرك أو النفاق أو التعلق بغير الله أو الكبر وما شاكله من الصفات المذمومة، أو البدعة وهي المقصودة بالذكر وصاحبها على خطر، وقل أن يختم لمبتدع بالسلامة إلا أن يتداركه الله برحمته (٤) وإنما خيف على المبتدع سوء الخاتمة، لأن حال الموت حال انكشاف للحقائق فربما انكشف له حينئذ عوار بدعته وضلال ما كان عليه فيخيل له الشيطان حينئذ أن دينه كله ضلال. فيعتريه الشك حينئذ

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، ١٧٠/٥ .
(٢) الترمذي القدر (٢١٤٢) ، أحمد (١٢٠/٣) .
(٣) رواه أحمد في المسند ، ١٢٠/٣ ، وصححه الألباني وقال : إسناد صحيح على شرط الشيخين . انظر : السلسلة الصحيحة ، ٣٢٣/٣ .
(٤) انظر : إحياء علوم الدين . الغزالي ، ٢١٤/٤ - ٢٢٤ ، ط مؤسسة الحلبي وشركـاه للنشر .

أو الجحود بالدين الحق فيختم له بما سبق عليه الكتاب.

ولهذا نجد رءوس أهل الأهواء والبدع يصرحون عند الموت بضلال ما كانوا فيه.. وتتقطع قلوبهم أسى وحسرة على ضياع أعمارهم فيما ظهر لهم ضلاله [(١)].

وحينئذ لا ينجي إلا التثبيت من الله ولا نجاة بدونه. فنسألك اللهم الثبات على الإيمان حتى نلقاك عليه.

قال أبو محمد عبد الحق الإشبيلي [(٢)]

(واعلم أن سوء الخاتمة- أعاذنا الله منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم. فربما غلب ذلك عليه حتى ي ل به الموت قبل التوبة ويثبت قبل الإنابة، فيصطلمه [(٣)] الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيما، ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه، ويأخذ في طريقه، فيكون ذلك سببا لسوء خاتمته وشؤم عاقبته والعياذ بالله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [(٤)]) [(٥)].

٩ - الطرد عن حوض النبي ﷺ:

إن من شؤم البدعة على صاحبها أنه يطرد عن حوض النبي ﷺ ذلك أن الورود على الحوض إنما هو كرامة من الله لكل مسلم اتبع السنة ولقي الله عليها. والمبتدع لما خالف

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٢٧- ٢٣٠ .

(٢) هو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الأشبيلي المالكي (٥١٠- ٥٨١هـ) . فقيه . لغوى . محدث . من تصانيفه : الأحكام الشرعية الكبرى والوسطى والصغرى ، الجمع بين الصحيحين ، الوافي في اللغة . الزهد . انظر : سير أعلام النبلاء ، ١٩٨/٢١ - ٢٠٢ . معجم المؤلفين ، ٩٢/٤ .

(٣) الاصطلام- بمعنى - الاختطاف والانتزاع .

(٤) سورة الرعد آية : ١١ .

(٥) العاقبة في ذكر الموت والآخرة . لأبي محمد عبد الحق الأشبيلي ، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر ، ط ١ ، مكتبة دار الأقصى الكويت ، ١٤٠٦ هـ ، ص ١٨٠- ١٨١ .

السنة بواه وأحدث في الدين ما ليس منه كان من المحجوبين المطرودين عن الحوض، كما أن صاحب البدعة على إطلاقه ممن يخاف عليه ذلك.

فقد أخرج مسلم بسنده عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: ﴿ ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني. حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ، اختلجوا [1] دوني. فلأقولن: أي رب أصيحابي. أصيحابي. فليقالنّ لي إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك ﴾ [2] وأخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: ﴿ السلام عليكم دار قوم مؤمنين. وإنا إن شاء الله، بكم لاحقون. وددت أنا قد رأينا إخواننا. قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال " أنتم أصحابي. وإخواننا الذين لم يأتوا بعد " فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال " أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة. بين ظهري خيل دهم بهم [3] ألا يعرف خيله؟ قالوا بلى يا رسول الله! قال " فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء. وأنا فرطهم [4] على الحوض. ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. أناديهم ألا هلم! فيقال " إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقا [5] سحقا ﴾ [6] .

قال النووي:

(هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال:

- أحدها: أن المراد به المنافقون والمرتدون، فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل

---

(١) اختلجوا : اقتطعوا وانتزعوا .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا وصفات ، ٤/١٨٠٠ . .
(٣) دهم بهم : أي سود لم يخالط لونا لون آخر .
(٤) الفرط : هو الذي يتقدم القوم ويسبقهم ليرتاد لهم الماء ويهيئ لهم الدلاء والأرشية .
(٥) سحقا سحقا : أي بعدا بعدا . وهذا دعاء عليم بالطرد والإبعاد .
(٦) صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل ، ١/٢١٨ . ورواه مالك بنحوه ، كتاب الطهارة ، باب جامع الوضوء ، ١/٢٨ .

فيناديهم النبي ﷺ للسيماء التي عليهم، فيقال: ليس هؤلاء ما وعدت بم، إن هؤلاء بدلوا بعدك، أي لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم.

- والثاني: أن المراد من كان في زمن النبي ﷺ ثم ارتد بعده فيناديهم النبي ﷺ وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء، لما كان يعرفه ﷺ في حياته من إسلامهم، فيقال: ارتدوا بعدك.

- والثالث: أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام.

وعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء الذين يذادون بالنار، بل يجوز أن يذادوا عقوبة لهم، ثم يرحمهم الله سبحانه وتعالى فيدخلهم الجنة بغير عذاب.

قال أصحاب هذا القول: (ولا يمتنع أن يكون لهم غرة وتحجيل، ويحتمل أن يكون كانوا في زمن النبي ﷺ وبعده لكن عرفهم بالسيما) (١)..

وقال ابن عبد البر (٢) :

(كل من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله فهو من المطرودين عن الحوض وأشدهم من خالف جماعة المسلمين كالخوارج والروافض وأصحاب الأهواء، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق، والمعلنون بالكبائر، فكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممن عنوا بذا الخبر) (٣).

آثار البدع على الدين:

كما أن للبدعة آثارًا سيئة على المبتدع، فإن لها آثارا سيئة على الدين نفسه. وكيف لا؟ والمبتدع إنما أضافها إلى الدين ونسبها إليه فزاد في دينه أو نقص منه بسبب بدعته،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٣٦/٣ - ١٣٧ .

(٢) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي ، (٣٦٨ - ٤٦٤هـ) . إمام الأندلس وعالمها - من كبار حفاظ الحديث . فقيه . أديب . من تصانيفه : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، الكافي في الفقه المالكي ، شرح مذاهب علماء الأمصار ، جامع بيان العلم وفضله وغيرها . انظر : نفح الطيب ، ٢٩/٤ - ٣١ ، والأعلام ، ٢٤٠/٨ .

(٣) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، المكتبة التجارة الكبري - مصر ، ١٩٥٩م ، ٦٥/١ .

وهذه الآثار كثيرة منها:

١ - إماتة السنن:

إن من أعظم آثار البدعة على الدين هو إماتة السنة وذلك لأن البدع رافعة لما يقابلها من السنن، وما قامت بدعة إلا على نقض سنة وتركها فتحيا- بسبب ذلك- البدعة وتموت السنة. ويصير المعروف منكرا والمنكر معروفا. حتى إذا عمت البدع وانتشرت صارت السنة وأهلها غرباء لا تجد منهم إلا الأفراد.

ولأجل هذا اشتد تحذير الصحابة والتابعين لهم بإحسان من البدع لعظم خطرها وكثرة شرورها. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدع وتموت السنن) [(١)] .

وعن حسان بن عطية المحاربي [(٢)] قال: (ما أحدث قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لم يعدها إليهم إلى يوم القيامة) [(٣)] .

وقد حاصر السلف أهل الأهواء والبدع، وقعدوا لهم كل مرصد وكشفوا أسرارهم، وهتكوا أستارهم، ونهوا الناس عن مجالستهم أو توقيرهم، واستعانوا عليهم بإظهار السنة والصبر عليها مهما كان إيذاء أهل البدع لهم. فرحم الله بهم الأمة وكشف بهم الغمة وأعلى بهم منار الدين، فكانوا هم الطائفة المنصورة أهل السنة والجماعة. ثم دار الزمان دورته فصار أهل السنة غرباء بين أهل البدع، كما قال رسول الله ﷺ ﴿ بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء ﴾ [(٤)] [(٥)] .

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، ٣١٩/١٠ . قال الهيثمي : رجاله موثوقون . مجمع الزوائد ، ١٨٨/١ .

(٢) هو أبو بكر حسان بن عطية المحاربي مولاهم الدمشقي . من التابعين حدث عن أبي أمامة الباهلي وسعيد بن المسيب وغيرهما ، وعنه الأوزاعي وحفص بن غيلان وغيرهما . انظر : سير أعلام النبلاء ، ٤٦٦/٥ ، وتذيب التهذيب ، ٢٥١/٢ .

(٣) أخرجه الدارمي في المقدمة ، باب اتباع السنة ، ٤٥/١ ، وسنده صحيح . انظر : مشكاة المصابيح ، ٦٦/١ .

(٤) مسلم الإيمان (١٤٥) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٨٦) ، أحمد (٣٨٩/٢) .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة من بعض القلوب ، ١٣٠/١ .

على أن الأمر لم يقف عند إحياء البدعة وإماتة السنة بل تعدى ذلك إلى بغض السنة وأهلها والوقيعة فيهم.

يقول ابن تيمية:

(ومن المعلوم أنك لا تجد أحدًا ممن يرد نصوص الكتاب والسنة بقوله إلا وهو يبغض ما خالف قوله، ويود أن تلك الآية لم تكن نزلت، وأن ذلك الحديث لم يرد، لو أمكنه كشط ذلك من المصحف لفعله) [1].

ولا تقف خطورة البدع عن حد. إذ ينتهي الأمر بالمبتدعة إلى تغيير معالم الدين بوضع الرسوم، وحد الحدود، وتقعيد الأصول على الرأي والهوى. حتى تغدو وكأنا دين آخر مخترع. ويتأكد هذا في طوائف المبتدعة إذ لكل طائفة نجها في الأخذ والتلقي، والقبول والرد، والولاء والبراء، ولها موازينها واصطلاحاتا، وكأنما هي شريعة مستقلة.

٢- هجران الدين:

وأعني به هجر الكتاب والسنة وما يتبعهما من العلم النافع والعمل الصالح، ويبين هذا أن كل طائفة هجرت من النصوص ما يخالفها وسلكت لذلك مسلك التأويل والرد وربما تعدى ذلك إلى التكذيب بما جاءت به النصوص.

فغدت بذلك نصوص الشرع معطلة مهجورة من جوانب عديدة:

- عدم التماس الهدى والعلم واليقين منها.
- عدم التحاكم إليها عند الـ اع وتحكيمها والتسليم لها.
- عدم الاستشفاء بما فيها من الشفاء لأمراض القلوب وجماعها الشبهات والشهوات.

ثم إن انتشار البدع بين صفوف المسلمين سبب لحرمان أكثرهم من معرفة الحق والهدى، وحرمانم من التعبد لله بالعبادات الشرعية التي علق الله على وقوعها الثواب والسعادة في الدنيا والآخرة. فنقل المبتدعة أتباعهم من الهدى إلى الضلال ومن الحق إلى

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤٠٣ هـ ، ٢١٧/٥ .

الباطل، وهم يحسبون أنم يحسنون صنعا.

آثارها على المجتمع:

١ - التفرق والاختلاف:

كما أن للبدع آثارا سيئة على الدين فإن لها آثارا على المجتمع المسلم، وذلك يتمثل في أمور منها: الاختلاف والفرقة وما ينتج عنهما من العداوة والبغضاء. وقد نهى الله عن التفرق والاختلاف في آيات كثيرة من كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1]. وقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [2] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [3]. وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [4].

ويوضح ذلك أن كل مبتدع يريد أن ينصر بدعته وأن يدعو لها وأن يكثر سواد أهلها، ولا يتم له ذلك إلا بمخالفة السنة وأهلها والوقيعة فيهم والعداوة والبغض لهم، وكما قيل: علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر. وباستعراض تاريخ الإسلام نجد أن أهل الأهواء والبدع كانوا من أكبر أسباب تفرق المسلمين إلى شيع وأحزاب. فأول من فارق جماعة المسلمين أهل البدع من الخوارج ثم تبعهم المبتدعة على ذلك، وليس الأمر قاصرا على ذلك بل ربما تعداه إلى حمل السيف على أهل السنة كما فعل الخوارج وغيرهم.

فإن لم يستطيعوا ذلك تقربوا إلى الملوك واستعملوا حيلهم في الوقيعة بأهل السنة وإلحاق الأذى بهم، وها هم المعتزلة ومن لف لفهم يسلكون هذا الطريق ولكن

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٥ .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

(٣) سورة الأنعام آية : ١٥٩ .

(٤) سورة الروم ، آية (٣١ ، ٣٢) .

هيهات " فقد قال النبي ﷺ ﴿ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ﴾ [1] [2]. ولا يزال أهل الإسلام من المبتدعة في شر. فكم حاولوا تشويه الحقائق وتلبيس الدين على الناس وكم تحالفوا مع أعداء الله من شياطين الإنس والجن حتى ينشروا بدعهم ولو على حساب السنة. وفي التاريخ الحديث رأينا كيف شجع الاستعمار الصوفية حتى أماتت لدى المسلمين روح العزة والجهاد.

٢ - الفتن والمحن:

ومن عواقب الابتداع الوخيمة أنه ما ترك الناس السنة وأقبلوا على البدع إلا وضربهم الله بالبلاء والفتن وجعل بأسهم بينهم شديدا وسلط عليهم أعداءهم جزاء لتركهم سنة نبيهم وإعراضهم عن هديه والتمسك به. قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ﴾ [3]

ويكفي بلاء أن أعداء الإسلام استغلوا أهل البدع في تعويق الدعوة إلى الإسلام، والصحوة الإسلامية، بضرب المسلمين بعضهم ببعض.

كيفية مقاومة البدع:

لا شك أن البدع، مرض خطير يهدد الأمة الإسلامية منذ قرون. وقد ذاقت الأمة بسببه أنواعا من البلاء والفتن. وبقدر انتشار البدع بقدر ما يكون العناء والنصب. فلا بد إذا -والحالة هذه- من مقاومة البدع ما أمكن لإنقاذ من أراد الله هدايته من السقوط في مهاوي البدع والضلالات. ويتأتى ذلك بعدة أمور:

معرفة حقيقة البدعة وخطرها حتى نحدد أبعادها.

(١) مسلم الإمارة (١٩٢٠) ، الترمذي الفتن (٢٢٢٩) ، أبو داود الفتن والملاحم (٤٢٥٢) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٥٢) ، أحمد (٢٧٩/٥) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب قوله " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ، ١٥٢٣/٣ .

(٣) سورة الأنعام آية : ٦٥ .

معرفة واقع البدعة وتاريخها في كل مجتمع إسلامي وعلى ذلك تتم الدعوة إلى السنة.

نشر السنة علما وتعلما وتطبيقا وسلوكا. فإن البدع ما ظهرت إلا بخفاء السنة على الناس وغياب نورها عنهم، وجهل الناس بآثار النبوة. وعلاج ذلك هو إظهارها تعليما وتطبيقا.

الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا الأمر سبب مهم في انفتاح قلوب الناس للنور والهدى. فالداعية الحكيم هو الذي يستطيع- بتوفيق الله عز وجل- امتلاك زمام القلوب. بحسن بيانه، وجميل تصرفه، وكريم سجاياه. فكم اهتدى فئام من الناس على يد دعاة موفقين. وكم صد عن الحق كثير ممن يدعو إليه إذا لم يرزق التوفيق والحكمة، فالأمر يحتاج إلى معالجة حكيمة أشبه ما تكون بمعالجة الطبيب الناصح للمريض وقد أعضله الداء.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الأمر تابع لما قبله إلا أنه يتميز بالحسم في أكثر الأحيان ممن بيده سلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم أولو الأمر. العلماء والأمراء. فإذا كانوا على غيرة لهذا الدين دفاعًا عنه من تحريف الغالين وتأويل المبطلين وانتحال الجاهلين قلّت البدع. وإذا أداروا ظهورهم للإسلام وكأن الأمر لا يعنيهم انتشرت البدع، والمستقرئ للتاريخ الإسلامي يرى أن البدع يكثر انتشارها والـاهرة بـا حينما ينفصل السلطان عن القرآن. وينشغل أولو الأمر بالصراع على حطام الدنيا، فيجد أهل البدع فرصتهم السانحة في نشر بدعهم. وهذا يفسر لنا سر انتشار البدع كلما امتد الزمان بـذه الأمة.

فما لم يقم المسلمون عامة وأولو الأمر خاصة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسوف تنتشر البدع بآثارها الوبيلة. ويدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور منها:

تتبع الملاحدة والمرتدين ومحاولة معرفة تحركاـتم.

إقامة حد الردة على من ثبت بالدليل كفره، ومروقه، وزندقته.

منع وصول كتب الزنادقة والغلاة كابن عربي وأمثاله إلى الناس حتى لا يضل بها من لا يعرف حقيقة مذهبهم.

أمر الدعاة بتبيين أوجه ضلال هؤلاء الضالين وتحذير الناس من بدعهم.

إتاحة الفرصة لدعاة الخير لتوجيه الناس وإرشادهم وإعانتهم على أمورهم.

توجيه مناهج التعليم إلى ضرورة معرفة طلبة العلم بهذه البدع وأخطارها.

هذه بعض وسائل مقاومة البدع حسب رأيي، والله أعلم.

الخـــاتمـــة

بعد معالجتي لهذا الموضوع توصلت إلى النتائج التالية:

محبة الرسول ﷺ هي ميل قلب المسلم إلى رسول الله ﷺ ميلا يتحقق فيه إيثاره على كل من سواه من البشر.

أن المحبة أمر زائد على الاتباع، إذ هي بمثابة الباعث والدافع إلى هذا الاتباع.

أن المحبة ركن أساسي من أركان الإيمان لا يصح الإيمان بدونه.

أن التعبير الحقيقي عن محبة الرسول ﷺ يتمثل في صدق الاتباع له، والاقتداء به وتعظيمه وتوقيره والقيام بحقوقه ومحبة ما يحبه وبغض ما يبغضه.

أن بين المحبة والاتباع علاقة مطردة إذا لا يوجد أحدهما بدون وجود الآخر فمن حقق الاتباع وبذل الوسع في معرفة هدي النبي ﷺ فقد صدق في المحبة.

أن بين المحبة والغلو بونا شاسعا. فالمحبة أمر شرعي والغلو مذموم ومنهي عنه شرعا، ولا يمكن اتفاقهما.

أن من غلا في الرسول ﷺ فهو متشبه بالنصارى في غلوهم في عيسى عليه السلام.

أن بداية الغلو في هذه الأمة كانت لدى الشيعة وعنهم انتقل إلى الصوفية.

كان الحلاج أول صوفي اشتهر عنه الغلو في الرسول ﷺ منطلقا من مذهبه في حلول الإله في الإنسان. وهو في هذا يشبه النصارى في غلوهم في عيسى عليه السلام.

كان مقتل الحلاج تحولا كبيرا في من أتى بعده من الصوفية عامة وغلاتهم خاصة، وتمثل ذلك في:

- استتارهم بمذهبهم، ومحاولة إخفاء حقيقته عن عامة المسلمين.
- اتخاذ الغلو في الرسول ﷺ ذريعة إلى نشر العقائد الهدامة في صفوف الأمة بدعوى محبة الرسول ﷺ.

كان ابن عربي من أكبر السائرين على درب الحلاج في محاولة الخروج على الإسلام.

يعد ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود في المحيط الصوفي، إذ بذل في سبيل نشره

ودعوة الناس إليه كل ما في وسعه.

أن ابن عربي قد غلا في الرسول ﷺ ورفعه إلى مرتبة الألوهية بمذهبه في الحقيقة المحمدية المساوية للحقيقة الإلهية.

إن غلو ابن عربي ومثله الحلاج وغيرهما من غلاة الصوفية لم يكن نتيجة حب للرسول ﷺ بل كان زندقة وإلحادا وكيدا لهذا الدين.

كان للغلو في الرسول ﷺ أكبر الأثر في إفساد العقيدة والعبادة لدى أكثر الصوفية، وتمثل ذلك في ضلال معتقدهم في الله ورسوله.

إن الغلو في الرسول ﷺ محرم شرعا لما يفضي بصاحبه إلى الخروج من الدين.

من اعتقد مقالة غلاة الصوفية كالقول بالحقيقة المحمدية، وأن الرسول مخلوق من نور، وأنه كان موجودا بحقيقته قبل خلق السماوات والأرض. وأن الكون خلق من نوره، أو أنه روح الله المنفوخ في آدم إلى غير ذلك من مقالات الغلاة. من اعتقد بمثل هذا فقد كفر بعد قيام الحجة عليه.

إن من آثار الغلو ظهور البدع الاعتقادية والعملية.

إن البدعة أمر مذموم شرعا بلا استثناء إذ كلها ضلالة.

إن القول بتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة قول غير مستقيم شرعا.

اتخذ كثير من الصوفية اختلاف العلماء في تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة ذريعة إلى ترويج بدعهم تحت ستار اسم البدعة الحسنة.

إن الصوفية وبالأخص غلاتم من أكثر الناس ابتداعا وخروجا على السنة.

استغل كثير من الصوفية دعوى المحبة في إظهار كثير من البدع. مثل الحضرات والموالد والتوسل البدعي والشركي وصيغ الصلوات المبتدعة.

إن للابتداع آثارا سيئة على المبتدعة، وتمثل ذلك في حرمانم من الهدى وقضاء أعمارهم في التيه والضلال ثم ما ينتظرهم من أليم العقاب، إذا لم يتوبوا ويرجعوا إلى حظيرة السنة والجماعة.

كما كان الغلو سببا من أسباب الانحراف بالمحبة عن وضعها الشرعي. فإن الجفاء والتقصير في محبة الرسول ﷺ يعتبر مرضا خطيرًا يجب معالجته عند بعض المسلمين.

إن التوسط في أمر المحبة لن يكون إلا بصدق الاتباع لرسول الله ﷺ قولا وعملا تأدبا بآدابه وتخلقا بأخلاقه ﷺ.

قائمة المراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: المراجع والمصادر:

(١) **الإبداع في مضار الابتداع.** تأليف الشيخ علي محفوظ. ط ٧. دار الاعتصام القاهرة.

(٢) **أبو الحسن الشاذلي الصوفي الزاهد والعارف بالله.** تأليف د. محمد عبد الحليم محمود. ط. دار الكتاب العربي مصر ١٩٦٧.

(٣) **أحكام الجنائز وبدعها.** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ط٤ طبع المكتب الإسلامي. بيروت ١٤٠٦ هـ.

٤) **الإحكام في أصول الأحكام لأبي الحسن الآمدي.** تحقيق الشيخ عبد الرزاق عفيفي طبع المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٢ هـ.

(٥) **أحكام القرآن.** لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي - تحقيق علي محمد البجاوي. ط ١. عيسى الحلبي. مصر ١٣٧٨ هـ.

(٦) **إحياء علوم الدين.** لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي. طبع مؤسسة الحلبي - القاهرة.

(٧) **الأذكار** لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي. ط ٤. مطبعة مصطفى الحلبي - مصر.

(٨) **إرشاد الفحول.** لمحمد بن علي الشوكاني. ط ١ مطبعة مصطفى الحلبي - مصر ١٣٥٦هـ.

(٩) **استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس.** لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي - طبع مطبعة الإمام مصر.

(١٠) **الإصابة في تمييز الصحابة.** للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني. نشر دار الكتاب العربي - بيروت.

(١١) **أصول الدين لعبد القاهر بن طاهر البغدادي** ط ٣ دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠١هـ.

(١٢) **أضواء البيان** في **إيضاح القرآن بالقرآن.** للشيخ محمد الأمين الشنقيطي. مطبعة المدني. مصر.

(١٣) **الاعتصام.** للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي تحقيق محمد رشيد رضا. ط. دار الفكر العربي - بيروت.

(١٤) **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد** للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تصحيح كمال يوسف الحوت. ط ١ عالم الكتب بيروت ١٤٠٣ هـ.

(١٥) **الأعلام.** تأليف خير الدين الزركلي. ط ٥ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠م.

(١٦) **إعلام** الموقعين **عن رب العا**لمين. لابن قيم الجوزية. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط. دار الفكر بيروت.

(١٧) **أفضل الصلوات على سيد السادات.** ليوسف بن إسماعيل النبهاني. ط المكتبة الأدبية. بيروت ١٣٠٩هـ.

(١٨) **أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام. تأليف د. محمد العروسي عبد القادر. ط دار المجتمع. جدة ١٤٠٤هـ.**

(١٩) **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم.** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية. تحقيق دكتور ناصر بن عبد الكريم العقل ط ١ مطابع العبيكان الرياض ١٤٠٤ هـ.

(٢٠) **الإنسان الكامل** في **معرفة الأواخر والأوائل.** لعبد الكريم بن إبراهيم الجيلي ط ٣ مصطفى الحلبي مصر ١٣٩٠ هـ.

(٢١) **البداية والنهاية.** لأبي الفداء إسماعيل بن كثير. ط٢ مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٧م.

(٢٢) **البدع والنهي عنها** لمحمد بن وضاح القرطبي. تحقيق محمد أحمد دهمان. ط ٢

دار البصائر دمشق ١٤٠٠ هـ.

(٢٣) **بغية الوعاة** في **طبقات اللغويين والنحاة.** لجلال الدين السيوطي. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط١ عيسى الحلبي. مصر ١٣٨٤ هـ.

(٢٤) **بجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها.** لأبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي ط ٣ دار الجيل بيروت ١٩٧٩ م.

(٢٥) **تاريخ الأمم والملوك.** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. دار سويدان. بيروت.

(٢٦) **تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.** نشر دار الكتاب العربي- بيروت.

(٢٧) **تذكرة الحفاظ.** للحافظ شمس الدين الذهبي. نشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٢٨) **التعريفات.** للشريف علي بن محمد الجرجاني. دار الكتب العلمية. بيروت.

(٢٩) **تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن.** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. ط ٢ مصطفى الحلبي القاهرة. ١٣٧٣ هـ. وتحقيق. محمود وأحمد محمد شاكر. ط دار العارف مصر.

(٣٠) **تفسير القاسمي.** المسمى محاسن التأويل. لمحمد جمال الدين القاسمي - تحقيق وتخريج محمد فؤاد عبد الباقي. ط ٢ دار الفكر- بيروت ١٣٩٨ هـ.

(٣١) **تفسير القرآن العظيم.** لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي - دار الفكر بيروت.

(٣٢) **التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب** للفخر الرازي ط ٣ نشر دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣٣) **تفسير المنار.** لمحمد رشيد رضا. ط ٢ دار المعرفة بيروت.

(٣٤) **تلبيس إبليس.** لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. طبع المطبعة المنيرية- نشر دار الندوة الجديدة بيروت.

(٣٥) **تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي.** (مصرع التصوف). لبرهان الدين البقاعي. تحقيق عبد الرحمن الوكيل. ط ١ القاهرة. ١٣٧٢ هـ.

(٣٦) **تذيب الأسماء واللغات** لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي - طبع المطبعة المنيرية - مصر.

(٣٧) **تذيب تاريخ دمشق.** للشيخ عبد القادر بدران ط ٢ دار المسيرة بيروت- ١٣٩٩ هـ.

(٣٨) **تذيب التهذيب.** للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ط١ مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن الهند- ١٣٢٧ هـ.

(٣٩) **التوسل.** أنواعه وأحكامه. للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ط ٥- المكتب الإسلامي. بيروت ١٤٠٤ هـ.

(٤٠) **التيجانية.** دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة. تأليف علي محمد الدخيل الله. ط١ نشر دار طيبة الرياض.

(٤١) **تيسير العزيز الحميد** في **شرح كتاب التوحيد** - للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. ط٣، المكتب الإسلامي بيروت ١٣٩٧ هـ.

(٤٢) **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي** في **روايته وحمله،** لأبي عمر يوسف بن عبد البر. المكتبة العلمية. المدينة المنورة.

(٤٣) **جامع العلوم والحكم** لابن رجب الحنبلي. ط دار الفكر بيروت.

(٤٤) **الجامع لأحكام القرآن.** لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. ط ٢ دار الكتب المصرية- ١٣٥٧ هـ.

(٤٥) **جلاء الأفهام** في **الصلاة والسلام عل خير الأنام.** لابن قيم الجوزية تحقيق طه يوسف شاهين، طبع دار الكتب العلمية. بيروت.

(٤٦) **الجوهر** المنظم في **زيارة القبر الشريف النبوي** المكرم لابن حجر الهيتمي المكي - طبع المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٩هـ.

(٤٧) **الحاوي للفتاوي** لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٢. مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩ م.

(٤٨) **الحج والعمرة** في **الفقه الإسلامي.** تأليف د. نور الدين عتر ط ٢ مؤسسة الرسالة. بيروت.

(٤٩) **حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة.** تأليف موسى محمد علي. طبع دار التراث. القاهرة. ١٩٨١م.

(٥٠) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ط ٣ نشر دار الكتاب العربي. بيروت ١٤٠٠ هـ.

(٥١) **الحوادث والبدع.** لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي. تحقيق محمد الطالبي تونس- ١٩٥٩م.

(٥٢) **درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية.** تحقيق د. محمد رشاد سالم ط ١ من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض- ١٤٠٣ هـ.

(٥٣) **دراسة حديث: (نضر الله امرءا** سمع **مقالتي) رواية ودراية** للشيخ عبد المحسن العباد - ط١ المدينة المنورة- ١٤٠١ هـ.

(٥٤) **الدرر السنية** في **الرد على الوهابية** لأحمد زيني دحلان.

(٥٥) **الدرر الكامنة** في **أعيان المائة الثامنة** لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد جاد الحق - نشر دار الكتب الحديثة - عابدين - مصر.

(٥٦) **دلائل الخيرات.** لأبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي - طبع تركيا.

(٥٧) **دلائل النبوة.** للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي تحقيق د. عبد المعطي قلعجي. ط ١ دار الكتب العلمية. بيروت.

(٥٨) **الدليل الشافي على المنهل الصافي** لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي. تحقيق فهيم محمد شلتوت. من مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي. جامعة أم القرى مكة المكرمة.

(٥٩) **الديباج المذهب** في **معرفة أعيان علماء المذهب.** لبرهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي - ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٦٠) **ديوان البوصيري** لأبي عبد الله محمد بن سعيد بن حماد البوصيري تحقيق محمد سيد كيلاني. طبع مصطفى الحلبي مصر ١٣٧٤ هـ.

(٦١) **ديوان ابن عربي** لمحيي الدين بن عربي. نشر مكتبة المثنى- بغداد.

(٦٢) **الرد على البكري** (تخليص كتاب الاستغاثة) لتقي الدين بن تيمية - ط المطبعة السلفية مصر- ١٣٤٦ هـ.

(٦٣) **رد الفصوص المسمى (مرتبة الوجود ومـ لة الشهود)** للملا علي بن سلطان القاري - دراسة وتحقيق الطالب عبد الله علي الملا - رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى- ١٤٠٩ هـ.

(٦٤) **الرسالة.** للإمام محمد بن إدريس الشافعي تحقيق أحمد محمد شاكر ط١ مطبعة مصطفى الحلبي - مصر ١٣٥٨ هـ.

(٦٥) **الرسالة التبوكية.** لابن قيم الجوزية مراجعة الشيخ عبد الظاهر أبي السمح ط١ نشر المطبعة السلفية ومكتبتها مكة المكرمة- ط ١٣٤٧ هـ.

(٦٦) **زاد المسير** في **علم التفسير.** لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ط١ طبع المكتب الإسلامي بيروت.

(٦٧) **زاد المعاد من هدي خير العباد.** لابن قيم الجوزية تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط ط ٨. مؤسسة الرسالة بيروت- ١٤٠٥ هـ.

(٦٨) **سقط الزند.** لأبي العلاء المعري - طبع دار صادر. بيروت.

(٦٩) **السلسلة الصحيحة.** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط ٣ المكتب الإسلامي- بيروت ١٤٠٣هـ.

(٧٠) **السلسلة الضعيفة.** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ط ٥ المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٥- ١٩٨٥ م.

(٧١) **سنن الترمذي.** للإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - نشر محمد عبد المحسن الكتبي - المدينة المنورة.

(٧٢) **سنن الدارقطني.** للإمام علي بن عمر الدارقطني وبهامشه التعليق على الدارقطني للمحدث العلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي. نشر السنة. ملتان. باكستان.

(٧٣) **سنن الدارمي** للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي - نشر دار إحياء السنة النبوية- بعناية محمد أحمد دهمان - دار الكتب العلمية بيروت.

(٧٤) **سنن أبي داود.** للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ومعه معالم السنن للخطابي. إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس. ط١ دار الحديث. حمص سورية ١٣٨٩ هـ.

(٧٥) **السنن الكبرى.** للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن الهند ١٣٥٢ نشر محمد أمين دمج بيروت.

(٧٦) **سنن ابن ماجه.** لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني تحقيق وتعليق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي مطبعة عيسى الحلبي - مصر.

(٧٧) **سنن النسائي** للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ط١ إحياء التراث العربي - بيروت- ١٣٤٨ هـ.

(٧٨) **السنة** للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ومعه **ظلال الجنة** في **تخريج السنة** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط١ المكتب الإسلامي بيروت.

(٧٩) **سير أعلام النبلاء.** للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي قام على تحقيقه جماعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط١- مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ.

(٨٠) **شذرات الذهب** في **أخبار من ذهب** لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت.

(٨١) **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** لأبي القاسم هبة الله بن الحسن

اللالكائي - تحقيق د. أحمد سعد حمدان - نشر دار طيبة- الرياض.

(٨٢) **شرح ديوان البرعي** في **المدائح الربانية والنبوية والصوفية** للشيخ عبد الرحيم البرعي ط١ مكتبة المعارف محمد سعيد كمال الطائف ١٤٠٤هـ.

(٨٣) **شرح الزرقاني على موطأ مالك** لأبي عبد الله محمد عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المكتبة التجارية الكبرى. مصر ١٩٥٩ م.

(٨٤) **شرح العقيدة الطحاوية.** لعلي بن أبي العز الحنفي ط٦ المكتب الإسلامي بيروت - ١٤٠٠ هـ.

(٨٥) **شرح نج البلاغة.** لابن أبي الحديد. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم طبع عيسى الحلبي - مصر ١٣٨١هـ.

(٨٦) **الشريعة.** لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري - تحقيق محمد حامد الفقي - نشر حديث أكاديمي باكستان ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٨٧) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** - للقاضي عياض بن موسى اليحصبي طبع دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٩هـ.

(٨٨) **شفاء السقام** في **زيارة خير الأنام.** لتقي الدين السبكي طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن الهند.

(٨٩) **الصارم المسلول على شاتم الرسول.** لابن تيمية. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. طبع دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ.

(٩٠) **الصارم المنكي** في **الرد على السبكي** للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي - ط١. دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٩١) **صحيح البخاري.** للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - نشر دار إحياء التراث العربي، مصور عن طبعة السلطان عبد الحميد.

(٩٢) **صحيح الترغيب والترهيب** - للشيخ محمد ناصر الدين الألباني - ط ٢- المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٦ هـ.

(٩٣) **صحيح الجامع الصغير وزيادته** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ط٣ المكتب الإسلامي ١٤٠٢ هـ.

(٩٤) **صحيح مسلم** للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري تحقيق وتصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي. طبع دار الفكر بيروت- ١٤٠٣ هـ.

(٩٥) **صحيح مسلم بشرح النووي.** لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي. دار الفكر بيروت.

(٩٦) **صفة صلاة النبي** ﷺ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط ١١ المكتب الإسلامي ١٤٠٣ هـ.

(٩٧) **طبقات الحنابلة.** للقاضي محمد بن محمد بن أبي يعلى الفراء - تحقيق محمد حامد الفقي. نشر دار المعرفة بيروت.

(٩٨) **طبقات الشافعية الكبرى.** لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي - تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحي ط ١ مطبعة عيسى الحلبي. مصر.

(٩٩) **الطبقات الكبرى.** لابن سعد. دار صادر. بيروت.

(١٠٠) **العاقبة** في **ذكر الموت والآخرة.** لأبي محمد عبد الحق الأشبيلي - تحقيق الشيخ خضر محمد خضر - ط١ مكتبة دار الأقصى ١٤٠٦ هـ.

(١٠١) **عبد الله بن سبأ وأثره** في **أحداث الفتنة** في **صدر الإسلام.** تأليف سليمان بن حمد العودة - ط ١- دار طيبة- الرياض- ١٤٠٥ هـ.

(١٠٢) **العدة** في **أصول الفقه.** لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي - تحقيق د. أحمد بن علي المباركي - ط ١- مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٠ هـ.

(١٠٣) **العقد الثمين** في **تاريخ البلد الأمين.** لتقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي، تحقيق. فؤاد سيد - ط القاهرة - ١٣٨١هـ.

(١٠٤) **فتاوي محمد رشيد رضا.** جمع وتحقيق صلاح الدين المنجد - ويوسف خوري - ط ١- طبع دار الكتاب الجديد- بيروت- ١٩٧١ م.

(١٠٥) **فتح الباري، شرح صحيح البخاري،** للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني دار المعرفة - بيروت.

(١٠٦) **الفتح** المبين في **طبقات الأصوليين.** للشيخ عبد الله مصطفى المراغي - ط ٢ - مطبعة محمد أمين دمج - بيروت- ١٣٩٤ هـ.

(١٠٧) **الفتوحات المكية.** لمحيي الدين محمد بن علي بن عربي الطائي - طبع دار صادر بيروت.

(١٠٨) **الفرق** بين **الفرق.** لعبد القاهر بن طاهر البغدادي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - ط دار التراث- القاهرة.

(١٠٩) **فرقة أهل القرآن بباكستان وموقف الإسلام منها.** رسالة ماجستير مقدمة من الباحث خادم إلهي حسين بخش - إلى جامعة أم القرى- ١٤٠١ هـ.

(١١٠) **الفروق.** لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي - نشر دار المعرفة- بيروت.

(١١١) **فصوص الحكم.** لمحيي **الدين بن عربي - تقديم وتعليق أبو العلا عفيفي نشر دار الكتاب العربي - بيروت.**

(١١٢) **الفلسفة الصوفية** في **الإسلام.** تأليف د. عبد القادر محمود - ط ١ دار الفكر العربي مصر- ١٩٦٧ م.

(١١٣) **فوات الوفيات.** لمحمد بن شاكر الكتبي - تحقيق د. إحسان عباس - نشر دار بيروت.

(١١٤) **الفوائد الموعة** في **الأحاديث الموضوعة.** للشيخ محمد بن علي الشوكاني تحقيق عبد الرحمن بن يحيي المعلمي - مطبعة السنة المحمدية- مصر.

(١١٥) **قاعدة جليلة** في **التوسل والوسيلة لابن تيمية.** ط١ طبع دار الآفاق الجديدة بيروت ١٣٩٩هـ.

(١١٦) **قواعد الأحكام** في **مصالح الأنام للعز بن عبد السلام.** تحقيق طه عبد الرؤوف سعد طبع مكتبة الكليات الأزهرية - مصر - ١٣٨٨هـ.

(١١٧) **الكامل** في **ضعفاء الرجال** للحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي - ط١ نشر دار الفكر بيروت - ١٤٠٤ هـ.

(١١٨) **الكبريت الأحمر** في **علوم الشيخ الأكبر.** بهامش اليواقيت والجواهر. للشيخ عبد الوهاب الشعراني - طبع مصطفى الحلبي - مصر- ١٣٧٨ هـ.

(١١٩) **كتاب جماع العلم ضمن كتاب الأم.** للإمام محمد بن إدريس الشافعي ط ٢ طبع دار المعرفة- بيروت ١٣٩٣ هـ.

(١٢٠) **كتاب المروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين** للإمام محمد بن حبان بن أحمد بن أبي حاتم التميمي البستي تحقيق محمود إبراهيم زايد، ط ٢- نشر دار الوعي- حلب ١٤٠٢ هـ.

(١٢١) **الكشاف عن حقائق التن يل** في **وجوه التأويل** - لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخرشي - ط١ طبع دار الفكر بيروت - ١٩٧٧م.

(١٢٢) **كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني تصحيح وتعليق أحمد القلاش - ط٣ مؤسسة الرسالة بيروت - ١٤٠٣هـ.

(١٢٣) **الكشف عن حقيقة الصوفية.** تأليف محمود عبد الرؤوف القاسم ط١ دار الصحابة بيروت- ١٤٠٨ هـ.

(١٢٤) **لسان العرب.** لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري - طبع دار صادر بيروت.

(١٢٥) **لسان الميزان.** للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني. ط١ مجلس دائرة المعارف النظامية- حيدر آباد الدكن- ١٣٢٩ هـ.

(١٢٦) **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية** في **عقد الفرقة المرضية** للشيخ محمد بن أحمد السفاريني. مطابع الأصفهاني- جدة ١٣٨٠هـ.

(١٢٧) **مجلة البحوث الإسلامية.** مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات

البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد- الرياض- العدد ١٤- ١٤٠٦ هـ.

(١٢٨) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** للحافظ نور الدين الهيثمي ط ٣- دار الكتاب العربي بيروت.

(١٢٩) **مجموع فتاوى شيخ الإسلام** تقي الدين أحمد بن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد. طبع مكتبة المعارف الرباط- المغرب.

(١٣٠) **مجموعة أحزاب وأوراد ورسائل.** لأحمد بن إدريس الحسنى مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٤٠ م ١٣٥٩ هـ.

(١٣١) **مجموعة رسائل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود** طبع المكتب الإسلامي. دمشق.

(١٣٢) **المختار من كنوز السنة.** تأليف الشيخ محمد عبد الله دراز - راجعه وأشرف على طبعه الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري. ط ٤. قطر.

(١٣٣) **مدارج السالكين** بين منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ (١) ابن قيم الجوزية تحقيق محمد حامد الفقي. طبع دار الكتاب العربي- بيروت ١٣٩٢ هـ.

(١٣٤) **المدخل لأبي عبد الله محمد بن الحاج.** طبع دار الفكر بيروت ١٤٠١ هـ.

(١٣٥) **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ملا علي القاري.** بمباي الهند.

(١٣٦) **المسائل الموعة من الحقائق العالية والدقائق** ضمن مجموعة رسائل إسماعيلية. طبع مكتبة المثنى بغداد.

(١٣٧) **المستدرك على الصحيحين** لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري وبذيله تلخيص المستدرك للذهبي. نشر دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٨ هـ.

(١٣٨) **المسند للإمام أحمد بن حنبل الشيباني** نشر المكتب الإسلامي ودار صادر. بيروت.

(١) سورة الفاتحة آية : ٥ .

(١٣٩) **مشكاة المصابيح.** لمحمد بن عبد الله التبريزي تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - ط ٢ المكتب الإسلامي ١٣٩٩ هـ.

(١٤٠) **معالم السنن** للخطابي بهامش سنن أبي داود - طبع دار الحديث حمص- سوريا ١٣٨٩ هـ.

(١٤١) **المعتمد** في **أصول الفقه لأبي الحسين البصري** تحقيق محمد حميد الله وآخرون نشر المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية- دمشق- ١٣٨٤ هـ.

(١٤٢) **المعجم الكبير** للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ط ١ مطبعة الوطن العربي بغداد ١٤٠٠ هـ.

(١٤٣) **معجم مقاييس اللغة.** لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق عبد السلام هارون ط ٢ مطبعة مصطفى الحلبي القاهرة ١٣٦٩ هـ.

(١٤٤) **معجم المؤلفين.** تأليف عمر رضا كحالة - نشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

(١٤٥) **المفردات** في **غريب القرآن.** للراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني طبع مطبعة مصطفى الحلبي - مصر ١٩٦٢م.

(١٤٦) **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين** لأبي الحسن الأشعري. تحقيق هلموت ريتر - ط ٣، دار إحياء التراث العربي. بيروت.

(١٤٧) **مقدمة ابن خلدون.** للعلامة عبد الرحمن بن خلدون طبع المكتبة التجارية الكبرى مصر.

(١٤٨) **الملل والنحل.** لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني تحقيق محمد سيد كيلاني طبع دار المعرفة بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

(١٤٩) **مناقب الشافعي.** للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي تحقيق السيد أحمد صقر ط١ دار التراث القاهرة.

(١٥٠) **المنتظم** في **تاريخ الملوك والأمم** لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ط١ دائرة

المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ١٣٥٨ هـ.

(١٥١) **المنقذ من الضلال.** لأبي حامد الغزالي - مع أبحاث في التصوف للشيخ عبد الحليم محمود. ط٨ دار الكتب الحديثة. مصر. ١٣٩٤ هـ.

(١٥٢) **الموطأ للإمام مالك بن أنس الأصبحي** ترقيم وتخريج. محمد فؤاد عبد الباقي طبع مطبعة عيسى الحلبي - القاهرة.

(١٥٣) **ميزان الاعتدال** في **نقد الرجال** للحافظ شمس الدين الذهبي تحقيق علي محمد البجاوي - نشر دار المعرفة- بيروت.

(١٥٤) **النبوات.** لابن تيمية طبع دار الكتب بيروت- ١٤٠٥ هـ.

(١٥٥) **نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها** تأليف عرفان عبد الحميد. طبع المكتب الإسلامي بيروت ١٣٩٤ هـ.

(١٥٦) **نظريات الإسلاميين** في **الكلمة.** لأبي العلا عفيفي مقال بمجلة كلية الآداب- جامعة الملك (القاهرة ١٩٣٤ م جـ ١ المجلد الثاني ص ٣٣- ٧٥).

(١٥٧) **نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب.** للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني تحقيق. د. إحسان عباس طبع دار صادر بيروت.

(١٥٨) **النفحات الأقدسية** في **شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية** لمحمد باء الدين البيطار ط١ دار الجيل بيروت.

(١٥٩) **النهاية** في **غريب الحديث.** لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير تحقيق محمود الطناحي مطبعة عيسى الحلبي مصر.

(١٦٠) **النور المحمدي** بين **هدى الكتاب وغلو الغالين.** تأليف عداب محمود الحمش ط١ دار الأماني للنشر - الرياض - ١٤٠٧هـ.

(١٦١) **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** مطبوع بهامش الديباج المذهب لابن فرحون أبي العباس أحمد بن أحمد بن عمر المعروف ببابا التنبكتي طبع دار الكتب العلمية بيروت.

(١٦٢) **هذه هي الصوفية.** تأليف عبد الرحمن الوكيل. ط ٣ دار الكتب العلمية

بيروت ١٣٩٩ هـ.

(١٦٣) **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى.** تأليف نور الدين علي بن أحمد السمهودي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط١ مطبعة السعادة مصر ١٣٧٤ هـ.

(١٦٤) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.** لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (٦٠٨- ٦٨١) تحقيق د. إحسان عباس طبع دار صادر بيروت.

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

الفهرس